أتاتورك

رواية

أتاتورك

رواية

تأليف :

مي صالح سلّام

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

مراجعة لغوية:

سيد عثمان

رقم الإيداع: 2017/22459

الترقيم الدولي: 978-977-820-045-4

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبهَ للمساءلة القانونية.

على أسوار بابل

أتاتورك

مي صالح سلّام

رواية

في نفس كل عربي، شيء عربي...

... بـل إن الحقيقـة هـي أنـك ذلـك المغامـر الهائـم، الـذي فـرَّ مـن قارتـه هربًـا إلى ذلـك المحيـط الواسـع بحثًـا عـن جزيـرة مـن المجهـول... فـلا هـو عـلى يقـين مـن وجودهـا ولا يهتـم إن لـم يجدهـا، وإن أفـنى حياتـه سـاعيًا خلفهـا، فـإن الحيـاة ثمـن بخـس أمـام شـعوره بأنـه قـد سـافر عـبر الأزمـان محـاولًا إرضـاء شيء في نفسـه، فـلا يقـدر أن يحيـا بسـؤال: مـاذا لـو خضـت المحاولـة؟

... فـإن وطئـت أقدامـه جزيـرة المجهـول فـاز، وإن لـم تصـل حصـل عـلى إجابـة سـؤاله.

أتاتورك... أجمل حدائق ومتنزهات إسطنبول والتي تصنف من الغابات... مهرب العامة إلى الطبيعة للانسجام بمناظر الحياة الخضراء، بعيدًا عن زحام المدينة الخراسانية، يتجه إليها الجميع بحثًا عن لحظة يجتمع فيها النقاء والهدوء والانفراد بالطبيعة...

في مدخل أتاتورك توجد نافورة المياه الجميلة ترحب بزوارها، وتسلمهم لعدة طرق مختلفة يختار كل منهم طريقه ليصل إلى مظهر من مظاهر الطبيعة المختلفة التي تحتويها الحديقة، وتضم الحديقة أكثر من ألفي نوع من النباتات المختلفة، من البلدان المختلفة... وبنهاية أحد الطرق الذي يؤدي إلى إحدى البحيرات الصغيرة بالحديقة، تلهو سلحفاة صغيرة ما بين الشاطئ الصغير واليابس، وينظر إليها السيد «عدنان» بسعادة ممزوجة بالغبطة، فهو سعيد برؤيتها تلهو على الشاطئ، ويغبطها على نقاء عالمها البسيط، البعيد عن التخطيط الاستراتيجي والسياسي وأدخنة السيجار، واختناق رابطات العنق، وضيق الأفق، والقلق بشأن الغد...

العراقي «عدنان الأحمد» المقيم بتركيا بحكم طبيعة عمله، أستاذ للغة العربية بجامعة السلطان محمد الفاتح بإسطنبول... يجلس على أحد مقاعد أتاتورك يقرأ الترجمة العربية لرواية الكاتبة «أغاثا كريستي» (جريمة في قطار الشرق السريع)، (Murder on the Orient Express) الصادرة في يناير عام 1934، والتي تدور معظم أحداثها عن تحقيق العدالة الغائبة، من خلال جريمة قتل على متن القطار ما بين إسطنبول ولندن ...

وبينما يجلس السيد «عدنان» في الحديقة ينظر إلى السلحفاة بإعجاب شديد بعدما فرغ من قراءة جزء كبير من الرواية، وإذا بصديقه الوحيد في تركيا المصري الكابتن «محمود» الذي يعمل طيارًا بالخطوط الجوية التركية، والعائد من رحلته إلى لندن محملًا بالأخبار عن «زهرة» ابنة السيد «عدنان» التي تعيش في لندن برفقة جدتها لأمها السيدة «كاثرين»...

ويبدأ الكابتن حديثه قائلًا:

- ما زلتُ لا أفهم سر عشقك لحديقة أتاتورك!

يتحدث «عدنان» بصوت أربعيني أصابت أحباله الصوتية شيخوخة السبعين...

- لا أدري ربما أتمنى أن أكون مثل هذه السلحفاة الصغيرة، ليس لدي ما أخشاه في الحياة.

- آه، يا صديقي إنها الروايات التي تحيا بين طيات صفحاتها...

- دعك من هذا، كيف هي الصغيرة؟

- لم يعد هذا الوصف يصلح لها أبدًا، إن المشاكسة الصغيرة تكبر بسرعة، وهي بخير تمامًا، لا ينقصها سوى سماع صوتك في كل يوم...

ثم أخرج «محمود» هاتفه ليرى الأب المشتاق ابنته في أحدث صورها...

- انظر كم هي جميلة...

- نعم تشبه أمها كثيرًا.

- عدنان، لماذا تدعي الانشغال عن ابنتك؟ إنها ترغب في رؤيتك كثيرًا، كيف لك أن تكون قاسيًا إلى هذا الحد؟ كيف لك

أن تجلس هنا، تنتظر أخبارها مني في كل مرة أسافر فيها إلى لندن... لماذا تتركها تكبر في أحضان جدتها بعيدًا عنك؟

- ماذا تريدني أن أفعل، لا أستطيع أن أحتويها، مشرد أنا بلا وطن، إلى أي وطن أدعوها، قُتلتْ أمُّها أمام عيني، ولم أملك لها شيئًا من رصاص الغادرين، فكيف أنظر في عينيها إن سألتني أين أمي؟

- يا رجل بالله عليك، أنت تقتل نفسك هكذا!

- ومن قال لك إنني من الأحياء، هل حياة بعيدة عن وطني، بعيدة عن ابنتي ومن تبقى لي في هذه الدنيا، حياة؟!

- ولماذا لا تعود إذن إلى وطنك، لما لا تحضر «زهرة» وتعودا إلى بابل، لماذا تضيِّع عمرك هنا، إلى أي مدى تظن أن حديقة أتاتورك ستحتوي هروبك من ذاتك!

- هل تدرك معنى حديثك، تريدني أن أفقدها هي الأخرى على أيدي أولئك المجرمين تجار الدين والأعراف؟!

سكت الصديق لبرهة من الوقت فهو يعلم جيدًا ما مر به صديقه من صعوبات، ولكن رغبته في التخفيف عن صديقه دفعته للكلام... فعاود الحديث بنبرة صوت هادئة:

- ولكنه من غير المعقول أن تمضي عمرك هاربًا من الحياة في حديقة أتاتورك...

- لم تعد لدي رغبة في الحياة، فقط أريد لابنتي أن تحقق رغباتها فيها، ولا أظن أنني قادر على توفير المناخ المناسب لها لتفعل ذلك، أضف إلى ذلك أنني لا أستطيع أن أبعدها عن جدتها... العجوز ترى فيها عزاءً لابنتها التي فقدتها في بلادي...

- عدنان، أنت لا تنفك تذّكر نفسك بها.

- كيف لي أن أنسى... !

- كيف لك أن تعيش على هذه الذكرى الأليمة؟

- اعذرني يا صاحبي، كنت أعشق همس صوتها، ولمساتها التي تشبه لمسات نسمة الريح الطيب العطر، ما زلتُ أشعر بصوت أنفاسها الأخيرة بين ذراعي، ما زلتُ أشعر بدمائها تلطخ ثيابي.

كالعادة كان على محمود أن يستسلم، فهو يدرك أن ما من كلمة قد تخفف عبء صديقه، فأمسك بيده، وكأنه يواسيه وقال:

- هيا دعنا نمضي من هنا...

ثم مضى هو وصديقه مغادرَين أرض أتاتورك... ومن شدة الألم في صدر عدنان نسي أن يحضر رواية «أغاثا كريستي» وتركها على المقعد خلفه...

السيد «عدنان الأحمد» مواليد مدينة بابل العراقية، درس اللغة العربية بجامعة الموصل، وتابع الدراسة إلى أن حصل على درجة الدكتوراه في اللغة العربية، وانتقل إلى تركيا، بعد مقتل زوجته أمام عينيه في مدينة بابل مسقط رأسه برصاص الغدر في إحدى الاشتباكات بين الطوائف الدينية، كانت زوجته هي الراحلة البريطانية «سارة جورج»، مستشرقة بريطانية كانت تدرس التاريخ اليوناني والإغريقي في إنجلترا، واعتنقت الإسلام أثناء دراستها ومن ثم انتقلت إلى جامعة الموصل لدراسة التاريخ الإسلامي، قبل الحرب الأمريكية على العراق. التقت بالسيد عدنان في جامعة الموصل، وبعد قصة حب من الصعب

أن ينهـي الزمـن ملامحهـا مـن ذاكرتـه، تبعهـا صراع مـع والديهـا البريطانيـَن «جـورج» و«كاثريـن» اللذيـن لـم يعترضـا عـلى اعتناقهـا الإسـلام بقـدر اعتراضهمـا عـلى الـزواج مـن عـراقي، وبقائهـا في العـراق خاصـة بعـد انـدلاع الحـرب فيـه أثنـاء حـرب العـراق عـلى الكويـت، ومـن ثـم الحـرب الأمريكيـة عليـه، ولكنهـا أصرت عـلى الـزواج مـن «عدنـان» وانتقـلا إلى إنجلـترا وأقامَـا الزفـاف بلنـدن، لكـن سرعـان مـا ضـاق عدنـان ذرعًـا بالبقـاء بعيـدًا عـن وطنـه، واشـتد الخـلاف بينـه وبـين «جـورج» لرغبتـه في اصطحـاب «سـارة» والعـودة للعـراق، وكان جـورج يسـمي العـراق حينهـا land of hell، فغـادر عدنـان لنـدن إلى العـراق، بعدمـا اشـتد الخـلاف بينـه وبـين جـورج، تـاركًا زوجتـه خلفه وهـي تحمـل طفلتـه الأولى، ولـم تمـض عـدة أسـابيع حـتى لحقـت بـه الزوجـة بدافـع حبهـا وإخلاصهـا لـه، ومكثَـا برفقـة أهلـه في مدينـة بابـل... وهنـاك ولـدت الطفلـة الصامتـة «زهـرة».

حيـث اكتشـفا في عامهـا الثالـث أن اللـه رزقهمـا بطفلـة بكمـاء لا تتكلـم، وكانـت الأمـور في البدايـة لا بـأس بهـا، رغـم الحـرب وحوادث القتـل والانفـلات الأمـني الـذي أصـاب البـلاد، والاعتقـالات والقتـل العشـوائي عـلى الأسـس العرقيـة، رغـم أنـين الجـراح عـلى الوطـن الـذي يـنزف دمـاءه قطـرة بعـد الأخـرى وهـو يذبـح بسـكين الحـرب البـاردة...

كان يكفـي عدنـان دفء اللجـوء إلى أحضـان زوجتـه وابنتـه، رغـم قلقـه الزائـد عليهمـا، ومـع اشـتداد الأوضـاع سـوءًا، وبعدمـا خيمـت سـحب الحـرب السـوداء عـلى سـماء العـراق، قـرر عدنـان أن يعيـد زوجتـه وابنتـه إلى لنـدن، خاصـة أنهـا كانـت حاملًا في طفلهمـا الثـاني، ولكـن القـدر سرعـان مـا داهمـه، فبعدمـا حصـل على تأشـيرة السـفر،

شـعرت زوجتـه في اليـوم السـابق ليـوم السـفر بوعكـة مرضيـة، فذهبـا إلى الطبيـب وفي طريـق العـودة أوقـف سـيارته ليدخـل إلى إحـدى الصيدليـات ليشـتري العـلاج لزوجتـه، تـاركًا إياهـا في السـيارة وفي أقـل مـن عـشر دقائـق سـمع أصـوات الرصـاص تنهـال مـن كل صـوب وحـدب...

ملثمـون عـلى درجـات ناريـة انهالـوا عـلى المـكان بطلقـات الرصـاص، وخـرج الـزوج أثنـاء إطـلاق النـار، مسرعًـا بناحيـة السـيارة، وفتـح البـاب ليجـد زوجتـه غارقـة في دمائهـا، فحملهـا خـارج السـيارة ولكـن لـم يسـتطع التحـرك إلى أي مـكان؛ حيـث ازدادت طلقـات النـيران مـن كل اتجـاه، فبقـي الـزوج يحمـل زوجتـه عـلى ذراعـه وهـي تفقـد آخـر أنفاسـها، وتضـع يدهـا عـلى وجهـه، وتنظـر إليـه بشـدة وكأنهـا لا تصـدق أنهـا سـترحل ولـن تـراه مجـددًا، بينمـا بقـي هـو ينـادي «يـا رب... يـا رب» بصـوت مرتفـع... ويتوسـل إليهـا «سـارة... لا ترحـلي... لا تتركيـني... ابقـي معـي»...

إلى أن ينتهـي المشـهد بتسـليم الزوجـة روحهـا إلى خالقهـا ويكتـب اللـه قضـاءه فيهـا، بعـد أن نطقـت شـهادة الإسـلام ... وينخفـض صـوت النـيران شـيئًا فشـيئًا... إلى أن يختفـي الصـوت تمامًـا، ويعـم الصمـت عـلى الجثـث في المـكان، وتنطلـق صرخـات النسـاء مـن كل مـكان، في مشـهد مـروع تقشـعر لـه الأبـدان... وخيـم الوجـوم عـلى الـزوج، يتيـم الوطنـين فبـين يديـه وطنـه الصغـير ضريـح المـوت، ومـن حولـه وطنـه الكبـير ضريـح الخـراب...

وبـين يديـه، ماتـت الناطقـة بشـهادة الإسـلام عـلى يـد دعـاة التطهـير الديـني، والعـرقي...

... عندمـا قتلـت والـدة «زهـرة» كان عمـر الفتـاة أربـع سـنوات،

وبرحيل زوجته وحبيبته انهار «عدنان»، وكره حياته بعد أن شعر أنها ضمن العديد من الحيوات التي لا يضع لها صناع الحروب ثمنًا، خاصة بعد الأحداث السياسية في بلاده بعد الحرب الأمريكية عليها.

فترك عمله بالجامعة، وقرر الانتقال إلى لندن برفقة ابنته، ومكثًا في منزل السيدة «كاثرين»، والدة «سارة»، بينما «جورج» العسكري المتقاعد والأب السبعيني لم يستطع أن يتكيف مع الحياة بعد رحيل ابنته التي لم يستطع أن يحميها من أفكارها كما كان يحدِّث نفسه، وأصابه الجنون؛ إذ لم يصدق أن ابنته ماتت، فكان يذهب إلى الكنيسة كل يوم يتضرع بين يد الرب ليعيد ابنته للحياة، ولا ينفك يقف في غرفة الاعتراف يعترف بذنوبه، ولا ينفك يضيء شموع الأماني تحت أقدام العذراء... إلى أن فارق الحياة واقفًا على قدميه بجوار آلة الموسيقى، يستمع إلى الموسيقى المفضلة لدى ابنته الراحلة سارة، وتحت قدميه كأس الويسكي الساقط من يده...

لم يبق في المنزل بعدها سوى «زهرة» والسيدة «كاثرين»، وابنتها الأخرى «كيت» التي كانت تدرس القانون... كانت كاثرين كثيرًا ما تحتضن «عدنان» لتشعر بقرب ابنتها منها، وكانت تشم رائحتها فيه؛ لأنها تعلم كم كانت ابنتها تحبه، ولكن لم يستطع «عدنان» المكوث معهم طويلًا؛ إذ كان يرى في الطفلة صورة زوجته الجميلة، وهي تلفظ آخر أنفاسها بين ذراعيه وهو يرجوها ألا تذهب وتتركه... ولكنها فعلت...

لم يستطع قضاء وقت طويل في إنجلترا، فبعد شهور قليلة قرر العودة للعراق، ولكنه لم ينو البقاء في أراضي وطنه، بل

قـام بنقـل عملـه مـن جامعـة الموصـل إلى جامعـة السـلطان محمـد الفاتـح في إسـطنبول، عـلى الرغـم مـن أنـه لا يتقن اللغـة التركيـة، وفي الأراضي التركيـة، أَسَرَتـه أشـجار ونباتـات حديقـة أتاتـورك، فأصبحـت مـلاذه مـن كل شيء، يهـرب إليهـا كثـيرًا مـن ذكرياتـه الأليمـة، برفقـة روايتـه الـتي مـا ينفـك يغـرق نفسـه بـين طيـات صفحاتهـا، هروبًـا مـن أفـكار زوجتـه الراحلـة... وفي إسـطنبول التقـى بصديقـه المـصري «محمـود»، ولـم يصـادق أحـدًا غـيره.

كان الكابـتن المـصري متعاطفًـا كثـيرًا مـع قصـة صديقـه العـراقي، فهـو لا ينفـك يتابـع الأحـداث السياسـية، وتسـوؤه كثـيرًا أوضـاع البـلاد العربيـة ويتابـع أحداثهـا، وهـو الأمـر الـذي كان يزعـج «عدنـان» كثـيرًا. فقـد اعتـاد الهـروب مـن كل شيء وبخاصـة مـن الأحـوال السياسـية. وكان يكـره أن يتحـدث مـع صديقـه «محمـود» حـول السياسـة.

حيـث كان «عدنـان» يـرى أن السياسـة الدوليـة تشـبه لعبة شـطرنج غـير متكافئـة الأطـراف، ويـرى أنهـا قائمـة عـلى النفـاق والكـذب، فالقـادة يخدعـون الشـعوب، والشـعوب تقبـل بالخضـوع، ودعـاة حمايـة الحـق منتـشرون في كل مـكان، وحقـوق الإنسـان كيـان هـش أمـام المصالـح العليـا... ويـرى أن لعبـة السياسـة مـا هـي إلا حـرب بـاردة للفـوز بالغنائـم، وكل شيء فيهـا مبـاح وقاعدتهـا الوحيـدة هـي: لا قواعـد...

لذلـك كان يحـب كثـيرًا اللجـوء إلى أتاتـورك، وكان كثـيرًا مـا يسـير في غابتهـا بـين الأشـجار المختلفـة لسـاعات دون أن يمـل...

كإنسـان لا يملـك هدفًـا في الحيـاة وترافقـه باسـتمرار ذكـرى زوجتـه وحبيبتـه الراحلـة، يمـضي «عدنـان» الأيـام عـلى هامـش الحيـاة...

يتجنب معرفة الناس ويبتعد عن الحياة الاجتماعية... مضى عام على بقائه في إسطنبول التي لم يغادرها إلى مدن أخرى بتركيا يكفيه منها اللجوء إلى حديقتها الشهيرة أتاتورك.

إلى أن شاء القدر أن ينسى روايته في ذلك اليوم على أحد مقاعد أتاتورك، لتقع في يد الأميرة «شامية»...

«شامية» الأميرة الشقراء زرقاء العين لامعة الجبين، أميرة قصر السيد «عمر الأغا» وأميرة قلبه أيضًا، فهي ابنته ووريثة عرشه الوحيدة، فتاة جامعية على أبواب العشرينيات... بينما والدها السيد «عمر» ينتهي نسبه إلى أسرة السلاطين في الدولة العثمانية، رجل أنيق سلطان في ذاته يمتلك مجموعة من شركات المقاولات الكبيرة في تركيا، ومساهم في عدة شركات في مجالات أخرى، متزوج من العراقية السيدة «رقية عرفات» من مدينة الأنبار العراقية.

وتعمل «رقية» كطبيبة أطفال بإحدى المستشفيات في تركيا، وهي عضوة في جمعية أطباء بلا حدود، تقضي معظم أوقاتها في العمل الخيري... كثيرة السفر إلى المناطق المنكوبة، وكانت آخر زيارتها، برفقة أعضاء الجمعية... إلى الأراضي الفلسطينية... على الرغم من اعتراض زوجها بشدة على انضمامها للجمعية خوفًا على حياتها لكنها كانت متمسكة بتأدية رسالتها بقوة...

بين الأب الديمقراطي ورجل الاقتصاد، والأم الأخلاقية وسيدة الخير... نشأت «شامية» الفتاة المتحررة تمامًا من فكر الاثنين، بل كانت كيانًا خاصًّا بها، تذهب للجامعة في الحافلة كبقية رفاقها، تتجول في الطرقات بملابس بسيطة مترفعة عن الفخامة، تقضي معظم أوقاتها برفقة أصدقائها، وتعشق البقاء معهم ...

أكـثر شيء تجيـده في الحيـاة هـو الاسـتمتاع بوقتهـا... تسـتطيع أن تقـضي العطـلات في مختلـف بقـاع العالـم، لكنهـا تفضـل قضاءهـا في شـوارع إسـطنبول برفقـة أصدقائهـا... ليـس لـدى «شـامية» أي نظـرة فلسـفة خاصـة سـوى أنهـا تعيـش لتسـتمتع بأيامهـا... لكنهـا لـم تكـن تـدري أن كل هـذا عـلى وشـك أن ينقلـب رأسًـا عـلى عقـب...

صديقتهـا المقربـة «عائشـة» صديقـة طفولتهـا وزميلـة دراسـتها... والباقـون «معـتز» و«رهـف»... مـن أماكنهـم المفضلـة في إسـطنبول حديقـة أتاتـورك... ولكـن ليـس للاسـتجمام بالمنظـر الطبيعـي، بـل للهـو والمـرح عـلى شـواطئ بحيراتهـا...

في اليـوم ذاتـه الـذي نـسي فيـه عدنـان روايـة «أغاثـا كريسـتي» عـلى أحـد مقاعـد أتاتـورك، دخلـت شـامية ورفاقهـا الثلاثـة إلى المتنزه ومـروا بالمقعـد نفسـه لتعـثر شـامية عـلى الروايـة... قالـت:

- انظروا ماذا وجدت...

ردت عائشة:

- ماذا؟

- لقـد نـسي أحدهـم كتابـه... جريمـة في قطـار الـشرق السريـع... «أغاثـا كريسـتي» مـن هـي أغاثـا كريسـتي؟

ردت عائشة:

- وما أدراني... مكتوب بالعربية... أنا لا أقرأ العربية...

ضحكت رهف وقالت:

- وهل تقرأين بأي لغة أخرى حتى تستثنين العربية...

ردت عائشة بغضب:

- حقًّا ولما لا تفيدينا أنتِ، ألا تدرسين العربية... هيا اقرأي لنا من هي «أغاثا كريستي»..

- وهل أدرسها وحدي، اسألي شامية، إنها تعرفها جيدًا، فأمها عراقية، وهي أيضًا تدرس العربية...

تدخلت شامية لفض النزاع:

- هلا توقفتما الآن، على كل حال ليس مكتوبًا عليه تعريفٌ لها...

نطق معاذ المثقف الذي يعتبر نفسه أفلاطون عصره، ساخرًا من الجميع:

- يا لكم من جهلاء، ألا تعرفون «أغاثا كريستي»! عار على كونكم طلبة جامعة... إنها كاتبة كبيرة ومشهورة أيها الحمقى...

ردت عليه شامية ساخرة:

- حقًّا ظننتهم كتبوا اسمها على الغلاف كإهداء لها، أيها الأحمق بالطبع نعرف أنها كاتبة، وإلا ما كتبوا اسمها على الكتاب... أفدتنا يا فليسوف عصرك...

تدخلت عائشة وقالت:

- حسنا دعونا من هذا الجدال... لنضع الكتاب هنا ونمضي في طريقنا...

قال معاذ :

- أي طريق هذا، سنمكث بجوار هذه البحيرة، لن أقدر على أن أخطو إنشًا واحدًا دون أن آكل... هل أحضرتم شطائر البرجر خاصتي...

همست رهف، في أذن عائشة:

- أحمق لا يفكر في شيء سوى الطعام...

فقال «معتز»:

- فيما تتهامسون؟

ردت عائشة:

- ليس أمرًا مهمًّا، دعونا نجلس بالقرب من البحيرة، هيا...

ذهب الجميع وجلسوا بالقرب من البحيرة التي كانت أمام المقعد، وبقيت شامية ممسكة بالكتاب تفكر في صاحبه، من الذي قد يقرأ في أتاتورك رواية بهذا الاسم؟ وباللغة العربية! وبينما جلس الجميع يأكلون ويتسامرون، كانت شامية تقلب صفحات الرواية... فوجدت فيها صورة، لامرأة شابة، الصورة التي اعتاد عدنان أن يضعها في صفحات الكتب حيث توقف عن القراءة، صورة زوجته الراحلة.

«سارة»... أمسكت شامية الصورة بيدها فحدست أن الرواية من الممكن أن تكون لهذه المرأة الجميلة... لكن بينما تعيد وضعها في الكتاب لاحظت أنها مكتوب عليها في الخلف بالعربية «اشتقت إليكِ يا سارة»، فعرفت حينها أن الكتاب ليس لصاحبة الصورة بل لمن هو مفتون بصاحبة الصورة... لم تشرك أصدقائها فيما عثرت عليه، لأنها تعلم أنهم سيبدأون بالسخرية، ولن يقدر أي منهم قيمة ما كُتب على ظهر الورقة... وبينما هم جالسون قالت رهف:

- انظروا إلى هذا الهائم هناك...

ثم أشارت بيدها إلى رجل يقف ويبدو عليه الحيرة، بجوار

نفس المقعد الذي وجدت عليه شامية الرواية، كان هذا الرجل هو عدنان الذي أدرك حين وصل منزله أنه قد نسي الرواية، فعاد ليستعيدها، بدا عليه الحزن الشديد؛ لأنه لم يجدها، ثم جلس على المقعد في حزن إلى حد أنه لم يلحظ وجود الأصدقاء الأربعة على البعد البسيط منه، ولم يخطر بباله أن يقترب منه ليسألهم عن كتابه...

ولم تدرك شامية أنه قد يكون يبحث عن الرواية في يدها؛ لأنه بدا مهرولًا أكثر من أن يكون عاشقًا، وهي لا تدرك أن العشق لا يتوقف على مظهر معين، وكانت تظن في العاشق أناقة المظهر كأناقة الحب... نظرت إليه، ولكنها لم تعره كثيرًا من الاهتمام... فقد كانت أكثر انشغالًا بكتابه الذي في يدها... ولكن أصدقاءها لم يتوقفوا عن إلقاء الدعابات على مظهره... إلى أن قام من مقامه وغادر من أمامهم...

انصرف عدنان من المتنزه، عائدًا إلى بيته... وبعد أن أمضى الرفاق الأربعة القليل من الوقت على شاطئ البحيرة قرروا الانصراف أيضًا... وأخذت شامية معها الرواية إلى المنزل، أو بالأحرى القصر الذي تعيش فيه... قصر عمر الأغا، كل ركن فيه هو قطعة معمارية أنيقة... النظر إلى حديقة المنزل، وجدرانه، والأثاث الموضوع فيه، وفخامته، يشبه الاستماع إلى سيمفونية موسيقيه أنيقة... ولكن الدخول إلى غرفة شامية يغير الموسيقى تمامًا لتصبح مقطوعة ساخرة... أكثر ما يميز غرفة شامية، الفوضى... بداية من الحذاء الموضوع على الوسادة نهاية بألبوم الصور المندثر على سجادة وبرية على الأرض... لقد تخلصت من الكثير من أعراض المرأة، لكنها ما تزال تعتقد أن الغرفة غير

المرتبة يسهل إيجاد الأشياء فيها... إلى حد أنه إذا قام الخدم في غيابها بترتيب الغرفة، صرخت بوجوههم وتزمرت وأمرتهم بإعادة كل شيء كما كان عليه... لذلك عندما يدخلون لتنظيف الغرفة يحرصون على وضع كل شيء في مكانه كما هو، حتى لو كان حذاءً على وسادة...

عندما وصلت منزلها في ذلك اليوم، كعادة إهمالها للأشياء ألقت الرواية على الأريكة بجوار الفراش، وبدأت في إفراغ محتويات الحقيبة الأخرى على نفس الأريكة باحثة عن الهاتف، التي اعتادت أن تحدث رفاقها عليه قبل النوم في كل ليلة... وكأنهم لم يكتفوا من المزاح طوال اليوم فيكملون عبر الهاتف، إلى أن تغرق الأميرة في النوم، وتترك الهاتف مفتوحًا مع رفاقها في كل يوم، لا يفارقونها حتى وقت النوم ...

وفي الناحية الأخرى، يقف صاحب الكتاب، في مطبخ شقته الصغيرة يعد طعام العشاء... ويتناوله على مضض فهو يكره أن يضطر للطهو الذي لا يجيده... ولا يمكنه أن يمضي أيامه كلها في مطاعم إسطنبول... وبعدما يفرغ من الطعام سيكون عليه أن ينظف غرفة الجلوس، كما كانت سارة ترغمه أن يفعل في كل مرة يتسبب فيها بالفوضى في المنزل... وينتهي به الأمر في فراشه وحيدًا، يلقي نفسه في أحضان ذكريات زوجته الراحلة...

ويسلم رأسه للنوم الذي لا يزوره إلا مع مطالع الفجر، فأرق الذكريات لا يترك العاشق إلا مع بزوغ شمس اليوم الجديد...

ومن داخل غرفة شامية لم يختلف الأمر كثيرًا أيضًا... فقد كانت هي الأخرى ما تزال غارقة في النوم، ولكنها كانت نائمة منذ ليلة الأمس...

وفي داخل القصر من غرفة المكتب المواجهة لبهو القصر من الأسفل، كان يقف السيد «عمر»، وأخوه «خالد»، وهو رجل في الخمسين يصغر عمر سنًّا بعامين، ومن غرفة المكتب كان يعلوا صوتهما في شجار حاد بينهما... إلى أن وصل إلى مسامع الأميرة النائمة، ففزعت من نومها وخرجت من غرفتها بسرعة، لكن أوقفتها ملكة القصر... واحتضنت فزعها بين ذراعيها وأخذتها إلى داخل غرفتها من جديد، كأم قلقة على ابنتها قالت:

- لا عليك... إنها مشكلات العمل... لا تقلقي سيعودون لهدوئهم الآن...

ولكن ظلت شامية ترتجف إلى أن هدأ صوت الشجار، ولم تفهم لما كان هذا الشجار بين والدها وعمها...

وبعد قليل أتت صديقتها عائشة إلى المنزل في موعد كل يوم للخروج برفقتها... عندما أتت عائشة نسيت شامية الشجار، واطمأنت لكلمات أمها أن المشاحنات تحدث أحيانًا لكنها لا تؤثر على العلاقات، فهدأ روعها... ثم خرجت الأم من الغرفة متجهة نحو زوجها لتتبين حقيقة الأمر... وبقيت الفتيات في الغرفة.

ثم بدأت شامية وصديقتها تخطتان، ماذا سيفعلان اليوم، استلقت عائشة على الفراش ثم قالت: إن «معاذ» لن يرافقهما؛ لأنه سيكون مشغولًا مع رفاق الصالون الثقافي الذي تعرف عليهم مؤخرًا... فردت عليها شامية وهي منشغلة في تحضير نفسها للخروج وتذهب وتجيء بين خزانة الثياب والحمام الذي في داخل الغرفة، تتحرك هنا وهناك باحثة عن الأغراض كعادتها... قائلة:

- أي صالـون ثقـافي، هـل يملـك الأحمـق فكـرًا مـن الأسـاس! كيـف يفضـل الخـروج برفقـة مجموعـة مـن الحمقـى عـلى الخـروج معنـا؟

- لا أدري، يقـول إنهـم مفكـرون بارعـون... الأحمـق مـا ينفـك يمجد في عقولهـم، ولكنـني لا أخـال عقولهـم تحتـوي عـلى شيء، فلـو كانـت تحتـوي عـلى شيء لمـا قبلـوا بشـخص مثـل «معاذ» أبـدًا...

- حسنًا، وماذا عن رهف... ألم تتصل؟

- لا، لا بـد أنهـا مـا تـزال نائمـة، تعرفـين أنهـا لا تسـتيقظ إلا عندمـا نذهــب إليها...

- أين هي، أين؟!

- رهف؟!

- لا بل قبعتي...

- حسـنًا تفقـدي الغرفـة جيـدًا ربمـا تجدينهـا، فـوق هـذه الثريـا الكبـيرة مثـلًا!

- وجدتها...

- حقًّا فعلت، كيف هذا؟

- كانت في خزانة الملابس...

ردت عائشة ساخرة:

- إنه أمر عجيب حقًّا، كيف وصلت إلى هناك؟

- حسنًا، أتسخرين من غرفتي يا آنسة؟!

- غرفـة، أيـن هـي هـذه الغرفـة... مـرأب أبي مرتـب أفضـل مـن هـذا المـكان الـذي تسـمينه غرفـة...

قالت شامية وهي تربط شعرها الذهبي بربطة الشعر:

- أحبها هكذا...

ثـم وضعـت القبعـة عـلى رأسـها، واسـتعدت للخـروج برفقـة عائشـة، وقبـل أن تغـادرا تذكـرت شـامية بطاقـات الائتمـان خاصتهـا، فراحـت تبحـث عنهـا عـلى الأريكـة الـتي أفرغـت عليهـا محتويـات حقيبتهـا البارحـة، وكان أمامهـا مبـاشرة كتـاب عدنـان لكنهـا لـم تنتبـه لـه فربمـا نسـيت الأمـر برمتـه... وراحـت تبحـث بـين البطاقـات وتتمتـم:

- هذه فارغة، وهذه فارغة... وهذه لن تكفيني لليوم...

فأخـذت البطاقـة ووضعتهـا في حقيبـة الظهـر خاصتهـا، ثـم حملـت الحقيبـة، اتجهـت لصديقتهـا، وقالـت:

- هناك مشكلة...

فقالت عائشة وهي تتأفف:

- ماذا الآن؟

- نفذت بطاقاتي الائتمانية ...

- ماذا! وماذا سنفعل؟...

- لا شيء، سنتسول في شوارع إسطنبول!

قالت عائشة مازحةً، وقد بدا عليها الاهتمام بالفكرة:

- تبدو فكرة جيدة...

فضحكـت شـامية كثـيرًا مـن تعابـير الجديـة عـلى وجـه عائشـة، وكأنهمـا ستتسـولان فعـلًا، وقالـت وهـي تضحـك:

- أفضل التسول من أبي، علي التسول من سكان إسطنبول...

فضحكتـا ضحكـة عاليـة، ثـم نـزلَا إلى الأسـفل... واتجهـت شـامية

إلى مكتب والدها، ومن شدة اندفاعها دلفت دون أن تقرع الباب... عندما دخلت كان أبيها يجلس في استياء على أحد المقاعد، وبجواره أمها تضع يديها على كتفه وتواسيه، فتغيرت كل ملامح السعادة على وجه شامية إلى الجدية... وقالت:

- ماذا هناك؟

أجابها الوالد، وقد انتفض من على مقعده، ونفض من على وجهه كافة ملامح الأسى ليستقبلها، بابتسامته المعتادة... وقال:

- لا شيء إطلاقًا عزيزتي، إنها بعض ضغوط العمل... ألن تذهبي برفقة عائشة؟ قالت أمك إنها أتت لاصطحابك، ألم تذهبا بعد؟... أين عائشة؟

- إنها تنتظر بالخارج، كنا على وشك الذهاب...

- ولماذا لم تفعلَا؟

- نفذت بطاقاتي الائتمانية نحتاج المال...

- اه، أنتم لا تنفكون تهدرون الأموال...

- هيا أبي، اعتبرنا إحدى الجمعيات الخيرية التي ترعاها... أضف إلى ذلك أننا نهدر المال في الطعام والتسوق... فيذهب إلى أهالي إسطنبول من الباعة... ألسنا أهم جمعية خيرية تستحق أن ترعاها؟

ضحك الأب كثيرًا بعد كلمات ابنته وقال:

- بل أنتم أفضل شيء حصلت عليه في هذا الحياة، أحيانًا أتمنى لو يعود بي الزمن للوراء، فأخرج برفقتك أنت والرفاق المدللين...

- لم يفت الأوان بعد، وسنرحب بك طبعًا بيننا، لأنك ستمدنا

بالأموال لنمرح أكثر...

ضحك عمر كثيرًا من كلمات ابنته، وكأنه قد نسي الشجار مع أخيه، ومشكلات العمل... ثم انصرف ليحضر لها المال... فاقتربت منها أمها وقالت:

- اه... تعرفين دائمًا كيف تعدلين مزاج أبيك أيتها المدللة الصغيرة... ولكن اسمعي عودي باكرًا اليوم، قد أسافر إلى بغداد... أريد أن أراك قبل أن أرحل...

- بغداد ولكن لما بغداد الآن؟ ... الأوضاع خطرة هناك...

- لا تقلقي إننا أطباء نكون دائمًا مؤمنين جيدًا، ولا نكون داخل نطاق الحرب... كما أن الأطفال في مستشفيات بغداد بحاجتي الآن... وكيف لا أكون في عون أطفال موطني...

- ألا يمكنك أن تبقي بعيدًا عن الأخطار لأجلي...

- عزيزتي، أفعل أي شيء لأجلك... ولكني أعدك أنني سأكون بخير...

- كم ستغيبين هذه المرة؟

- أعدك لن يطول الأمر أكثر من شهر... سأحدثك كل ليلة... وسأشتاق إليك في كل لحظة...

ثم جاء الوالد بالمال ليعطيه لابنته... وقال:

- حسنًا، أيها المدللون ها هو المال، اذهبوا، اقضوا وقتًا ممتعًا...

أخذت شامية المال من أبيها، وقالت، وهي تسرع في الخروج كشابة صغيرة لا تدرك للحياة أخطارًا:

- سنفعل...

وقالت الأم:

- شامية... لا تنسي أن تعودي باكرًا...

- حاضر يا أمي...

كانت رقية تنظر إلى ابنتها، وقلبها يخفق بشدة، وكأنها تشعر أنها تذهب من أمامها للأبد...

ثم قال عمر، وهو يمسك بيد زوجته:

- أما زلت مصرة على السفر لبغداد؟

- أوضاع الناس هناك صعبة جدًّا... لا أستطيع أن أبقى، وهم في هذه الحال... إنها بلادي يا عمر...

- أنا لن أمنعك من الذهاب، ولن أرغمك على أن تأخذي حراسة خاصة معك... سأسمح لكِ أن تفعلي ما تريدين... ولكن عديني أن تكوني بخير...

- أعدك عزيزي، سأعود من أجلك...

- لم أعهدك، تنكثين وعودك يا رقية، إياك أن تفعلي هذه المرة...

- سأكون بخير، لا تقلق...

بالخارج كانت شامية وعائشة ذاهبتان إلى بيت رهف سيرًا على الأقدام، فمنازل الثلاثة لا تبعد كثيرًا عن بعضها البعض... وأثناء السير قالت شامية:

- متى تنوين الاعتراف لمعاذ بأنك تحبينه؟

أجابت عائشة في استهجان:

- مـاذا؟! هـل جننـت؟ إنـه أحمـق، لا يقـدر قيمـة أي شيء... إلى جانـب أنـه وجـد رفاقًـا آخريـن الآن... وهـا هـو ذا يتركنـا لأجلهـم...

- اووو، أنـت تتذمريـن لأنـه تركنـا مـن أجـل حفنـة الحمقى هـؤلاء... عزيـزتي عائشـة تعلمـين طبـاع معـاذ جيـدًا... إنـه لا يتمسـك بالأمـور لأكـثر مـن شـهرين فقـط! دعيـه لشـهرين، وانظـري كيـف سـينسى أمـر أولئـك الحمقـى...

- أليـس هـذا سـببًا مقلقًـا برأيـك أنـه لا ينفـك يتخـلى عـن الأمـور، ربمـا مـل مـني أنـا أيضًـا وتخـلى عـني مـاذا سـأفعل حينهـا...

- مـاذا، يتخـلى عنـك!! عندهـا سأوسـعه ضربًـا إلى حـد أنـه لـن يسـتطيع النهـوض عـلى قدميـه مـن جديـد...

ضحكت عائشة كثيرًا ثم قالت:

- حسنًا إذن، ابدأي في تلقي دروس القتال...

وتابعـت الصديقتـان الطريـق إلى مـنزل رهـف بالحديـث والضحـك... في حـين اختلـف الوضـع مـن داخـل شـقة عدنـان... الـذي لـم يكـن قـد اسـتيقظ مـن نومـه بعـد، حـتى إن صـوت الهاتـف الـذي لـم يتوقـف عـن الرنـين لـم يؤثـر فيـه... إلى أن انطلـق صـوت قـرع البـاب، بشـدة... ففـزع مـن منامـه، وذهـب ليفتـح البـاب... فـإذا بأحد الجـيران يـصرخ في وجـه بغضـب شـديد... فحـاول تهدئـة الرجـل... وكان سـبب الـصراخ هـو أنـه تـرك صنبـور الميـاه يعمـل منـذ البارحـة إلى هـذا الوقـت إلى أن نزلـت الميـاه في شـقة جـاره... خـلال المبـنى القديـم الـذي يسـكن فيـه... ثـم أسرع يطفـئ الميـاه وقـد وجـد أن نصـف شـقته تقريبًـا كانـت غارقـة في الميـاه... اعتـذر عدنـان للرجـل ووعـده أن يصلـح الأمـر... لـم يكـن يـوم الرجـل جيـدًا لكنـه كان عـلى

عـادة الأيـام منـذ رحيـل زوجتـه...

عندمـا انتقـل عدنـان لتركيـا كان في اسـتطاعته أن يشـتري شـقة فخمـة في حـي راقٍ، ولكنـه اختـار أن يسـكن بعيـدًا عـن صخـب المجتمع الـراقي وزيفـه، واختـار شـقة في مبـنى قديـم... ليعيـش بـين النـاس البسـطاء، ولكـن المبـنى كان يعـاني مـن بدائيـة الخدمـات فيـه... قـام عدنـان إلى شـقته يجفـف الميـاه منهـا ويعيـد ترتيـب الفـوضى، خطـوة بخطـوة في هـدوء، وصمـت لا يشـعر بمـا يقـوم بـه، ولكنـه يعـرف أنـه يتوجـب عليـه القيـام بـه، لا يتذمـر لحالـه، ولا يفكـر إن كان جيـدًا أم سـيئًا أن يسـكن في مبـنى بخدمـات بدائيـة... وبعدمـا انتهـى فتـح هاتفـه ليسـتمع إلى الرسـائل الـتي تركـت في بريده الصـوتي... وكان مـن بينهـا رسـالة مـن محمـود يخـبره أنـه سـيحلق إلى مـصر وسـيقضي أسـبوعًا هنـاك... والأخـرى مـن إدارة الجامعـة تخـبره أنـه عليـه التقـدم إليهـا، لمناقشـة البرنامـج الـدراسي الـذي سـيقدمه خـلال العـام... ومـن ثـم قـرر الدخـول إلى المطبـخ ليعـد شـيئًا للطعـام... ولكنـه عـاد يتذكـر كـم أن طهـوه سـيئ للغايـة... فقـرر الذهـاب ليتمـشى في شـوارع إسـطنبول، ومـن ثـم يتنـاول الطعـام في أحـد مطاعمهـا...

بينمـا وصلـت شـامية وعائشـة إلى مـنزل رهـف، الـتي كانـت مـا تـزال نائمـة هـي الأخـرى... لـم توقظهـا شـامية بطريقـة عاديـة، بـل إنهـا أمسـكت كـوب المـاء في يدهـا، اسـتعدادًا لترشـه عـلى وجههـا في حـين لبسـت عائشـة قناعًـا مخيفًـا اعتـادوا المـرح بـه، اسـتعدادًا ليفزعاهـا مـن نومهـا... وعندمـا اتفقـا، بـدأت شـامية تـرش المـاء عـلى وجـه رهـف الـتي فزعـت مـن نومهـا... وظهـرت أمامهـا عائشـة فجـأة بالقنـاع المخيـف فانتفضـت مـن فراشـها صارخـة، وعندمـا أدركـت أنهمـا

صديقتاها... راحت تصرخ في وجهيهما بغضب... وحملت الوسادة وبدأت تركض خلفهما في المنزل... الركض والضحك واللعب والاندفاع الطائش كانت أشياء تمثل حياة شامية ورفاقها الثلاثة...

بعدما انتهى المرح في منزل رهف، خرجن جميعًا ليتمشين في شوارع المدينة التي يعلم فيها أثر أقدامهن في كل شبر فيها من كثرة ما مشين فيها، حتى إن الباعة، وأصحاب المحال الصغيرة والكبيرة في إسطنبول يعرفوهن، شامية ورفاقها... إلى أن حل المساء وقرروا الذهاب إلى أحد مطاعم إسطنبول ليتناولن الطعام خاصة بعد أن أنهى معاذ يومه مع رابطة شباب العمل الميداني التطوعي، وانضم إلى رفاقه...

في المطعم بينما كان عدنان يجلس على طاولة صغيرة بجانب نافذة زجاجية ينظر للورود اللامعة في بداية المساء ومن أمامه الطاولة عليها الطعام ومزهرية صغيرة بها زهرة تيوليب صفراء... إذا بصوت ضجيج عند باب المطعم يجذب انتباهه أكثر من الزهور خارج النافذة ... أربعة أصدقاء في مقتبل العشرينيات دخلوا إلى المطعم وعيونهم مفعمة بحيوية الشباب ... وكأنهم ليس لديهم ما يقلقوا بشأنه في الحياة...

لم تكن هناك طاولة فارغة سوى تلك المقابلة لطاولة عدنان... والتي كان يتمنى ألا يجلس عليها أحد فيضطر إلى الاستماع لتفهاتهم كما كان يظن دائمًا ... ولكن أتاه ما هو أصعب... فإذا بأصحاب الضجة يتجهون ناحية الطاولة ويجلسون عليها... عندها أدرك عدنان أن عليه إنهاء طعامه بسرعة ليغادر المكان، بينما كان هؤلاء الأربعة هم شامية ورفاقها، عائشة، ورهف، ومعاذ الذين لم يلحظوا وجود الرجل الذي قابلوه عند البحيرة في أتاتورك

بالأمس في الغالب لم يتذكروه...

إن كان عدنان يعشق الصمت فهؤلاء الأربعة لا يطيقونه على الإطلاق... حيث بدأ حديثهم يخترق أذنيه...

قالت عائشة بسخرية موجهة الحديث إلى معاذ:

- حسنًا، متى ستحررون العالم من الطغاة؟

عندما سمع عدنان سؤال الفتاة انتبه إلى الحديث... وكأنه يعنيه، وغير رأيه في أنهم سيتحدثون في التفاهات، وراح يستمع إلى رد معاذ وهو يرد على سخرية عائشة:

- لا أتوقع منكم سوى السخرية، وما أدراكم أنتم بمشكلات الحروب والجوع والفقر في العالم من حولكم...

بدا كلام الفتى لعدنان يدعو إلى الضحك، وقال في نفسه... إن الفتى يتحدث بحرارة، وكأنه قد عايش الحروب والجوع والفقر... لا يبدو عليه أنه يومًا فارق حضن أمه...

قالت شامية بجدية غير معتادة:

- حسنًا يبدو أن حفنة الحمقى الذين تركتنا لأجلهم كانوا بارعين، فقد استطاعوا أن يغيروا منك بسرعة، ولكن دعنا لا نتعجل الأمور فكلنا نعلم جيدًا أنه بعد مرور شهرين ستنسى الأمر، وتبدأ في البحث عن شيء آخر لتهتم به.

- هذه المرة لا، أنا الآن صاحب قضية أدافع عنها في هذه الحياة...

ردت عائشة بسخرية:

- توقف أيها الأحمق، لا تليق بك أبدًا هذه الجدية...

فرد معاذ غاضبًا:

- ولما لا، هل تظنين أنني لست إنسانًا، هيا يا قوم ألا تتأثرون بمشكلات الحروب في العالم من حولكم... ألا يسوؤكم حال المستضعفين والأبرياء...

ردت شامية قائلة:

- وما الذي يدفعهم للخضوع؟ إن كانت الحرب فليحمل جسده أمامه ويقاتل به، أو يموت بشرف دفاعًا عن أرضه، وإن كان الجوع فليخرج باحثًا في الأرض عن طعام، وإن كان الفقر، فليحمل على ظهره فأس ويخرج للعمل....

لم يفهم عدنان ما الذي دفع الفتاة لقول مثل هذا الكلام، وهجومها على الفتى بشدة بهذا المنطق الغريب؟ فقد كانت تلك المرة الأولى التي يرى أحدًا يتحدث عن ضحايا الحروب بهذا الشكل... ووجد في ردها شيئًا غريبًا، شيئًا من القسوة والجحود... على عكس كافة الناس وبخاصة الفتيات، فإن الفتاة لم تظهر تعاطفًا، أو حزنًا مع الفئة التي يتحدث عنها الفتى... ثم بدأ يتابع حديثهم باهتمام أكثر... فاستمع إلى معاذ يرد عليها قائلًا:

- إن خرج حاملًا جسده، فسيفقد حياته، وإن خرج بحثًا عن الطعام فسيقتله الجفاف، وإن حمل فأسه للعمل فسيتم استعباده...

- أنت تحاول فقط أن تبرر وجهة نظرك...

ثم بدأ الشجار يدور بين شامية ومعاذ... فبدى الأمر لعدنان كأنهم مجموعة من الصغار المزعجين الذين ما زالوا يقفون على بوابة العالم، ولم يدخلوا إليه ليروا الواقع...فقام من مقامه

وأخـرج المـال مـن جيبـه ووضعـه عـلى الطاولـة ثـم خـرج مـن المـكان...

في حـين بقـي الجـدال قائمًـا بـين شـامية، ومعـاذ... وكانـت شـامية تقـول:

- لا يوجد مستضعفون بل يوجد مستسلمون للضعف...

- حقًّـا، ومـا رأيـك في الأطفـال، والنسـاء، والشـيوخ ضحايـا الحـروب، مـا رأيـك بضحايـا المجاعـات، مـا رأيـك بالمسـتعبدين بسـبب الفقـر...

ردت رهف:

- معاذ، أنت تهزي، ما الذي تظن أنك تسطيع أن تفعله؟

- سـأرفع صـوتي في العالـم كلـه أنـدد بمـا يحـدث فيـه مـن مشـكلات...

قالت شامية:

- الآن أصبحـت متعاطفًـا مـع العالـم! وهـل تظـن أن انضمامـك إلى أولئـك الحمقـى سـيفيد العالـم في شيء، لقـد أصبحـت عاطفيًّـا لا أكـثر... تمامًـا مثـل أمـي...

تذكـرت شـامية في نفسـها أمهـا، وتذكـرت أنهـا عليهـا أن تذهـب لتودعهـا قبـل السـفر... وقبـل أن تخبـر رفاقهـا أنهـا سـتنوي الذهـاب إلى المـنزل، أوقفهـا رد معـاذ الصـادم عـن حديثهـا:

- كيـف لفتـاة مثلـك أن تشـعر بهـؤلاء المسـتضعفين... عـلى كل حـال إن أمـوال والـدك ونفـوذه يؤمنـون لـكِ حيـاة ليـس عليـك القلـق بشـأنها، فكيـف لأحـد مثلـك أن يشـعر بهـؤلاء النـاس؟

كان رد معـاذ، صادمًـا لهـا بسـبب الصداقـة الـتي تربطـه بهـا، لـم

تعقب على حديثه بسبب صدمتها منه... ولكن عائشة تدخلت مسرعة لتلطف من الجو، قائلة:

- هيا معاذ ما هذا الكلام...

قطعت شامية حديث عائشة بجدية... وقالت:

- لا عليك عائشة ... عليَّ الذهاب الآن ستقلع طائرة أمي بعد قليل...

ثم قامت من المكان استعدادًا للرحيل، فقالت عائشة:

- انتظري سآتي معك...

فردت عليها شامية بضيق:

- لا عليك، أريد السير وحدي...

ثم خرجت من المطعم تسير على قدميها، مندفعة بعيدًا عنه... وتفكر في كلمات معاذ، بضيق شديد... كيف له أن يعدها مجرد فتاة ثرية لا تأبه للعالم من حولها.

في حين أنها لا تشعر بالفرق بينها وبينهم رغم غناها الفاحش، فهي تفضل البقاء معهم، لا تذهب للجامعة في سيارة فخمة، لا تقضي أوقاتها مع الفتيات اللواتي يتباهين بأموال أهليهم، تأكل معهم في مطاعم بسيطة وليست فخمة، تعدهم أهم شيء في حياتها، ورغم كل هذا يخبرها معاذ اليوم أنها فتاة ثرية لا تدرك قيمة الأمور من حولها...

وبينما تسير في غضب شديد وتسرع الخطى لتوقف سيارة أجرة تعود بها إلى المنزل، يفيقها من غفلتها وتفكيرها صوت أنين الطبقة الفقيرة في المجتمع، ونتاج التكتلات العشوائية، لصًّا يخطف حقيبة الظهر التي كانت تمسكها بيدها، ويركض بعيدًا،

في اتجـاه الرجـل الـذي ينتظـر سـيارة الأجـرة عـلى بدايـة الطريـق، فيعـترض الرجـل طريـق اللـص الـذي كان يركـض باتجاهـه، محـاولًا إيقافـه، ولكـن يتلقـى لكمـة قويـة في وجهـه تسـقطه أرضًـا، وتسـقط مـن جيبـه حاملـة مفاتيحـه.

كان هـذا الرجـل الـذي أوقـف اللـص وتلقـى اللكمـة هـو عدنـان، الـذي قـام مـن مكانـه ليوسـع اللـص ضربًـا، وينهـال عليـه بالـضرب بشـدة، صحـب اللكمـات الغضـب، غضـب رجـل خـارج عـن السـيطرة، إلى حـد أنـه هشـم وجـه اللـص، وأغرقـه في الدمـاء، كأنـه يخـرج طاقـة غضـب مكبوتـة بداخلـه... ثـم عـاد منظـر الدمـاء ليذكره بمنظـر دمـاء زوجتـه الـتي سـالت بـين يديـه... فيهـدأ فجـأة ويتملكـه الضعـف... ويفـر اللـص مـن بـين يديـه هاربًـا... عندهـا اقتربت شـامية لتلتقـط حقيبتهـا الملقـاة عـلى الأرض، والتقطـت حاملـة مفاتيـح الرجـل الـذي أنقذهـا، وتقـترب لتشـكره وتعطيـه إياهـا، فنظـرت إلى وجهـه الـذي بـدا مألوفًـا لهـا، لكنهـا لـم تتذكـر أيـن رأتـه مـن قبـل، لـم تـدرك أنـه الرجـل ذاتـه الـذي كان يبـدو عليـه الأسى في حديقـة أتاتـورك بالأمـس... ومـدت يدهـا لـه بحاملـة المفاتيـح، ولاحظـت في حاملـة المفاتيـح أنهـا خشـبية محفـور عليهـا بالعربيـة «سـارة»، لكـن مـن شـدة الصدمـة حينهـا، لـم تربـط بـين الاسـم عـلى الميداليـة والاسـم عـلى الصـورة الـذي وجدتهـا في الكتـاب ... ومـن هـول الصدمـة مـضى عدنـان مـن أمامهـا قبـل أن تتمكـن مـن أن تشـكره، غـادر الرجـل مـن أمامهـا ولـم ينتظـر سـيارة الأجـرة بـل تابـع الطريـق سـيرًا عـلى قدميـه، إلى أن اختفـى مـن أمامهـا... وبمجـرد اختفائـه بـين الطرقـات، توقفـت أمامهـا سـيارة أجـرة، فأسرعـت تركبهـا عائـدة إلى المـنزل... بينمـا أكمـل عدنـان سـيره إلى شـقته... يعاتـب نفسـه عـلى

العنف الذي أظهره في ضرب اللص، ويلوم الظروف التي مر بها في حياته ليتحول من إنسان هادئ إلى ذئب قاسي القلب، إلى حد أنه لم يشعر بنفسه وهو يوسع اللص ضربًا... ولم ينتبه أن الفتاة التي ساعدها هي نفسها التي كانت تجلس أمامه قبل قليل في المطعم...

بينما كانت الفتاة نفسها تجلس في سيارة الأجرة وتحتضن حقيبتها بخوف، تفكر فيما حدث معها قبل قليل، من جهة تعرضها لأول مرة للسرقة، ومن جهة أخرى ما قاله معاذ لها... إلى أن توقفت السيارة أمام باب منزلها... فقفزت من السيارة مسرعة تركض عبر حديقة القصر إلى داخله... وبدأت تنادي أمها... ولكن دون إجابة، كانت قد تأخرت... لقد ذهبت أمها...

ثم خرج والدها من غرفة المكتب قائلًا:

- لقد ذهبت... انتظرتك حتى آخر لحظة، كانت ترغب برؤيتك بشدة قبل أن ترحل...

صرخت قائلة:

- لماذا لم تتصل بي؟

فأجابها والدها:

- حاولت كثيرًا ولكن دون جدوى، هاتفك كان مغلقًا...

نظرت شامية إلى أبيها، وهو يتحدث وكادت الدموع أن تتفجر من عينيها، وتنهار من البكاء... لكنها أسرعت إلى الأعلى.

أسرعت إلى غرفتها... تبكي في فراشها إلى أن غرقت في النوم.

بينما كان عدنان قد وصل هو الآخر إلى شقته، ولكنه كان مرهقًا إلى حد أنه استقلى على فراشه وحسب، ونسي تمامًا أنه سيكون

عليـه التوجـه إلى الجامعـة لمناقشـة البرنامـج الـدراسي في اليـوم التـالي...

سـكن الليـل وخيـم هـدوؤه عـلى المدينـة، ولـم يبـق عـلى يقظـة فيهـا سـوى القطـط والحيوانـات المـشردة، وسـكنت المدينـة الـتي ينفجـر فيهـا صخـب الحيـاة مـن الملامـح الأولى للـشروق حـتى آخـر أنفـاس الضـوء وقـت انسـحابه في نهايـة كل يـوم...

ليخيـم السـكون أيضًـا عـلى عالمـين هيهـات للعقـل أن يظـن أنهمـا قـد يتقابـلَا، ولكـن القـدر لا ينفـك يفاجـئ بـني البـشر بأحكامـه...

لـم تكـن شـامية تعلـم أن عالمهـا كلـه عـلى وشـك الانقـلاب رأسًـا عـلى عقـب، ولـم يكـن عدنـان الـذي ظـن أن الحيـاة قـد يأسـت منـه، وأنهـا تركتـه يحيـا بـاقي أيامـه في هـدوء عـلى وشـك أن تشـعل الثـورات عليـه مـن جديـد، وأنـه ظـن خاطئًـا أن أحـداث المـاضي العاصفـة تعـني أنـه قـد اسـتقبل بالفعـل كل مفاجـآت الحيـاة دفعـة واحـدة...

في اليـوم التـالي حـين دقـت السـاعة العـاشرة في الصبـاح ... كانـت تـروس المدينـة قـد عـادت للـدوران، ومـا يـزال أسـتاذ الجامعـة مسـتلقيًا في فراشـه، بـين الفـوضى، إلى أن فتـح عينيـه عـلى الضـوء الـذي اخـترق زجـاج نافذتـه ليصـل لعينيـه، ضـوء شـديد إلى حـد أنـه لـم يسـتطع فتـح عينيـه دفعـة واحـدة، ولكـن كان عليـه أن يفتحهمـا ليكتشـف مـا يكتشـفه كل صبـاح أنـه مـا زال حيًّـا... مـا زال حيًّـا ولا يعلـم السـبب ولا الحكمـة مـن حياتـه...

بمنتهـى التخامـل والكسـل يغـادر الفـراش كمـا يفعـل كل صبـاح عـلى عكـس مـا يفعلـه سـكان السـاحرة إسـطنبول... فكيـف لتلـك الشـابة اليافعـة ألا تأثـر قلـوب قاطنيهـا... إلا أنهـا رغـم جمالهـا

وسحرها لم يكن لها دلال على الحزن الدفين في قلبه...

كان يقوم من فراشه كل صباح كالمخمور الذي تتخبط برأسه الأوهام... وكأنه يحيا في عالم غير العالم، لا يرى من معالم الجمال شيء ولا تلحظ عينيه سوى سواد الطريق...

هكذا كان أستاذ الجامعة يرى الدنيا من حوله سوداء قاتمة حتى في بداية النهار، بدأ يحوم في بيته كعادته كل صباح ليرى ماذا سيفعل في يومه، ومن ثم رن هاتفه، ليأتيه هاتف من الجامعة يذكره بأنه قد تأخر عن لقاء المناقشة، فيهرول كعادته خارجًا من منزله...

بينما كانت الحسناء شامية الاسم والملامح والشيم، ما تزال في فراشها لم تفق من ثباتها بعد...

وفي أثناء نومها دخلت صديقتها عائشة، فهي الأقرب لقلبها، وهي التي تعرف كيف تنعشها من حزنها، بلمسة رقيقة على وجه رفيقتها كانت كافية لإيقاظها من نومها، ظنت شامية أنها أفاقت على لمسة من يدي أمها فتبسم جبينها، ثم وجدت عائشة أمامها، فكتمت ملامح الصدمة حتى لا تسيئ عائشة الفهم...

قالت عائشة:

- صباح الخير...

وردت عليها شامية تحية الصباح، ولكن بصوت يظهر الكثير من الأسى...

ولأن عائشة تعلم السبب بالفعل فلم تسألها عنه، فقط أرادت أن تخرجها ممَّا هي فيه فقالت:

- ما رأيك أن نخرج معًا اليوم، بدون معاذ أو رهف، ستحتاجين

إلى إمضاء قليل من الوقت بعيدًا عنهما إلى أن تشعري بالرغبة في لقائهما مجددًا...

أشارت شامية برأسها مؤيدة عائشة دون كلمة واحدة... ثم قالت إنها ستستعد للخروج معها، وقامت من نومها لتجهز نفسها... وبقيت عائشة في الغرفة، وبينما تنظر للأريكة المقابلة للفراش لاحظت وجود كتاب يظهر جزء منه من أسفل الأشياء الملقاة فوقه، فقامت من مقامها لتتفقده وعندما حملته اكتشفت أنها الرواية نفسها التي وجدوها ملقاة على مقعد حديقة أتاتورك، اندهشت وهي تفكر في السبب الذي يدفع شامية للاحتفاظ بها، وعندما فتحتها سقطت منها صورة المرأة الحسناء، ومكتوب عليها اسم سارة...

في تلك الأثناء كانت شامية قد عادت وهي تلف شعرها الذهبي في منشفة، وعندما ظهرت أمام عائشة سألتها:

- من تكون سارة؟

وبمجرد سؤالها وكأن بريقًا أضاء أمام عين شامية، فتذكرت حاملة المفاتيح المكتوب عليها بالعربية سارة... وربطت الاسم الذي نطقته عائشة بالاسم المحفور على الميدالية الخشبية في حاملة المفاتيح، والاسم المكتوب خلف صورة الحسناء التي وجدتها في الرواية، وتذكرت ملامح الشخص الذي أنقذها من اللص وأدركت أنه الشخص ذاته الذي رأته في بستان أتاتورك ... وتذكرت كيف كان هائمًا كأنه يبحث عن شيء ما... وبينما تقف شامية وهي تحاول الربط بين الصور والأحداث في ذاكرتها، أفاقها صوت عائشة تناديها:

- شامية... ما الأمر؟

- لقد عرفت صاحب الكتاب؟

- أي كتاب؟

- الذي تحميلينه.

- حقًّا كيف؟

- لقد أنقذني بالأمس... هيا سنبحث عنه.

- ماذا! أنا لا أفهم أي شيء...

- سأخبرك في الطريق... هيا الآن...

- إلى أين؟

- سنبحث عنه.

- عمَّن؟

أوقف سؤال عائشة اندفاع شامية، فهي لا تعرفه ولا تعرف شيئًا عنه... ولكنها فقط لا تأبه إلا بشعور الفضول في داخلها للوصول إليه... فقالت:

- لا أعرف... أنا لا أعرف من هو...

- جيد، إذن...

- لكني أرغب بشدة في أن أعرف...

- هدأي من روعك... الآن عدتي للهذيان.

- أنا لا أهذي صدقيني، يجب أن أراه، يجب أن أعرفه، لقد أنقذ حياتي... عندما غادرت المطعم بالأمس في الليل هاجمني أحد اللصوص، ولكنه تصدى له وأنقذني.

أجابت عائشة في ذهول:

- ماذا!! هل حدث لكِ كل هذا بالفعل؟

- نعم، صدقيني، أنا لا أهذي...

- ولكن، كيف و...

قطعت شامية حديث عائشة، وهي تجوب أنحاء الغرفة قائلة:

- هيا، دعك من التساؤلات، أنا بخير الآن، ليس أمامنا وقت دعينا نذهب للبحث عنه؟

- هل جننت، أتعنين أننا سنذهب نبحث في شوارع إسطنبول عن غريب لا نعرفه ولا نعرف عنه شيئًا؟!

توقفت شامية عن الحركة والتفتت إلى عائشة وقالت:

- منذ متى وأنت تتحدثين لغة العقلاء؟!

- هيااا، أنتِ لا تأخذين أي شيء على محمل الجد...

قالت عائشة كلماتها وهي تهم بالجلوس على الأريكة، ولكن قبل أن تفعل، أمسكت شامية بمعصميها وقالت:

- أريد الوصول إليه...

- إلى من؟

- لا أعرف... لا أعرف!

- إذن كيف تظنين أنك ستجدينه...

- سأجـ...

قطع صوت شامية صوت المربية وهي تخبرها أن أمها على الهاتف... فهرعت إلى الهاتف لتحدثها، واطمأنت عائشة لذلك فقد ظنت أنها عندما تعود ستكون قد نسيت الأمر برمته كعادتها... ولكن بعدما انتهت شامية من الحديث مع أمها، إذا بها تعود للغرفة مسرعة...

- وصلت أمي العراق بخير وتقول إنها بأمان هناك، وسامحتني على تأخري في الأمس... هلا ذهبنا؟

- جيد، إن أمك بخير...

- نعم إنه أمر جيد، والآن هلا ذهبنا؟!

- إلى أين؟!

- إلى المطعم الذي كنا فيه بالأمس، لقد كان الرجل هناك.

- حقًّا... هل يعمل هناك؟ شامية لقد فقدتي عقلك حتمًا.

- حسنًا، فعلت والآن خذي قرارًا سترافقيني أم لا؟

ردت عائشة وهي تتمتم بينما تحمل حقيبة الظهر استعدادًا للخروج...

- أقسم أنك أكثر فتاة مجنونة قابلتها يومًا؟

فردت عليها شامية وهي تلحق بها بعد أن التقطت الرواية لتأخذها معها:

- أعلم أنك لن ترفضي الذهاب معي حتى ولو إلى برمودا...

خرجت الفتاتان لتبحثًا عن الغريب الذي لا يعلمَان عنه شيئًا.

بينما كان الغريب قد أنهى مقابلته في الجامعة، واتصل به صديقه محمود الذي كان قد وصل إسطنبول بعد آخر رحلاته... ليمضي الوقت معه إلى أن يحين موعد رحلته القادمة كعادته، وروتينية زيارة أتاتورك والجلوس والسير فيها، والبقاء في شقته، وإما إمضاء بعض الوقت برفقة صديقه إن كان موجودًا في إسطنبول...

وعلى جانب شامية، فقد خرجت برفقة صديقتها تجوب

الأماكـن بحثًـا عـن الغريـب وهـي مؤمنـة تمامًـا أنهـا حتمًـا سـتعثر عليـه، وبعدمـا قصدتًـا المطعـم الـذي كان فيـه، وقضيًـا سـاعات مـن السـير في حديقـة أتاتـورك والتحديـق في وجـوة المـارة بحثًـا عـن الغريـب ... قالـت عائشـة، بعدمـا توقفـت ووضعـت يديهـا عـلى ركبتيهـا مـن شـدة الألـم...

- لن أخطو خطوة واحدة، سأتوقف هنا... أكملي السير وحدك.

ثـم جلسـت عـلى العشـب، ونظـرت إليهـا شـامية، ثـم نظـرت إلى مجلـد الروايـة الـذي في يدهـا، وشـعرت باليـأس مـن أن تجـده، كانـت تشـعر أنهـا تبحـث عـن إبـرة في كومـة قـش فاستسـلمت، وجلسـت هـي الأخـرى بجـوار عائشـة...

فقالت عائشة:

- أتعلمين ما أكثر ما يزعجني؟

- ماذا!

- أنك ستنسين الأمر برمته بعد قليل.

- ولما لا تصدقين أنني أهتم للأمر بالفعل؟

- أي أمر؟ لماذا تبحثين عنه، وما الذي ستفعليه إن وجدته؟

- سأعيد إليه مجلده حتمًا، وسأشكره لأنه أنقذني من اللص...

- شـامية...! أراهـن أنـك تفضلـين تنـاول المثلجـات في الشـارع عـلى أن تهتمـي بـأن تعيـدي شـيئًا لأحدهـم!! خاصـة أنهـا روايـة وأنـتِ لا تحبـين القـراءة.

- حسـنًا ربمـا أنـتِ محقـة... بـل أنـتِ محقـة بالفعـل، لكـن ربمـا أريـد أن أشـكره، لقـد أنقـذ حيـاتي تعلمـين...

- أهـا... حسـنًا، وأراهـن أيضًـا أنـك قـد تنسـين أن تشـكري أحـدًا قـدَّم لـكِ معروفًـا إن رأيـتي أطفـالًا يلعبـون بالكـرة، فحينهـا سـيكون كل همـك الركـض معهـم، ولـن تبـالي ...

- حسنًا هل أنا سيئة إلى هذا الحد، لماذا أنتِ صديقتي إذن؟!

ضحكت عائشة من كلماتها، وقالت وهي تغالب الضحك:

- لأنني أشبهك يا عزيزتي...

انتهـى الأمـر بالفتاتـين يجلسـان يضحـكان في حديقـة أتاتـورك، واتفقـت شـامية مـع عائشـة ألا تخـبر معـاذًا ورهـفَ عـن الأمـر، وأخبرتهـا أنهـا نسـيت الأمـر ولـم تعـد ترغـب في البحـث عـن صاحـب الروايـة... ومضـت الأيـام، ولـم يتغـير الكثـير غـير أن شـامية الـتي لـم تكـن تحـب القـراءة، إذا بهـا تنهـي قـراءة روايـة أغاثـا كريسـتي، وتهتـم بكتاباتهـا، وتبحـث عنهـا... وتمـضي الوقـت مـا بـين مراسـلة أمهـا، ومرافقـة أصدقائهـا، والاسـتمتاع بالوقـت كعادتهـا، ولـم يجـد شـيئًا عـلى تصرفاتهـا الطائشـة، سـوى أنهـا أصبحـت تبحـث في وجـوه كل المـارة عـن صاحـب المجلـد، دون أن يلاحـظ أصدقاؤهـا ولا حـتى عائشـة، فقـد كانـت تمـضي الوقـت معهـم وهـي تضحـك وتسـتمتع وفي داخلهـا تطاردهـا فكـرة البحـث عـن الغريـب وهـل سـتلتقيه مـرة أخـرى أم لا ...

بينمـا كان غريبهـا يمـضي وقتـه هـو الآخـر كعادتـه... هائمًـا في دنيـاه...

إلى أن مـرت الأيـام، وبـدأت الدراسـة في الجامعـة، فذهـب كل منهمـا لشـأنه؛ الأسـتاذ لعملـه والطالبـة لدراسـتها...

وبينمـا كانـت شـامية تجلـس في صـف اللغـة العربيـة برفقـة

صديقتها رهف، يتحدثان كالعادة، إذا برجل لا يبدو عليه هيئة الأستاذ الجامعي يدخل الصف ويحييهم...

بمجرد دخول عدنان الصف، عرفته شامية وتذكرت مظهره حينما رأته أول مرة في حديقة أتاتورك، وحينما أنقذها من اللص، أدركت أنه الرجل الذي كانت تبحث عنه... وراحت تحدق في هيأته الصادمة، أستاذ جامعة في اليوم الأول للدراسة، ولا يبدو عليه أي شيء من الأناقة... بل إنه لا يبدو عليه أنه يبدي أي شيء من الاهتمام لمظهره... ليس هذا وحسب بل إن طريقته في الحديث وصوته المليء بالخشونة الممزوجة بالألم... كل تلك الشواهد زادت من الفضول في نفس شامية لتعرف من هو وما هي قصته ...

بهدوء ممزوج بكل الألوان الملل والإحباط أدار الأستاذ حصته الأولى، التي لم يكن فيها أي شيء من الشغف أو حتى شيء من تشجيع طلابه...

فقط كلام ركيك لا يختلف عن كلام الكتب والمجلدات، وحديث خالٍ من أي تعبير عن أي شعور، كأنه آلة تسجيل تعيد ما تلقته...

وبمجرد انتهاء الصف، ودعهم إلى لقاء آخر، وهمَّ بالخروج... وبقيت شامية هائمة تفكر فيما يحمله صاحب الرواية من أسرار، وكيف له أن يكون بهذه الحال،... وأفاقها صوت رهف تناديها:

- شامية... شامية أين أنتِ؟

- ماذا تريدين؟

- انتهى الصف هيا لنذهب، أريد أن أتناول الطعام ... لا بد

أن الحمقى ينتظروننا.

- حسنا اذهبي إليهم سألحق بك.

- إلى أين ستذهبين؟

- سألحق بك إليهم...

- شامية...

كانت قد قامت مسرعة لتلحق بالمعلم...

- سيدي... سيدي.

التفت عدنان لها، وقال:

- نعم، ما الأمر؟

-...

لم تتوقع شامية هذا الرد، فسكت لسانها، فقد ظنت أنه سيتذكرها، لم تكن تعرف أن الغريب لا يحب أن يتذكر أي لحظة من الماضي حتى لو كانت الثانية الماضية، فكيف له أن يتذكرها....

لم تستطع أن تطيل صمتها فقالت مسرعة:

- لقد سعدت بالصف اليوم برفقتك سيدي...

بدا على عدنان الاندهاش، فهو يعرف جيدًا أنه من المستحيل أن يستمتع أحدٌ بصفه، فهو يدرك جيدًا أن طابع الاكتئاب يغلب عليه... فأخذ حديثها كمجاملة كاذبة، واضطر للرد فقال:

- جيد، أتمنى أن تستمتعي بالصفوف الأخرى أيضًا.

- شكرًا سيدي.

أومأ برأسه معبرًا عن امتنانه ثم مضى في طريقه، بينما وقفت

شامية تنظر إليه وهو يختفي من أمامها بين جموع الحضور في وضح النهار كما اختفى من أمامها في المرة التي أنقذها فيها....

كانت رهف قد لحقت بها هي الأخرى، ووقفت تشاهد ما يحدث من بعيد، وبعد انصراف المعلم وبقاء شامية في مكانها تنظر إليه... وقفت تنظر إليها وتتعجب من نظرة الاهتمام في عينيها. إلى أن قررت أن تقطع عليها لحظة الاهتمام تلك، فاقتربت منها ثم من أذنيها، ونادت بصوت مرتفع، وسريع:

- شامية..!

فزعت شامية من صوتها فردت في غضب:

- ما بالك اليوم، هل قررتي العمل كمنبه؟!

فردت رهف بسخرية:

- ما بالي أنا؟!

- ماذا تقصدين بنبرتك تلك؟

- لا شيء، هل أعجبك المعلم؟!

- لقد فقدتي عقلك...

- أها نعم، حسنًا إذن هيا وإلا سيوسعنا معاذ وعائشة ضربًا، أم أنه ما يزال لديك ما تخبريه للمعلم.

استشاطت شامية غضبًا من حديث رهف، ونبرة صوتها الساخرة، وردت في غيظ:

- أقسم، سأقتلك لو لم توقفي تلك النبرة.

- حسنًا حسنًا... أرغب في حياتي.

- تحركي هيا، فأنا جائعة...

- الآن تذكرتي الطعام.

- نعم فعلت هيا...

بعد قليل التقيا بمعاذ وعائشة وتناولوا الطعام معهما، ومن ثم قصدوا منازلهم، ولكن شامية طلبت من عائشة أن تذهب معها إلى المنزل، وفي أول فرصة اختلت شامية بعائشة... قالت لها بشغف واضح:

- لقد وجدته...

- ما الذي وجدته؟

- صاحب الكتاب، لن تصدقي من هو... إنه أستاذ اللغة العربية بالجامعة... التقيناه اليوم؟

- ماذا؟! حقًّا... أم أنك عدتي للهذيان.

- أي هذيان، أنا لا أمزح، لقد رأيته وتحدثت إليه، لكنه لم يعرفني؟!

- رأيته، وتحدثت إليه أيضًا؟!

- نعم فعلت، عليك أن تساعديني، أريد معرفة كل شيء عنه.

- أريد أن أسألك سؤالًا؟

- ماذا؟

- لماذا تهتمين لشأن هذا الرجل إلى هذا الحد...

- ماذا؟! أهتم لشأنه، لا أنا لا أفعل...

- حقًّا! وما الذي ستفعلينه أكثر من هذا إن كنتِ تهتمين له، لماذا تهربين من الاعتراف بذلك؟

ردت شامية، وقد هدأت نظرة الشغف في عينيها...

- أنـتِ لا تفهمـين، أنـا لا أهتـم لأمـره... أنـا فقـط لـدي فضـول لأعـرف قصتـه... بـدا لي غريبًـا منـذ أن رأيتـه أول مـرة... أتذكريـن في بسـتان أتاتـورك، عندمـا كان يبـدو هائمًـا يبحـث عـن شيء مـا.

- أهذا فقط ما يجعلك تهتمين لأمره؟!...

اسـتلقت شـامية عـلى الفـراش، واحتضنـت إحـدى الوسـائد الصغـيرة، وقالـت:

- ما بالك اليوم عائشة، أنا فقط أريد معرفة قصته...

ردت عائشة وقد استلقت هي الأخرى:

- ولماذا تريدين معرفة قصته؟

- لا أعـرف... لا أشـعر أنـه غريـب عـني أشـعر أن فيـه شـيئًا يشـبهني، وكأنـني أعرفه جيـدًا...

- شامية، أفيقي... إنها أوهام مضرة.

هبت شامية من مكانها، وضربت صديقتها بالوسادة، وردت:

- جننت حتمًا!! ما بالك ظننت أنك ستفهمين.

ثـم نهضـت بعدهـا عائشـة، وقـد اطمأنـت أن الأمـر مجـرد فكـرة جديـدة مـن أفـكار صديقتهـا الطائشـة، وقالـت:

- حسنًا، كيف نصل لهذا الأستاذ؟!

التفتت إليها شامية، ثم أسرعت واحتضنتها بقوة، وقالت:

- عرفت أنك لن تخذليني...

ردت عائشـة وهـي تضمهـا، وعيناهـا تتحـدث بـكل ألـوان القلـق عـلى صديقتهـا الـتي تخـشى عليهـا مـن مغبـة مـا تقحـم نفسـها فيـه، ولا تسـتطيع أن ترفـض لهـا طلبًـا:

- ومتى فعلت أيتها الحمقاء؟

وفي اليـوم التـالي، ذهبـت شـامية برفقـة عائشـة إلى الجامعـة؛ كي تـرى الغريـب الـذي تتحـدث عنـه... فذهبتـا إلى مكتبـه، وانتظرتـا أمامـه طويـلًا، لكنـه لـم يـأت...

وملَّـت عائشـة مـن الانتظـار وظنَّـا أنـه لـن يـأتِ إلى الجامعـة، فغادرتـا المبـنى إلى الخـارج، ولـم تلحظ شـامية وجود الأسـتاذ جالسًـا عـلى إحـدى المقاعـد بمفـرده خـارج المبـني الـذي كانـت تنتظـره فيـه. ومضـت في الطريـق برفقـة عائشـة يتحدثـان فيمـا سـيفعلانه بشـأن الكتـاب وكيـف سـتعيده إليـه... واتفقتـا عـلى أن تـأتي شـامية لمكتبـه وتعطيـه المجلـد، وتشـكره عـلى إنقاذهـا مـن اللـص... وبعـد ذلـك ذهبـت إلى مكتبـه عـدة أيـام متتاليـة لكنـه لـم يحـضر إليـه، حـتى إنـه لـم يحـضر لصفهـم... وجعلهـا ذلـك تسـتاء كثـيرًا إلى أن حـدث مـا لـم تكـن تتوقعـه... كانـت تجلـس في غرفتهـا بعـد أن تحدثـت إلى أمهـا، وإذا بعائشـة تـأتي إليهـا، وتقـف أمامهـا، وتقـول:

- عـراقي، أرمـل، لـه ابنـة واحـدة، ويعيـش بمفـرده في إسـطنبول، السـيد عدنـان الأحمـد، أسـتاذ اللغـة العربيـة بجامعـة إسـطنبول...

فـور مـا سـمعت شـامية كلمـات عائشـة، قفـزت واقفـة عـلى قدميهـا، وقالـت:

- هل رأيته؟

- لا.

ردت شامية، بعد ما هدأ روعها:

- إذن فلـن تصيبـي وصفـه، إنـه رجـل ملامـحُ الغمـوض تغطـي فيـه كل شيء... كيـف عرفـتي تلـك المعلومـات؟!

- أخبرني موظف الملفات.

- ماذا، هل سألته؟!

جلست عندها عائشة على الأريكة، وردت بصوت ملامحه تحمل شيئًا من المكر:

- لا، هو أخبرني، تعلمين أن الطالبات الجدد لهم الحق في معرفة من سيعلمهم أثناء الفصل الدراسي...

ردت شامية بشغف:

- تبا لرأسك، ماذا عرفتي أيضًا؟

- ماذا!! وما الذي تريدين معرفته أكثر من ذلك، تلك الأجوبة تفسر كل شيء، أرمل لديه ابنة واحدة لا تعيش معه... هذا يفسر مظهره غير المهندم وملامح الحزن على وجهه.

- نعم، ربما سارة هي ابنته.

- لا يبدو من الصورة أنها كذلك، ربما كانت زوجته، وربما كان يحبها كثيرًا لحد أنه يحمل صورتها في كتبه.

- نعم... معكِ حق.

- والآن ماذا تنتوين؟

- لا شيء، فقط سأعيد إليه مجلده و....

...

- لقد تجاوزت كل حدودك.

بينما تتحدث شامية إلى عائشة، إذا بصوت والدها يدوي في أنحاء القصر صارخًا في غضب شديد، حتى إن جدران غرفتها لم تحجب شدة الصوت...

فهرعـت الفتاتـان خـارج الغرفـة لمعرفـة مـا يحـدث، كان السـيد عمـر، والسـيد خالـد يقفـان معًـا في بهـو القـصر، نـدًّا لنـد بالحديث... وهـذه المـرة لـم تكـن ملكـة القـصر موجـودة، لتحـول بـين ابنتهـا، وبـين حقيقـة الخلافـات بـين أبيهـا وعمهـا...

انتهى الشجار بكلمة قالها خالد لأخيه أمام الخدم والحراس:

- سآخذ ما هو حق لي، وسأنتقم لأجل كل شيء...

ومن ثم غادر المنزل في غضب...

بينمـا وقـف السـيد عمـر ينظـر إليـه وهـو يغـادر المـنزل، ثـم نظـر إلى ابنتـه الـتي كانـت تنظـر مـن أعـلى الـدرج في قلـق شـديد... وانـصرف إلى غرفـة المكتـب...

أمسـكت عائشـة يـد صديقتهـا، محاولـة إعادتهـا إلى غرفتهـا في هـدوء... لكـن شـامية أبـت العـودة، ونزلـت الـدرج صـوب مكتـب أبيهـا... في حـين بقـي الخـدم ينظـرون في قلـق مـن أن يقـع شـجار جديـد بـين الفتـاة وأبيهـا في لحظـة الغضـب تلـك...

- الآن، أريد أن أفهم كل شيء...

- شامية، اصعدي إلى غرفتك الآن.

- لن أفعل، قبل أن تخبرني كل شيء.

في تلـك اللحظـة كاد السـيد عمـر أن يصيـح بوجـه ابنتـه غضبًـا، لكـن عائشـة تدخلـت في الوقـت المناسـب وشـدت معصـم شـامية إليهـا، وقالـت:

- لا بأس سيد عمر، ستهدأ الآن.

ثـم صعـدت شـامية برفقـة عائشـة إلى الأعـلى، وهـي مستسـلمة تمامًـا للدمـوع في عينيهـا. وظلـت تبـكي إلى أن غرقـت في النـوم حـتى

إنها لم تتحدث إلى أمها في تلك الليلة، وبعد ما نامت، خرجت عائشة من غرفتها، فوجدت السيد عمر ينتظر أمام غرفتها متكئًا على إحدى قطع الأثاث في الممر، فسألها:

- كيف هي الآن؟

- إنها بخير الآن سيدي، سآتي لزيارتها في الصباح الباكر لأطمن عليها.

- اسمعي عائشة، أريد أن أخبرك أمرًا سأسافر فجر اليوم إلى سويسرا، أريدك أن تعتني بشامية جيدًا... إلى أن أعود، لا تجعليها تشعر بالوحدة في غيابي أنا وأمها.

- وكم ستبقى هناك سيدي.

- لا أدري لكن من المحتمل أن تطول مدة بقائي، سأحرص على أن أترك لها الحراسة الكافية لتكون بخير.

- حراسة!! انا لا أفهم سيدي، لماذا؟! تعلم جيدًا أن شامية تكرة هذا الأمر؟

- هذا فقط لكي أكون مطمئنًا عليها، لن يدوم الأمر طويلًا، عندما أعود سينتهي كل ذلك، أعلم أنها لن تقبل الأمر بسهولة؛ لذلك أطلب منكِ ان تهتمي بها هذه الأيام لحين عودتي، أنا أثق فيك وفي صداقتك لها؛ لذلك أثق أنها ستكون بخير...

- أعذرني سيدي، ولكن زاد حديثك من قلقي، هل هناك خطر على حياة شامية.

- لا، لا شيء من هذا القبيل، أنا فقط أريد الاطمئنان أنها ستكون بخير في كل خطواتها.

- حسنًا سيدي، أعدك أن أبقى بجانبها.

- أثـق في ذلـك... لقـد عينـت سـائقًا خاصًّـا لكمـا أنتمـا ورهـف ومعـاذ، أعلـم أنكـم تحبـون التحـرك بحريـة لكـن اعـذروني، أعدكـم ألا تطـول هـذه الفـترة، سـتجدينه بانتظـارك في الخـارج ليوصلـك إلى بيتـك، وسـيأتي في الصبـاح لمنزلـك ليصطحبـك إلى هنـا، أنـت ورفاقـك إن شـئت.

- حسـنًا سـيدي، إن كان هـذا سـيجعلك مطمئنًـا بشـأن شـامية، فسـنقبل بـه.

- أشكرك كثيرًا وأتمنى أن تنقلي امتناني لأصدقائك أيضًا.

ثـم أومـأ السـيد عمـر رأسـه إليهـا معـبرًا عـن امتنانـه، ومـضى في طريقـه.

بينمـا زاد القلـق والخـوف في قلـب عائشـة، وتمنـت ألا يطيـل السـيد عمـر بقـاءه خـارج البـلاد، وعندمـا خرجـت وجـدت السـائق في انتظارهـا ليأخذهـا إلى المـنزل، فاسـتقلت السـيارة إلى منزلهـا ولكـن مشـاعر القلـق لـم تفارقهـا، بـل ظلـت تفكـر فيمـا سـيحدث...

بينمـا كان السـيد عمـر قـد ذهـب إلى مكتبـه ليحـضر أوراقـه وسـندات ملكيتـه، لـكي ينهـي كل شيء مشـترك بينـه وبـين أخيـه، حـتى يضمـن بقـاء أسرتـه بخـير، كان عمـر يعلـم جيـدًا أنـه فعـل كل مـا بوسـعه ليصلـح مـن شـأن أخيـه، إنـه فعـل كل شيء ولـم يبـق شيء لفعلـه، لـم يبـق شيء سـوى عـزل ممتلكاتـه عـن ممتلـكات أخيـه، كان خالـد الأغـا إنسـان لـه فلسـفته الخاصـة في الحيـاة، لـم يـتزوج لأنـه يـرى أن النسـاء للمتعـة، يفعـل مـا يحلـو لـه فقـط؛ لأنـه يسـتطيع فعلـه، لا يـرى أن لأخيـه أي حـق في الممتلـكات الـتي يملكهـا...

وذلـك لأن أبـاه قـد أوصى قبـل موتـه بـأن تـؤول كل ثروتـه إلى ابنـه

المفضل، خالد، وعلى الرغم من خطأ القرار إلا أن عمر احترم وصية أبيه، وقدم لأخيه ممتلكات أبيه كاملة، ولكن ما يعجز خالد عن استيعابه هو أن ما لم يقدمه عمر له كان من ملك له وليس ملكًا لأبيه، ولا ينفك الأخ الأصغر يفتعل المشكلات لرغبته، في الاستيلاء على الثروة كاملة، التي يرى أنه ليس لأخيه أي حق فيها.

فقرر عمر عزل ممتلكاته عن أخيه، لينهي الخلاف بينهما، وخوفًا على عائلته... لذلك قرر السفر إلى سويسرا لبيع كل ممتلكاته المشتركة مع أخيه هناك، ويبدأ بداية أخرى بعيدة عنه.

في فجر تلك الليلة، قبل أن يستعد عمر ليستقل الطائرة إلى سويسرا قصد غرفة ابنته الوحيدة، واقترب من فراشها، وراح يمرر يده على شعرها الذهبي، فأحست به.

- أبي...

- نعم حبيبتي.

- ما الأمر؟

- أتيت لرؤيتكِ قبل أن أذهب.

قامت شامية وجلست على الفراش، وقالت في اهتمام:

- إلى أين، هل ستتركني أنت أيضًا.

- آسف حبيبتي، ولكن أصبح لا بد من تسوية الأمور، لم أعد أتحمل عمك أكثر من هذا، عليَّ أن أسافر لأنهي كل شيء مشترك بيننا، لقد سئمت من مشكلات العمل.

- يؤسفني هذا، ولكن افعل ما تراه صوابًا، هل ستتأخر؟

- لا عزيزتي أكيد لن أفعل... لكني أريدك أن تعديني بأمر ما.

- ما هو؟

- أريدك أن تسمحي للحرس بالبقاء برفقتك، وللسائق أن يقلك إلى حين عودتي، لقد أعطيتهم الأوامر أن يهتموا بكِ وبأصدقائك أيضًا...

- لماذا، هل هناك خطر عليَّ، أبي تعلم أنني لا أحب التقيد بالحرس.

- شامية، أرجوك أن تقبلي طلبي هذا، ليس لدي وقت لأشرح لك، لكن لا أريدك أن تقلقي، ليس هناك أي خطر على حياتك، أنا فقط لا أستطيع تركك بمفردك خاصة أن أمك ليست هنا هي الأخرى، ولكن لدي أخبار سارة، قريبًا ستنهي أمك رحلتها الطبية وتعود، وأنا أيضًا سأعود بعد أن أنهي كل الخلافات مع عمك، لنحيا معًا حياة هادئة خالية من المشكلات.

- حسنًا أبي، أنا أوافق على كلامك وأعدك أنني سأستمع إلى الحرس، ولكن عدني أن تعود سريعًا إليَّ.

- أعدك عزيزتي، أعدك أنني سأعود إليك.

ومن ثم طبع الأب قبلة على جبين ابنته، وودعها، ثم ذهب في طريقه.

وعندما خرج وجد كبير حرسه سامر ينتظر ليقله إلى المطار، فقال له:

- سامر، لا أريدك أن تعين أحد رجالك لابنتي، أريدك أن تحرسها بنفسك، كن معها خطوة بخطوة، أنا لا أثق إلا بك.

- لا تقلق سيدي، سأقوم بذلك بنفسي.

- وكيف حال رقية؟

- لا تقلق سيدي ستصلني رسالة الآن من الحرس أنهم وصلوا إليها، وسوف يبقون معها إلى أن تنهي رحلتها....

سمع عمر كلمات سامر وقد اطمأن على زوجته وابنته، وأكمل الطريق إلى السيارة يسارع الأقدام، فلحق به سامر وهو يسايره بنفس الحركة السريعه، ليسأله:

- اعذرني سيدي، أردت أن أسألك هذا السؤال منذ أن أعطيتني الأوامر الليلة الماضية، ولكن عليَّ أن أعرف إجابة هذا السؤال لدواعٍ أمنية...

توقف عمر عن السير ونظر إلى سامر، وقال:

- أتشك ولو بنسبة ضئيلة في قدرتك على حماية عائلتي؟

أجاب سامر بكل ثقة:

- لا سيدي.

عندها أكمل عمر طريقه، وأكمل الحديث وهو يسير:

- اسمع سامر، أخي خالد ليس سيئًا لهذا الحد، أعلم أن الشكوك تساورك بعد شجار الليلة الماضية ... لكن أخي لم يفقد عقله ليؤذي أحدًا من أفراد أسرتي، أنا فقط أريد الاطمئنان عليهم أثناء غيابي.

- حسنًا سيدي، اطمئن عليهم.

- أثق في أنهم سيكونون بخير.

ثم استقل عمر سيارته متجهًا نحو المطار في موكبه، وليستقل طائرته الخاصة.

في حين بقي سامر ورجاله في القصر لحراسة الأميرة التي لم تستطع أن تعود للنوم ولم تجد بدًّا من مراقبة والدها من خلف ستائر النافذة في غرفتها...

شيء ما في نفس شامية كان يخبرها أن الأمور لن تعود كما كانت عليه في سابق عهدها، وجعل قلبها المطمئن في مهجعه يهب فزعًا وكأنه لن يعود للسكون...

وفي الصباح الباكر، أتت عائشة برفقة السائق الذي قد ذهب ليحضرها لمرافقة صديقتها...

وبمجرد دخولها غرفة شامية، نظرت إليها شامية وكادت الدموع تتفجر من عينيها، لكن عائشة اقتربت منها، وضمتها إليها، وبدأت تهدئ من روعها... قالت لها إن كل شيء سيكون على ما يرام... على الرغم من أنها نفسها لا تؤمن بذلك...

في ذلك اليوم رفضت شامية الخروج من المنزل أو فعل أي شيء، فقط قررت البقاء بالمنزل، واستمر الحال لليوم الثاني والثالث وهي لا تريد الخروج، حتى إن إلحاح رهف ومعاذ عليها لم يغير في قرارها شيئًا.

... ولذلك قرر الرفاق المكوث معها بالمنزل وقضاء الوقت برفقتها، كانوا يسعدون عندما يتحدثون إلى أبيها أو أمها؛ لأنها كانت تشعر بالسعادة لذلك...

أما بالنسبة لكتاب المعلم، فقررت أن تذهب إلى مكتبه في الجامعة، وتضع عليه الكتاب ثم ترحل دون أن تعرفه من هي...

كانت تقضي معظم وقتها على المقعد في الحديقة في صمت، لا تتحدث إلى أحد، ولا حتى عائشة، حتى إن الخدم كانوا مستائين

مـن حالتهـا، ويشـعرون بـالأسى لأجلهـا؟ ويفتقـدون ضحكتهـا المدويـة في أرجـاء القـصر، ومرحهـا برفقـة أصدقائهـا أمامهـم، حـتى أفعالهـا المجنونـة الـتي كانـت تثـير غضبهـم، اشـتاقوا إليهـا...

حـتى غرفتهـا الـتي كانـت تفضلهـا غـير مرتبـة، وكانـت تـصرخ بوجـه الخادمـات عندمـا يرتبونهـا، إذا بهـا ترتبهـا بنفسـها، وتضـع كل شيء في مكانـه، تجمـع الألـوان الملقـاة في كل مـكان وتضعـه في الصناديـق المخصصـة لـه، وترتـب الفـراش بنفسـها، والملابـس الملقـاة عـلى الأريكـة وتضعهـا في مكانهـا، وأثنـاء انشـغالها بجمـع الكتـب مـن عـلى الأرض اسـتأذنت فـرح في الدخـول، أصغـر الخادمـات سـنًّا، والـتي تصغـر شـامية بعـام واحـد.

عندمـا وجـدت شـامية ترتـب غرفتهـا بنفسـتها، اندهشـت كثـيرًا لتصرفهـا هـذا، فهـي تتذكـر جيـدًا كيـف كانـت تبـدأ بالـصراخ إذا قامـت إحداهـن بترتيـب غرفتهـا... عندمـا لاحظـت شـامية فـرح وهـي تنظـر إليهـا، وتحمـل في يدهـا الطعـام لتقدمـه لهـا، قالـت:

- لا عليـك، لا داعـي للاندهـاش، سـأعتاد عـلى ترتيـب غرفـتي كل صبـاح كمـا كانـت أمـي تريـدني أن أفعـل.

مـن فورهـا ردت فـرح وهـي تضـع الطعـام جانبًـا، وتسـتعد لتجمـع الكتـب معهـا:

- أعذريني سيدتي سأفعل هذا بدلًا منك.

- لا بأس يمكنك المساعدة، ولكني سأرتبها معك.

وبينمـا تجمـع الفتاتـان الكتـب الملقـاة عـلى الأرض توقفـت شـامية قليـلًا ثـم نظـرت إلى فـرح، وقالـت:

- أنـتِ فتـاة صالحـة يـا فـرح تعملـين بجـد ولا تهمـلي دروسـك

أيضًـا، وأراك دائمًـا تبتسـمين.

ابتسمت فرح لها، وقالت:

- نعـم آنسـتي، عمـلي لا يعـني عجـزي عـن الفـرح، أحـب حيـاتي كثـيرًا، فأنـا أعمـل بجـد لأسـتحق مـا سـأصل إليـه في الحيـاة، وحـتي لـو كان بسـيطًا جـدًّا، سـأكون سـعيدة جـدًّا بـه لأنـني عملـت بجـد لأصـل إليـه...

- يا لجمال روحك، بل أنتِ السيدة بيننا...

ثم عادت شامية لتجمع الكتب، وقالت أثناء ذلك:

- ليتني أمتلك روحًا مثلها.

فتوقفت فرح عن جمع الكتب، وقالت:

- بـل إنـك تملكـين روحًـا أفضـل منهـا، إن كونـك فتـاة ثريـة لا يعـني بالـضرورة أنـك شـخصية بشـعة أو كسـولة، إن الفتيـات الأغنيـاء لا يقضـون الوقـت برفقـة أصدقائهـم يتجولـون في شـوارع إسـطنبول، إنهـن يرفضـن أن يتناولـن الأنـواع البسـيطة مـن الطعـام، إنهـن يرفضـن الخـروج بـدون سـياراتهم الفخمـة، لا يبتسـمن في وجـه الخادمـات لديهـم، وأخـيرًا إنهـن يفضلـن غرفهـن مرتبـة بيـد الخادمـات ... إن الفقـر والغـنى ليسَـا معيـارًا للصـلاح سـيدتي، بـل إن الإنسـان وأخلاقـه هـي المعايـير الـتي تقـرر... ودعيـني أخـبرك سرًّا... أفضـل غرفـتي غـير مرتبـة أنـا أيضًـا.

أعجبـت شـامية كثـيرًا بكلمـات فـرح، وقـد بـدا لهـا أنهـا شـهادة تبرئـة مـن الـكلام الـذي قالـه معـاذ لهـا في المطعـم تلـك الليلـة... وبـدأت الفتاتـان بالضحـك، بينمـا كانـت تقـف عائشـة عنـد بـاب الغرفـة، وسـمعت آخـر كلمـات فـرح، وسـعدت عندمـا رأت صديقتهـا

أخـيرًا تضحـك مجـددًا منـذ أن غـادر والدهـا...

- لا أصـدق مـا أرى، لا تخبريـني أنـك أخـيرًا سـترتبين مـرأب السـيارات هـذا...

التقطـت شـامية إحـدى الوسـائد الملقـاة عـلى الأرض، ثـم ألقتهـا باتجـاه عائشـة الـتي ردت لهـا الضربـة، وسـادت روح السـعادة عـلى الأجـواء...

بعـد مـا انتهـت الفتيـات أخـبرت شـامية عائشـة أنهـا قـررت الذهـاب إلى الجامعـة في اليـوم التـالي فقـط لتضـع المجلـد الـذي يخـص عدنـان عـلى مكتبـه وترحـل...

وفي اليـوم التـالي اسـتقلت السـيارة قاصـدة الجامعـة، ورافقهـا سـامر، الحـارس الدائـم منـذ سـفر أبيهـا... وبالفعـل ذهبـت إلى مكتـب عدنـان ولـم تجـده كالعـادة، ثـم وضعـت المجلـد عليـه، ثـم انصرفـت، وتركـت عليـه ورقـة صغـيرة مكتـوب فيهـا، «شـكرا».

وبينمـا ينتظرهـا سـامر في الخـارج إذا بهـا تغـادر المبـنى بسرعـة، لـم يكـن يتوقعهـا...

فسأل:

- آنستي، هل تنتهي الدروس باكرًا هكذا في العادة؟

- لا، لم أكن هنا لأجل الدروس سامر.

وهمـت بركـوب السـيارة، فلاحـظ سـامر في نـبرة صوتهـا الحـزن، وظـن أن السـبب هـو الحراسـة الـتي كانـت دائمًـا ترفضهـا، فأوقفهـا قائـلًا:

- أتمـنى أن تعذريـني آنسـتي إن كانـت مرافقـني وحراسـتي الدائمـة لـك هـي سـبب انزعاجـك، لكـن عـليَّ أن أكـون في خدمـة الرجـل

الـذي طالمـا وقـف بجانـبي....

- أفهـم إخلاصـك لوالـدي، وأقـدر لـك ذلـك، ولكـن صدقـني أنـت لسـت سـببًا في انزعاجـي، أفهـم جيـدًا أنـك تفعـل مـا طُلـب منـك، وأشـكرك عـلى اهتمامـك...

- حسنًا إلى أين تريدين الذهاب الآن؟

- سنعود للمنزل.

- كما تشاءين.

وركبَـا السـيارة وانطلقَـا عائديـن إلى المـنزل، وفي الطريق مرَّا ببسـتان أتاتـورك، راحـت شـامية تنظـر إليـه مـن داخـل السـيارة وتتذكـر اللحظـات السـعيدة الـتي قضتهـا فيـه مـع أسرتهـا، وأصدقائهـا، لكـن تلـك الذكريـات لـم تدفعهـا لتوقـف السـيارة وتـنزل إليـه، فقـط أكملـت الطريـق للمـنزل...

كان عدنـان حينهـا، قـد وصـل مكتبـه، ووجـد مجلـد الروايـة وعليـه ورقـة مكتـوب فيهـا «شـكرا»، لـم يفهـم أي شيء ولـم يفهـم كيـف وصـل المجلـد إلى مكتبـه، بهـذا الشـكل.... فجلـس عـلى المقعـد وراح يتفقـده باحثًـا عـن الصـورة الـتي وضعهـا بـين صفحاتـه، فوجدهـا في آخـر صفحـة مـن الكتـاب، في غـير المـكان الـذي كان قـد أوقـف عنـده القـراءة... راح ينظـر لصـورة زوجتـه، ونـسي كل شيء حـتى إنـه لـم يفكـر مـن أحـضر المجلـد أو لمـاذا يشـكره ... رجـل لـم يكـن مـوت مـن أحبهـا سـببًا كافيًـا لنسـيانها، ويقـضي أيـام عمـره في حـداد عليهـا...

حـتى إنـه لا يشـعر بالحيـاة مـن حولـه، ولا يؤثـر فيـه إيقاعُهـا السريـع والمؤلـم أحيانًـا... نظـر عدنـان إلى المجلـد وللورقـة المكتوبة

فيه، ولم يفهم شيئًا، ولكنه لم يهتم لتفسير ما حدث مؤمنًا بداخله أنه إذا كان شيء يستحق الاهتمام، فإن من فعل ذلك حتمًا سيأتيه مرة أخرى حاملًا تفسير ما فعله...

أيام قليلة ويشاء القدر أن يلتقي صاحب المجلد، مع صاحبة الشكر...

بالقرب من إحدى بحيرات أتاتورك كانت شامية تجلس على إحدى المقاعد المقابلة للبحيرة تتأمل في جمالها وهدوء المياه فيها ... بعد أن قررت مغادرة المنزل والتنزه في أتاتورك بمفردها، وبجانب المقعد يقف الحارس الأمين سامر، نظرت إليه شامية، وقد أزعجها أن يظل واقفًا على قدميه، فقالت:

- أنت لا تنوي الوقوف هكذا طول مدة بقائي...

- آنستي، بإمكاني أن أقف قدر ما أردتي البقاء.

- لكني لا أريدك واقفًا، تفضل بالجلوس.

- كما تشاءين.

ثم جلس سامر على نفس المقعد، وعاودت شامية النظر باتجاه البحيرة، وعاودت الصمت مرة أخرى...

وبعد قليل أتى رجل من بعيد يتحدث إلى أحد في هاتفه، وجلس على أحد المقاعد المقابلة لمقعد شامية ولكنه لم يكن قريبًا بما يكفي، ليلحظ وجود تلميذة صفه، التي كانت تحدق به فور وصوله...

جلس عدنان ينظر هو الآخر باتجاه البحيرة ويهيم في جمالها، ووضع هاتفه بجانبه... بينما كانت شامية تهيم في انشغاله بالبحيرة كأنه لا يرى العالم من حوله، ظلت تنظر إليه كيف

ينظـر للبحـيرة، ولا يحيـل نظـره لأي شيء حولـه غيرهـا، فقـط ينظـر إليهـا بحـزن عميـق، وكأنـه يـرى فيهـا مـا يشـبهه، بحـيرة رائعـة الجمـال، وتتفجـر شـواطئها بألـوان الزهـور المختلفـة، وعبيرهـا الفـواح، ولكنهـا راكـدة لا تحـرك سـاكنًا، لا حركـة فيهـا إلا تلـك الحركـة البسـيطة الـتي تفتعلهـا بهـا الريـح إذا هبـت بشـدة عـلى سـطح مائهـا، كذلـك يـرى عدنـان نفسـه، بحـيرة راكـدة لا تتحـرك إلا بفعـل الريـاح، وأمـا الفـرق بينـه وبـين بحـيرة أتاتـورك تلـك أنهـا مـا تـزال تحتفـظ بجمالهـا، وجمـال مـا حولهـا، بينمـا هـو قبـح مـا تعايـش فيـه، قـضى عـلى ملامـح الجمـال في داخلـه...

ويمـر الوقـت والمعلـم لا يحيـل ناظريـه عـن البحـيرة وشـامية لا تحيـل ناظريهـا عـن المعلـم... إلى أن قـررت في نفسـها أن تذهـب وتتحـدث إليـه... ولكنهـا حتمًـا لا تنـوي أن تقـدم لـه سـامر عـلى أنـه الحـارس الشـخصي، فقالـت:

- سامر، أترى ذلك الرجل في المعطف الأسود هناك.

- نعم، ذلك الذي يحدق بالبحيرة منذ لحظة وصوله.

- نعـم هـو، إنـه أسـتاذ صـف اللغـة العربيـة لـدي في الجامعـة، هـلا سـمحت لي أن أذهـب لألقـي التحيـة عليـه بمفـردي، لـن أبتعـد عـن ناظـرك عـلى كل حـال، فمقعـده قريـب جـدًّا.

- نعـم يـا آنسـة، لا مشـكلة طبعًـا، لكـن أرجـو ألا تطيـلي البقـاء هنـاك.

- لا تقلق سألقي التحية، وأعود من فوري...

- حسنًا آنستي.

ذهبـت شـامية لتتحـدث للمعلـم، وتخـبره أنهـا مـن وضـع المجلـد

عـلى مكتبـه، وتخـبره لمـاذا قدمـت لهـا الشـكر، لكـن خطواتهـا لـم تكـن سريعـة بمـا يكفـي، ربمـا مـن شـدة تفكيرهـا في مـا الـذي سـتقوله، وكيـف سـتخبره أنهـا الفتـاة الـتي وجـدت مجلـده، وأنهـا نفسـها الفتـاة الـتي أنقذهـا مـن اللـص، وهـل سـيتذكر أنهـا تلميـذة الصـف أم لا...

كل خطـوة تخطوهـا تحمـل تسـاؤلًا جديـدًا، مـن هـذا الرجـل، ومـاذا يحمـل خلفـه، ولمـاذا تخشـاه، وتشـعر بعالمـه يناديهـا...

وقبـل أن تقـترب بمسـافة تسـمح لهـا بـإيقافه عـن الرحيـل، كان عدنـان قـد نهـض مـن مكانـه مغـادرًا البحـيرة... بينمـا لـم تتوقـف خطـوات شـامية نحـو المقعـد فقـط توقـف لسـانها، الـذي لـم تسـتطع أن تسـتخدمه لتوقـف الرجـل، فقـد شـل لسـانها بسـؤال، مـاذا سـأقول؟

عـلى الرغـم مـن أنهـا تملـك مـا تقولـه، إلا أنهـا كانـت تشـعر بالفـزع مـن عالـم الحـزن الـذي يبـدو عـلى ظاهـره...

عندمـا اختفـى عدنـان مـن أمامهـا، بـين أشـجار أتاتـورك، كانـت قـد اقتربـت مـن مقعـده لتجـد أن التائـه في الحيـاة قـد تـرك هاتفـه عـلى المقعـد... مـن بعيـد كان سـامر يراقـب مـا يحـدث، وعندمـا ذهـب المعلـم اقـترب مـن شـامية لدوافـع حراسـتها فتحـرك باتجاههـا، وعندمـا وصـل رآهـا تلتقـط الهاتـف مـن عـلى المقعـد، فقـال:

- لماذا انصرف قبل أن يتحدث إليك ألا يعرفك...؟

ردت شـامية في أسى، وهـي تضـع هاتـف المعلـم في الحقيبـة عـلى أن تعطيـه لـه في الغـد:

- لا إنه لا يعرفني، إنه معلم جديد لا يعرف أحدًا...

وأكملت الحديث في نفسها...

«ويبدو أنه يعشق نسيان الأشياء على مقاعد أتاتورك، وأصبح قدري أن ألتقط ما ينساه...».

- اعذريني آنستي، ولكن يبدو الرجل غريب الأطوار بعض الشيء.

- لا بأس، هو لم يعرفني، فقط لأنه معلم جديد ولا يعرف الطلاب جيدًا... هلا ذهبنا للمنزل الآن.

- كما تشاءين آنستي.

ثم انصرفت شامية برفقة سامر إلى المنزل... بينما اختفى المعلم إلى عالمه كما يفعل في كل مرة...

وفي السيارة الفخمة، تجلس شامية تنظر إلى الخارج من النافذة، وتهيم في المعلم، وتتعجب من أحواله، وكيف أنه تائه طوال الوقت إلى حد أنه ينسى أشياءه في كل مرة، وتتعجب من الصدفة التي تجعل قدرها هي أن تجدها على مقاعد أتاتورك...

بعد أن عبرت السيارة الفخمة حديقة قصر عمر الأغا الذي تعيش فيه، توقفت أمام بوابته الفخمة... فنزل سامر منها ليفتح للأميرة الباب، ولكنه شعر بالريب وأن شيئًا ليس جيدًا أبدًا على وشك الحدوث، إذ رأى أمامه «كرم» رجل السيد خالد الأول يقف أمام الباب، ولم يفهم سبب وجوده، فالسيد خالد لم يأتِ للقصر منذ أن تشاجر مع أخيه عمر... وكذلك أيضًا شعرت شامية بالريب فقالت له:

- ما الذي يفعله كرم هنا؟

- لا بأس آنستي ربما أتى السيد خالد للاطمئنان على أحوال

القـصر...

- ظننت أنه في خلاف مع والدي.

نظـر سـامر إليهـا ورد بإجابـة هـو غـير واثـق منهـا، ولكنـه يـدرك أنـه يجـب أن يطمئنهـا:

- الخلافات تزول آنستي، لا داعي للقلق.

ثـم صعـدَا إلى القـصر، وبينمـا يمـران بالبـاب إذا بكـرم يرمـق سـامر بنظـرة لـم يشـعر بالاطمئنـان تجاههـا... لـم يكـن يعـرف أن مـا ينتظـره خلـف بوابـة القـصر مـن الداخـل هـو أسـوأ مـن أسـوأ مخاوفـه، هـو خيانـة وغـدر الأخ الممتزجـة بالجنـون...

بمجرد دخول شامية القصر إذا بعمها يصرخ:

- شامية ابنة أخي الحبيبة، أين كنت أبحث عنك منذ ساعات...

انتفـض قلـب شـامية إلى حـد أن لسـانها عجـز عـن النطـق، فـرد سـامر قائـلًا:

- ما الأمر سيدي؟ إنها بخير.

إذا بخالـد يتجـه نحوهـا ويشـد ذراعهـا إليـه فيبقيهـا خلفـه، ويوجه حديثه اللازع لــسامر.

- أبـدا لـن يسـامحك أخـي، لقـد آمنـك عـلى حيـاة زوجتـه وابنتـه، ولكنـك لـم تصـن الأمانـة، أرسـلت رجـال ضعفـاء لحراسـة زوجـة أخـي، كيـف اطمـأن لحيـاة ابنتـه معـك، ورجالـك لـم يسـتطيعوا حمايـة زوجتـه.

عندها انتفضت شامية من وراء عمها، وصرخت:

- أمي، ماذا بها...

- آسف عزيزتي، لقد وقع اعتداء كبير على المشفى الذي كانت فيه في العراق، ويقال إنه لم ينج أحد منه ولا حتى الأطفال المرضى...

نظرت شامية إلى سامر وقالت في لهفة والدموع تتفجر من عينيها:

- أمي خذني إليها، أريد السفر للعراق الآن...

فرد سامر في شدة يحاول إحكامها بالهدوء كي لا يفزعها:

- مستحيل آنستي، أعدك بأن تطمئني على السيدة رقية، لكن لا أستطيع أبدًا أن آخذك إلى العراق في تلك الظروف.

فلحقه خالد بالرد:

- أتجرؤ أن تعصي أوامر ابنة أخي.

فردت شامية، وهي تبكي بعد أن ذكرتها كلمة عمها بأنها الآمرة:

- آمرك أن تأخذني لأمي الآن...

- لا أستطيع، أرجوك آنستي أحكمي انفعالاتك، لا شيء يدعو للقلق لو أن السيدة رقية أصابها مكروه لكنت أول من عرف، ولأخبرني رجالي بذلك...

فرد خالد:

- أتجرؤ على تكذيبي، يالك من خادم خائن، دعني أخبرك أنه لن يأتيك أي خبر من رجالك، فلم ينج أحد من الحادث لا بد أنهم ماتوا.

نظرت شامية إلى سامر، وقد أشعل ذكر كلمة الموت قلبها المرتجف، فردت قائلة:

- أرجوك، خذني إليها الآن ربما هي بحاجتي.

- لا أستطيع أن أعرضك لهذا الخطر... لا أستطيع، أنا مكلف بحمايتك، وسأفعل أي شيء لذلك حتى لو عصيت أوامرك.

فقال خالد:

- دعك منه شامية، أنت محقة ربما أمك بحاجتك، اذهبي السيارة في الخارج ستنقلك للعراق.

بينما تنطلق ناحية الخارج، اعترض سامر طريقها، وأحكم مسكها بكلتا يديه، ورد سامر في موجة غضب، من أثر عدم اهتمام عمها لسلامتها، ولا يقدر أن يتهمه أنه لا يهتم لسلامة ابنة أخيه، رغم أن ذلك أصبح واضحًا جدًّا بالنسبة إليه:

- مستحيل، هي لن تذهب لأي مكان...

في موجة غضب واندفاع من شامية إذا بها تلتقط مسدس سامر، الذي يضعه في حزام على خصرة، وتندفع أمامه، وتصوبه إليه مباشرة، وتصرخ:

- خذني لأمي الآن...

فيرد سامر في هدوء، حتى يمتص غضبها، وانفعالها:

- لن أفعل، لن أسمح لكِ أن تؤذين نفسك... هذا لن يحدث إلا وأنا جثة هامدة...

في تلك اللحظة رمق خالد، كرم الذي يقف خلف سامر بنظرة هو يعرف مقتضاها...

فينقض كرم على سامر من الخلف بضربة قوية على رأسه بمسدسه، فأفقدة الوعي وبينما يسقط أرضًا... يقول بصوت يختفي من آخر لحظات وعيه...

- لا تذهبي...

ثـم سـقط عـلى الأرض فاقـدًا الوعـي، فخافـت شـامية مـن هـول مـا حـدث وسـقط المسـدس مـن يدهـا أرضًـا ثـم نظـرت لعمهـا، وهـي تـذرف بالدمـوع... فقـال لهـا:

- هيـا اذهـبي، لا تقلقـي بشـأنه سـيكون بخـير وسـيفهم أنـك فعلـت الصـواب عندمـا يفيـق، ولا تقلقـي عزيـزتي سـيكون كـرم في حراسـتك إلى أن يوصلـك إلى أمـك، وسـألحق بـك بحلـول الصبـاح، هيـا السـيارة تنتظـرك في الخـارج وسـتأخذكم عـبر الحـدود فهـي أكـثر أمانًـا الآن.

ألقـت شـامية نظـرة أخـيرة عـلى سـامر وهـو ملقـى عـلى الأرض ولكـن قلقهـا عـلى أمهـا، لـم يسـمح لهـا بالتفكـير، فغـادرت القـصر مسرعـة إلى السـيارة...

بينمـا أمـر خالـد أحـد رجـال كـرم أن يحمـل سـامر إلى السـيارة الأخـرى... ونظـر إلى كـرم، وقـال:

- سـتركب مـع الفتـاة في السـيارة وسـيلحق رجالـك بـك بالسـيارة الـتي فيهـا سـامر، عندمـا تقتلـه لا تنـس أن تضعـه في نفـس السـيارة معهـا، فهـو حـارس مغفـل نفـذ أوامـر سـيدته الـتي أودت بحياتهمـا في العـراق...

- حاضر سيدي.

بينما يدير خالد ظهره، قال:

- كـرم!! لا تغـادر أرض العـراق إلا وقـد أنجـزت مهمتـك، لن أسـمح بالخطـأ هـذه المـرة، أريـد أن أسـمع خـبر موتهـا، لا اختفائهـا كأمها...

- لا تقلـق سـيدي، كمـا أن رقيـة لا يمكـن أن تكـون نجـت مـن

الهجـوم.

- لكنك لن تر جثتها أيها الأحمق.

- حاضر سيدي.

بعـد انـصراف كـرم والسـيارات في الخـارج، وقـف خالـد ينظـر للقـصر الفخـم الـذي سـيبني فيـه قـلاع أحلامـه عـلى أنقـاض أرواح أسرة أخيـه، بعـد أن قـام بطـرد كل العاملـين فيـه، بحجـة أنـه خـارج عـن وعيـه مـن شـدة الحـزن عـلى مـوت ملكـة القـصر، ثـم دخـل مكتـب أخيـه وأسـقط لافتـة اسـمه أرضًـا، وجلـس عـلى مقعـده ليسـتحضر شـعور الجلـوس عـلى عـرش ممتلكاتـه.. عندهـا خـال الضبـع نفسـه في فـراء الأسـد...

ووضـع هاتفـه أمامـه وجلـس ينتظـر مهاتفـة مـن كـرم يخـبره أنـه أنجـز المهمـة...

في هـذه الأثنـاء كانـت شـامية في طريقهـا لمغـادرة الأراضي التركيـة والعبـور إلى العـراق، في قلـق شـديد، إلى حـد أنهـا لـم تفكـر في اسـتخدام هاتفهـا لتخـبر والدهـا عمـا يحـدث، والأب منشـغل في إنجـاز أعمالـه في سـويسرا، والأخ يحـاول منـع أخيـه مـن بيـع ممتلكاتـه بأقـصى سرعـة ممكنـة حـتى لا تخـرج مـن تحـت سـيطرته كوريـث شرعـي لأخيـه الـذي ينـوي قتلـه...

بينمـا كان عدنـان قـد وصـل مـنزل صديقـه محمـود لإمضـاء سـاعات الليـل الأولى برفقتـه، وعندمـا وصـل إلى المبـنى مـن الخـارج أراد أن يهاتـف صديقـه ليسـتأذنه في الصعـود إليـه، فوضـع يـده في جيبـه باحثًـا عـن هاتفـه، لكنـه لـم يجـده، فظـن أنـه نسـيه في مـكان مـا، وقـرر الصعـود لصديقـه... عندمـا وصـل بـاب الشـقة، دق

الجرس ثلاث مرات، ولكن دون رد، فظن أن محمود ليس بالمنزل وهمَّ بالرحيل، ولكن بينما يدير وجهه إذا بمحمود يفتح الباب، ويناديه:

- عدنان، مرحبًا بك إلى أين تذهب!!

- ظننت أنك لست بالمنزل.

- لا بأس، هيا تفضل يا صديقي.

وعندما دخلَا أخبره عدنان أنه حاول الاتصال به لكنه لم يجد هاتفه؛ لأنه ربما نسيه في مكان ما... وجلس الصديقان يتحدثان ويتسامران حول الأحداث والوقائع من حولهما كعادتهما...

وأخبر عدنان محمود بشأن ما حدث على مكتبه وأنه عاد من الصف ووجد مجلد الرواية موجودًا على مكتبه وعليه ورقة مكتوب فيها شكرًا... وأنه لا يملك تفسيرًا لما حدث، فإنه هو من عليه أن يشكر من أعاد له المجلد...

فقال محمود ربما من وجد الرواية أحد تلامذتك وشعر بالحرج من التحدث إليك، ولكنه لم يفهم كيف لأي من تلاميذه أن يعرف أنه هو صاحب المجلد، وفي النهاية لم يجد كلا الصديقين تفسيرًا لما حدث...

وبعدما انتهى المجلس والقليل من الحديث، نزلَا لتناول طعام العشاء معًا في أحد المطاعم.

في تلك اللحظات كانت صاحبة التفسير الوحيد قد غادرت الأراضي التركية بالتهريب عبر الحدود إلى العراق...

في حين انتهاء الصديقين من تناول الطعام، والحديث، كان الليل قد شارف على الانتهاء، فقرر محمود مرافقة صديقه

ليوصله إلى المنزل... وعندما وصلَا باب المنزل، طلب عدنان من محمود هاتفه ليتصل بهاتفه فيعثر عليه، ظنًّا منه أنه قد نسيه في المنزل...

فأعطاه محمود الهاتف وعندما حاول الاتصال بهاتفه لم يسمع الجرس في الشقة... ليس هذا وحسب بل إن أحدهم أجاب على الهاتف، بينما يضع عدنان الهاتف على أذنيه، إذا بصوت فتاة، تصرخ وتستغيث، «أبي.... أبي... ساعدني».

لكن صوت الاستغاثة لم يكن الصوت الوحيد، بل كان صوت طلقات الرصاص يكاد أن يغادر مسامع أذنه إلى أن يشق قلبه داخل صدره...

وفجأة سكت صوت الفتاة، ولم يبق سوى صوت الرصاص المدوي...

كل هذا وعدنان يضع الهاتف على أذنه ولا يبدي أي رد فعل، سوى شعور الصدمة الذي يشق صدره، ويستحضر أمامه مشهد مقتل زوجته، كاملًا، ليس هذا وحسب بل إن الفتاة كانت تنادي النجدة من أبيها، فظن أنها ابنته، ولكن كيف لابنته التي لا تنطق أن تناديه... في وسط زحمة المشاعر والأفكار التي عصفت بقلب الرجل في أقل من دقيقة، سقط أرضًا فاقدًا الوعي...

-... عدنان...

حمل محمود صديقه إلى الأريكة محاولًا أن يعيده إلى وعيه...

بينما كانت شامية في سيارتها بين حطام الأجساد والجثث، الجميع ماتوا، السائق وسامر في المقعد الأمامي من نفس السيارة برصاصتين في صدرهما...

بينما دخلت أرض العراق سيارتان، خرجت سيارة واحدة تقل كرم ورجاله بعد أن أنجزوا مهمتهم...

وفي القصر في إسطنبول تلقى خالد مهاتفة من كرم تخبره أن المهمة قد أنجزت وأن الفتاة قد ماتت...

فأغلق المهاتفة كرم، واتصل بأخيه في وقت الفجر...

- ما الأمر خالد، لماذا تكلمني في هذا الوقت لقد انتهى كل شيء، سأبيع كل نصيبي من الممتلكات المشتركة بيننا، وأبتعد عنك...

- إن كنت ترغب برؤية ابنتك حية مجددًا، عليك أن تحضر بمفردك في العاشرة صباحًا عند سفح الهضبة، التي طالما لعبنا عندها، لدينا حساب لنصفيه يا ابن أمي...

- ما الذي تقوله هل جننـ...

-...

أخبر كرم خالد أن الفتاة قد ماتت، لكن الحقيقة أنه أجهز على السائق وسامر، وباع الفتاة لمتمردي الحدود، وقبض الثمن، قال إن أبيها أحد أكبر رجال الاقتصاد في تركيا، وأنه قد يدفع كل ثروته لاسترداد ابنته الوحيدة، ونصح من أعطاه المال أن يتصل بأبيها بعد ثمان وأربعين ساعة حتى يكون قلقه عليها قد نال منه، والحقيقة حتى يكون رئيسه قد قضى عليه، فلا يجدون فائدة من الفتاة فيقتلوها ولا يعلم رئيسه بحقيقة ما حدث...

فإن كان المعلِّم خائنا فلابد للتلميذ أن يجرب العصى ذاتها...

بينما كانت شامية تستغيث بالشخص على الطرف الآخر من الهاتف الذي ظنت أنه أبيها من هول ما يحدث حولها... فتح

أحد المتمردين باب السيارة ووضع منديلًا به مادة مخدرة على أنفها حتى فقدت الوعي وسحبها خارج السيارة قبل أن يقوموا بتفجيرها بما فيها من جثث حتى لا تظهر هوية القتلى...

كان عدنان قد أفاق من غفلته، وحكى لمحمود حقيقة ما حدث، وعندما أخبره أن صوت الفتاة توقف قبل صوت الرصاص، استدلَّا على أنها ماتت...

ظل الصديقان في حيرة جمة مما حدث، فعدنان لا يذكر أين ترك هاتفه، ومحمود لا يملك أي تفسير لما يحدث لصديقه، أولا يجد مجلده المفقود على مكتبه، والآن ما حدث على الهاتف، وأخذ عدنان الهاتف من محمود وحاول الاتصال بهاتفه مرة أخرى ولكن دون رد...

وبعد قليل، أشرقت الشمس على الجميع، على الأب في طائرته الخاصة عائدًا إلى تركيا، ومنها إلى سيارته التي قادها وحده كما طلب منه أخوه متجهًا إلى المكان الذي دعاه إليه أخوه، فهو يعرف أن جنونه قد يقوده لأبعد الحدود...

وعلى العمر الخائن الذي ما يزال يجلس على مكتب أخيه أن ينتظر عودة رجاله...

وعلى عدنان ومحمود اللذين لا يفهمان ما يحدث حولها ويجلسان لا يعرفان ماذا يفعلان، هل يخبرا الشرطة بما حدث، ولكن ما الذي سيقولانه، وأي تفسير يقدمانه، وهم لن يصدقوا عدنان إن أخبرهم أنه لا يذكر أين نسي هاتفه، فقط يجلسان والحيرة تعصف بعقلهما...

وعلى عائشة التي ظلت تنتظر السيارة لتقلها لمنزل شامية

كما الأمر في كل صباح، ولكنها انتظرت طويلًا ولم يأت السائق، وهاتف صديقتها مغلق ولا إجابة، فزاد القلق في نفسها إلى أن قررت الذهاب إلى منزل صديقتها لتسأل عنها، ولكن عندما وصلت لم تجتز بوابة القصر حتى، فقد وجدتها مغلقة وعليها حارس تراه لأول مرة، وعندما أخبرته أنها تريد الدخول لشامية، قال إنه ليس هناك أي أحد في المنزل، ولا يعلم إلى أين ذهبوا، ولا يستطيع أن يسمح لأحد بالدخول؛ لأن هذا مخالف للأوامر التي تلقاها... فزاد قلق الفتاة واتصلت برفاقها لتخبرهم بالأمر وليساعدوها في البحث عن صديقتهم...

وبعدما وصل كرم إلى القصر، رحب به سيده ترحيب المنتصر، ثم أخبره أنه ذاهب لينفذ باقي الخطة... فاقترح عليه كرم أن يذهب هو ليجهز عليه، ولكن خالد رفض ذلك، قال إنه يريد تصفية حسابه، والحقيقة أنه لا يملك عند أخيه حسابًا سوى الحقد والكره في قلبه...

كان عمر قد وصل إلى التلة التي دعاها إليه أخوه، هضبة تشبه سفح المنحدرات اعتادا اللعب عليها في الطفولة، وظل جالسًا في سيارته ينتظر قدوم أخيه... وعندما أتى خالد عرف أن أخاه يجلس في سيارته، فظل واقفًا بسيارته يلقي نظرة أخيرة من الخلف على السيارة التي فيها أخوه وهو يراها للمرة الأخيرة... ثم انطلق بسيارته نحو سيارة أخيه من الخلف ودفعه للسقوط من أعلى التلة...ليلقى عمر حتفه هناك... ويموت معه كل أمل لشامية في النجاة... وتموت معه حياة المجد التي عاشها وبناها بيده وعصبه... وينتهي عصر الشريف عمر الأغا ليبدأ عصر الغدر والخيانة في دم أخيه...

عاد خالد إلى القصر بعد أن قضى على أخيه...

إلى القصر التي كانت تملأ مداخله أصوات الطير وتحولت إلى نحب الغربان... تلك الموسيقى الفخمة التي كانت تراوض الذهن عند دخول القصر، تحولت إلى سيمفونيات الصراخ والعذاب... حتى زهور الحديقة راح عطرها، وبهت لونها... حتى جدران القصر بدا عليها أن تميل للتشقق...

بينما يدخل سيد القصر الجديد ويخطو بقدمه فيه... كل خطوة ترتجف لها جدران القصر فزعًا...

وفي المساء بدأت وسائل الإعلام تعوي بأخبار المليونير المنتحر...

وخرج الأخ المفجوع على فقدان أسرة أخيه لأهل الصحف لينقل لهم وقائع ما حدث ليكتبوه في صحفهم...

«كانت السيدة رقية عمر الأغا في رحلة طبية في بلادها الأم العراق... وكان في حراستها ثلاثة من أكفأ رجالنا، ولكنها تعرضت لاعتداء جاثم صباح الأمس... مما أودى بحياتها، وعندما سمعت شامية عمر الأغا ابنة أخي الحبيبة بخبر ما حدث لأمها، لم تستطع البقاء في القصر، وأمرت حارسها الشخصي بأن يأخذها إلى أرض العراق، ونفذ الحارس الأوامر من فوره دون روية أو تفكير... وقبل أن يصل إليها رجالي كانت وصلتنا الأخبار أنه وقع الاعتداء على سيارتها من قِبل متمردي الحدود ... في تلك الأثناء كان أخي... السيد عمر الأغا قد استقل طائرته الخاصة عائدًا إلى تركيا لنحاول الوصول إلى شامية كما اتفقنا في آخر مهاتفة جرت بيننا... ولكن خبر موت ابنته كان أسرع إليه مني... لم يتحمل أخي خبر موت ابنته الوحيدة وزوجته في آن واحد، فألقى بنفسه

مـن فـوق التلـة وفـارق الحيـاة مـن فـوره...».

وبحلـول صبـاح اليـوم التـالي كانـت أخبـار العائلـة المنكوبـة حديث أهـل إسـطنبول أجمعـين... ولـم تـشرق بعدهـا شـمس الأيـام عـلى الرفـاق عائشـة ومعـاذ ورهـف...

بينمـا المعلـم عندمـا سـمع الأخبـار، ارتـاب كـم أن أحـداث القصة قريبـة مـن حياتـه والفـرق أنـه هـو وابنتـه لا يـزالان يتنفسـان فقط...

عندمـا، ظهـرت صـور العائلـة المنكوبـة عـلى التلفـاز، تذكـر عدنـان أن شـامية الأغـا هـي نفسـها الفتـاة الـتي أتـت تعـبر عـن سـعادتها بصفـه، وأنـه لـم يلحـظ وجودهـا في الصـف منـذ تلـك المـرة، ولكـن عقلـه لـم يتوقـف عنـد هـذا فقـط، بـل إن شـيئًا في نفسـه جعلـه يؤمـن أنهـا هـي مـن وضـع المجلـد عـلى مكتبـه، وأنهـا مـن كانـت تسـتغيث عـبر الهاتـف... فـراح يبحـث في سـجل الطـلاب عـن اسـم شـامية عمـر الأغـا... فتأكـد مـن صحـة مـا تذكـره، أنهـا فتـاة مقيـدة بصـف اللغـة العربيـة لديـه... عندهـا تأكـدت ظنونـه أن الهاتـف كان معهـا وهـي مـن كانـت تسـتغيث...

قصـد عدنـان مـن فـوره صـف الفتـاة حامـلًا مجلـد روايـة أغاثـا كريسـتي في يـده، واسـتأذن مـن المعلـم الـذي كان يلقـي لهـم، وبـدأ يسـأل الطـلاب سـؤالًا غريبًـا:

- هـل مـن بينكـم مـن وضـع هـذا المجلـد عـلى مكتـبي منـذ عـدة أيـام، ووضـع عليـه ورقـة

مكتوب عليها «شكرا»؟

ولكن أحدًا لم يجب...فسأل سؤالًا آخر:

- مـن بـين طـلاب هـذا الصـف أوقفتـني فتـاة منـذ عـدة أيـام

وعـبرت عـن سـعادتها بصفـي هـل هـي موجـودة... إن كانـت بينكـم أتمـنى أن تظهـر نفسـها إليَّ.

فقامـت مـن بـين الحضـور، رهـف الـتي كانـت شـاهدة عـلى المشـهد، وقالـت:

- لا يمكـن لهـا أن تـرد سـيدي، ولا يمكـن لهـا أن توجـد بيننـا، لقـد فارقـت هـذه الفتـاة الحيـاة.

- أخبريني هل اسمها شامية عمر الأغا.

فنظـرت إلى الأرض في حـزن، ثـم عـاودت الـرد بصـوت مذبـوح بالدمـوع:

- نعم سيدي.

ومـن ثـم غـادرت رهـف الصـف في أسى، وكأنهـا لـم تعـد ترغـب فيـه ... واعتـذر عدنـان مـن معلـم الصـف وخـرج هـو الآخـر...

شـعر عدنـان بـالأسى الشـديد إلى حـد أنـه تـرك الجامعـة هاربًـا مـن كل مـا حولـه إلى حديقـة أتاتـورك مـلازه الوحيـد، وقـضى الوقـت يفكـر في الفتـاة ومـا أصابهـا، ويفكـر كيـف وصـل هاتفـه إليهـا، وإن كانـت هـي مـن وضـع المجلد عـلى مكتبـه فلمـاذا؟ أرادت أن تشـكره... ولمـاذا عـبرت عـن امتنانهـا بصفـه، الرجـل الـذي كان لا يهتـم بـشيء في الحيـاة، إذا بالحيـاة تجـبره عـلى الاهتمـام، ولـو بالحـيرة...

وبحلـول المسـاء عـاد إلى منزلـه فوجـد محمـود يجلـس عـلى الـدرج أمـام الباب:

- ما الأمر، لماذا تجلس هكذا...

رد محمود بلهفة، كأنه لا يصدق أنه أخيرًا عثر على عدنان:

- أيـن كنـت؟ أبحـث عنـك منـذ الصبـاح، وذهبـت لمكتبـك في

الجامعــة ولــم أجــدك...

- ما الأمر محمود تكلم...

- هاتفك، لقد اتصل بي اليوم...

- ماذا؟!

نظر محمود حوله، وقال:

- هيا، افتح الباب...

ففتــح عدنــان البــاب ودخــلا، وعندهــا بــدأ محمــود يخــبره بمــا حــدث بأنفــاس متقطعــة:

- الفتاة ما تزال حية...

- ماذا؟ أي فتاة؟ أنا لا أفهمك، هدئ من روعك، وتحدث.

- حسنًا، لقد اتصل بي أحدهم من هاتفك اليوم وطلب فدية في حق فتاة تدعى شامية، قال إن كان يهمك شأنها عليك أن تأتي إلى حدود العراق وتدفع الفدية...

- ماذا؟! وكم هي الفدية التي طلبها...

- نصف مليار دولار أمريكي.

- ماذا؟!

- أردت أن أخبر الشرطة ولكنهم هددوا بقتل الفتاة إذا ما أخبرت الشرطة...

- وما الذي يجعلك تظن أن الفتاة حية لقد قتلت الفتاة التي تتحدث عنها فـ...

- لقد سمعت صوتها تحدثت إليَّ...

- ما الذي قالته؟

- سيد عدنان... ثم لم يسمحوا لها بأن تكمل الحديث... لقد نادتك أنت...

- كيف؟! كيف تناديني من هاتفي؟

- حتمًا كانت تعلم أن الحديث سيصل إليك...

بينما يتحدثان إذا بهاتف محمود يرن مرة أخرى، والمتصل عدنان ... فأخذ عدنان الهاتف من يد محمود بسرعة، ودون تفكير رد عليه...

- مرحبًا...

- هل أحضرت المال، إن لم تأت به في حلول خمس ساعات من الآن تعال إلى الحدود لتأخذ جثة الفتاة، وبإمكانك عندها أن تبلغ الشرطة...

- المال جاهز، أين آتي إليك..

- سألتقيك عند مدخل زاخو في مدينة دهوك على الحدود العراقية، بعد خمس ساعات...

- سأوافيك في الموعد.

ثم أغلق الرجل الهاتف، وصاح محمود:

- هل جننت، لقد فقدت عقلك حتمًا...

- لم يكن أمامي أي خيار آخر.

- من أين ستأتي بالمال...

- لا مال عندي سأذهب دون مال...

- لقد فقدت عقلك حتمًا...

- محمود ليس لدي وقت لأشرح لك، خمس ساعات أبدا لن

تكفيني للوصول إلى دهوك... أبق هاتفك مفتوحًا حتمًا سأحاول الاتصال بك...

ثم انصرف مسرعًا يجمع كل ما لديه من مال، والذي لم يكن ليتعدى بضعة دولارات ... والتقط معطفًا جلديًّا وضعه عليه... ونزل مسرعًا إلى الأسفل، إلى الجراج ليخرج سيارته التي لم تغادر مكانها منذ زمن، ويتبعه محمود محاولًا إيقافه، فهو يعلم جيدًا أن تصرفه هذا انتحار لا محال عنه، ولكن عدنان لا ينتبه لحديثه ولا ينتبه لشيء، لا يرى أمامه سوى صورة زوجته تلتقط آخر أنفاسها، وكأنه يشعر أن الفرصة تأتيه من جديد لإنقاذ حياتها، وكان قلبه هائجًا، وكأنه مستعد للسير في النار كي لا يفقدها هذه المرة... كان يخال نفسه ذاهبًا لإنقاذ زوجته لا الفتاة...

حاول محمود إيقافه كثيرًا ولكن دون جدوى، بل إنه دفع صديقه بقوة فأسقطه أرضًا بعيدًا عن السيارة، وانطلق بها مسرعًا متجهًا نحو الحدود التركية، ساعات من القيادة، وهو في غيبوبة لا يرى الواقع، لا يرى أنه ليس ذاهبًا لأجل زوجته بل ذاهب لينقذ فتاة لا يعرفها، ساعات من القيادة وهو لا يرى الطريق يرى صورة زوجته وهي تفارق الحياة، لا يشم الهواء بل يشم رائحة دمائها السائلة على ملابسه يوم فقدها...

لا يفكر بشيء سوى أنه مندفع بسرعة نحو زوجته...

وعندما وصل الحدود، كان يعلم أنه حتمًا سيلقى حتفه، وقد يؤدي أيضًا بحياة الفتاة... ورغم هذا لم يتراجع عن تصرفه الأحمق، وصل بالسيارة إلى الحدود في المكان الذي أخبره الرجل أنه سيكون فيه... لكنه لم يجد أحدًا فوقف ينظر حوله ويتلفت كالمجنون لا أحد في المكان سواه، وهو يبدو كالهائج التائه الذي

لا يعرف أين هو وماذا يفعل في هذا المكان في مقربة الفجر... إلى أن سقط على الأرض حانيًا ركبتيه من شدة التفكير... ومن الخلف انقض عليه أحدهم بسلاحه على رأسه، فأفقده الوعي...

ثم أفاقته صدمة قوية بالماء البارد، وإذا به ملقى على الأرض تحت قدم رجل غريب يبدو كالبدو، ويلف جسده كله بالقماش ويرتدي عمامة سوداء... ثم قال الرجل:

- أين المال؟

فأجاب عدنان، وهو يلتقط أنفاسه:

- لا مال عندي، أنا رجل فقير لا أملك المال الكافي الذي طلبته...

بعدها انهال الرجال عليه ضربًا مبرحًا حتى نزف أنفه... ثم قال الرجل:

- أوقفوا الضرب، لا تؤذوه، يريدونهما أحياء... خذوه إلى حيث وضعتم الفتاة، سنسلمهما ليلة الغد...

فقام رجل ضخم البنيان، بشد عدنان من كتفيه على الأرض، حتى ألقاه في إحدى الغرف، ومن شدة الضرب، لم يشعر عدنان بجسده، لم يشعر بشيء من حوله، سوى أقدام الضخم تغادر الغرفة، وينغلق الباب خلفه... وبعدها أغمض عينيه فاقدًا الوعي مرة أخرى...

وفي أحد أركان تلك الغرفة كانت تتكوم فتاة، لا تحتمي في شيء سوى ثوبها وترتجف من أشياء كثيرة لا تعرفها ولا تفهمها... والأصوات في المكان ليست سوى أصوات الكلاب التي لا تبدو مسالمة على الإطلاق... وأصوات طلق الرصاص المدوي...

لـم تتحـرك الفتـاة ولا خطـوة واحـدة باتجـاه الشـخص الـذي ألقـو بـه في الغرفـة، ولـم تحـاول مسـاعدته أو الاقـتراب منـه أو حـتى معرفـة مـن هـو... وبعـد سـاعات مـن إلقائـه عـلى الأرض والسـكون التـام، إذا بـه يتنهـد بألـم، ويسـتعيد بعضًـا مـن قـواه... لينهـض مـن مكانـه عـلى الأرض جالسًـا، وينظـر حولـه إذا بـه في غرفـة مظلمـة يتخللهـا شيء مـن ضـوء النهـار ... وفي أحـد الأركان امـرأة تلملـم في ثيابهـا فزعًـا وخوفًـا... فتحـدث بصوتـه الخشـن بعـد أن جـف حلقـه:

- مرحبًا...

-...

- شامية... هل أنتِ شامية؟... اهاااااا....

ثـم عـاد يسـقط عـلى الأرض يتلـوى مـن شـدة الألـم مـرة أخـرى... بينمـا التفتـت شـامية إليـه، لتتحقـق مـن هـو، ومـن ثـم خفـق قلبهـا بشـدة عندمـا اكتشـفت أنـه أسـتاذ الجامعـة... ومـن فورهـا انتفضـت مـن مكانهـا، وألقـت بنفسـها بالقـرب منـه كأول مـلاذ يظهـر لهـا منـذ أن وطـأت أقدامهـا أرض العـراق، وراحـت تجهـش بالبـكاء الحـارق وتدفـق أهاتهـا عـلى ضلوعـه الـتي تنبـض بالألـم... بينمـا تعجـب عدنـان مـن كل مـا يحـدث لـه، وكأنـه قـد أفـاق مـن غفلتـه، فقـال:

- من أنت، ومن أين ظهرتي لي...

بعـد قليـل مـن بقائهـا عـلى هـذا الحـال تمالـك الرجـل قـواه ونهـض، واسـتند إلى أحـد الجـدران... وبقيـت شـامية تنظـر بتجاهـه، لا تهتـم كيـف وصـل لهـا، ولا تهتـم لـشيء سـوى أنهـا لـن تقـضي المزيـد مـن الوقـت بمفردهـا في هـذا المـكان الموحـش، وكان عدنـان في هـذه اللحظـة يمثـل لهـا المـلاذ الوحيد والأخـير ... بينمـا كان عدنان

لا يفهم ما يحدث له... ولكنه حاول معرفة إن كانت ظنونه قد حقت، فسألها:

- أنتِ من وضع المجلد على مكتبي أليس كذلك؟

فأومأت برأسها، مصدقة على كلامه... وبعد قليل إذا بالباب يفتح فتفزع الفتاة، من مكانها وتقترب من عدنان ثانية... ودخل رجل غليظ الهيأة يحمل في يده صنية مليئة بالطعام... ووضعها أمامهما كانت تحمل اللحوم والطعام الفاخر... فنظر عدنان إلى محتوى الطعام، وتبسم ساخرًا، وقال:

- يقدمون خدمة راقية هنا...

ثم أمسك يدها لعدم الخوف وتناول الطعام... ونظر إلى يدها، فإذا بها مليئة بالجروح العارية من أثر الحبال، فبدأ يمد يده إلى كوب الماء القادم مع الطعام ويغسل جروها، ثم قام بتمزيق طرف قميصه وربط الجرح به... وخلع معطفه ووضعه على كتفها، ثم استدار يتناول الطعام في هدوء... وكأنه يجلس في مطعم فخم، لم يكن هدوءًا أو اطمئنانًا لبقائه معهم، بل هو يعلم جيدًا أن النهاية قد حانت على أرض العراق، هو فقط يستغرب، الأرض التي فر منها بعد أن أخذت زوجته يعود إليها بقدميه... في تعامل ساخر مع الواقع من حوله، مد يده بالطعام إلى الفتاة، ولكنها رفضت ذلك... فأدرك أنه لا جدوى من السخرية، فوضع الطعام، وبدأ يتحدث إليها، قبل أن تحين اللحظة الأخيرة، فهو يعلم جيدًا أنهم لن يبقوا عليهم طويلًا:

- كنت أتمنى العودة إلى موطني في كل لحظة، ولكني كنت أخشى ذكرى فقداني لزوجتي على أرضه، وها أنتِ تعيديني إليه منكبًا على وجهي، وأنا حتى لا أعرفك...

-...

- تفضلين الصمت لا بأس، ولكن سيكون عليكِ تناول بعضًا من هذا الطعام وإلا أخذك الموت كافرة بالانتحار... إن كنتي ستموتين فلا تخسري كل شيء...

ثم مد يده لها، فاتكأت عليها بيدها الواهنة من شدة الهزل، وعندها أحس أنها غير قادرة على فعل شيء فبدأ يطعمها بنفسه، إلى أن تناولت كفايتها... وعادت إلى الركن تتكوم فيه مجددًا، بينما عاد هو يسند ظهره إلى الحائط يفكر فيما قاله الرجل، ما الذي يقصده بسنسلمهما... ولماذا يغدق عليهما بالطعام الذي ظن أنه مسمم في بادئ الأمر، ولكنه اكتشف أنه ليس كذلك بعد أن أكل منه... وبعد قليل من الجلوس، فُتح الباب مرة أخرى ودخل رجلان، حاولَا الاقتراب من الفتاة أولًا فحاول عدنان اعتراضهما لكن أحدهما ضربه على ضلوعه بقوة، فأكد على كسر عظامها.... وقام بتغطية وجهه بغطاء أسود وسحبه للخارج، وكذلك فعل الآخر مع الفتاة التي كانت لا تنفك تصرخ... عرف عدنان حينها أنه حانت اللحظة...

ولكن بعد قليل إذا بهم يضعوهما في صندوق خلفي لسيارة نقل حمولات مغطاة، وسمع عدنان الرجل وهو يخبر أحد رجاله... عليك أن تتأكد من المال قبل أن تسلمهما البضائع ... عرف عدنان حينها أنه تم بيعهما أعضاء بشرية، فهذا هو السبب الوحيد الذي يفسر إبقائهما على قيد الحياة ... والطعام الفخم لهما، ومنذ أن أدرك ذلك ظل يحرك يديه جاهدًا لفك وثاقهما، وبعد محاولات كثيرة مع ضلوع مكسورة وألم يفتك به ... تمكن من فك وثاقه... ورفع الغطاء عن وجهه بسرعة،

فـإذا بالفتـاة ملقـاة بالقـرب منـه، ففـك وثاقهـا بسرعـة، ورفـع عـن وجههـا الغطـاء، ثـم قـام وكشـف غطـاء السـيارة عنهمـا برفـق حـتى لا يشـعر السـائق، فوجـد نفسـه في سـيارة تتحـرك بسرعـة عاليـة عـلى إحـدى الطـرق، وفي الأمـام رجـلان يبـدوان مسـلحين... ففكـر في طريقـة يتخلـص بهـا منهمـا... فأشـار إليهـا بالانبطـاح في أرض صنـوق السـيارة، وطلـب إليهـا أن تعيـد وضـع الغطـاء عـلى وجههـا وتضـع يدهـا خلـف ظهرهـا... وانبطـح هـو الأخـر ثـم جمـع غطـاء السـيارة في يـده، وجعـل ذراعـه يتـدلى بالغطـاء ناحيـة البـاب، لـكي يـراه الرجلان، ومـن ثـم تركـه يسـقط عـلى الطريـق، وبسرعـة عـاد للانبطـاح في السـيارة ... وعندمـا سـمع صـوت بـاب واحـد مـن السـيارة يُفتـح عـرف أنـه مـا يـزال واحـد بالداخـل والآخـر خـرج ليلتقـط الغطـاء، وبسرعـة قفـذ مـن السـيارة وانقـض عـلى الـذي خـرج وكان يحمـل سـلاحه في يـده، فطوقـه بيديـه وأمسـك سـلاحه وبمجـرد خـروج الآخـر لنهضتـه كان عدنـان قـد أمسـك سـلاح الرجـل الـذي اشـتبك معـه أولًا، ووضع إصبعـه عـلى زنـاد السـلاح، فأطلـق الرصـاص صـوب الرجـل الآخـر قبـل أن يتمكـن الآخـر مـن إطـلاق الرصـاص عليـه، بينمـا ضغـط الرجـل الأول عـلى ضلعـه المنكسـر، فـصرخ بقـوة مـن شـدة الألـم، ولكـن تمالـك قـواه وأفلـت منـه،... وعندمـا اسـتدار أمامـه أجهـز عليـه عدنـان، وأطلـق الرصـاص...، ثـم قـام بسرعـة بدفعهمـا بعيـدًا عـن الطريـق، وذهـب ليـنزل الفتـاة معـه إلى صنـدوق السـيارة الأمامي... وعندمـا كشـف الغطـاء عنهـا وجدهـا تبـكي بشـدة وهـي مغمضـة العـين... فقـال بصـوت عـال:

- شامية... لا وقت هيا انزلي معي...

فتحـت شـامية عينيهـا ولـم تصـدق أنـه مـا يـزال حيًّـا، فقـال

ساخرًا وهو ينزلها:

- إنها تدريبات الجيش العراقي... أبدًا لا تنسى...

ثم ضحك ضحكة خفيفة، في حال رجل علمته الحياة السخرية في أصعب المواقف من سوء ما مر به... وانزلها قائلًا:

- نجوت، لا داعي للخوف الآن...

ثم استقل السيارة وأسرع بها وهو لا يعلم أين وجهتهما... ولكن بعد قليل أدرك أنه يتجه صوب الموصل العراقية... ولكنه تجنب المرور بها خوفًا من أن يكونوا بانتظاره، فأخذ طريقًا آخر لا يعرف نهايتها... وبعد ساعات من القيادة على طريق صحراوية قادته إلى مكان لا يعرفه... وعندما ظهر له المعمار أوقف السيارة بعيدًا عن المعمار خشية أن يظن الناس أنه من المسلحين فسياراتهم مألوفة للجميع، ونزل من السيارة ممسكًا بيد الفتاة، وقد كانت ضلوعه قد تورمت، واشتد الألم الذي يحاول إخفاءه... إلى أن أقترب من مباني البلدة التي كانت تبدو من مبانيها بلدة صغيرة... ودخل إليها وهو يشد بيد الفتاة خلفه...وعندما اقترب من إحدى الدكاكين سقط أرضًا أمامه من شدة الألم، ولم تعرف شامية ماذا تفعل، أو ماذا تقول... فقط وقفت في مكانها ترتجف من الخوف بينما عدنان يتلوى أمامها من شدة الألم...

فخرج الرجل من دكانه مسرعًا إلى الملقى على الأرض واستدعى بعض الرجال، فحملوه إلى داخل المنزل، وخرجت إحدى النساء وأخذت بيد شامية وهي تشد عليها وتطمئنها «تعالي... لا تخافي... لا تخافي...».

وعندما دخلَا المنزل، كان الرجال يتحدثون من داخل الغرفة التي وضعوا فيها عدنان بينما تقف شامية في الخارج تسمع صوت آهاته وتبكي في حرقة، ومن حولها النساء يتحركون في كل مكان للمساعدة...

ومن داخل الغرفة يعلو الصوت... «جراح الرجل خطيرة لا بد من نقله للمشفى»، وصوت آخر: «نحن لا نعرف قصته ربما كان هاربًا، استدعوا عزام، أليس طبيبًا استدعوه... يا ولد اذهب لمنزل الطبيب عزام، قل له إن عليه أن يحضر في الحال إلينا... أسرع يا ولد».

وبعد قليل يأتي عزام الطبيب... ويدخل الغرفة ويخرج الجميع، ويذهب رجل ويجيء عليه... وينقل الأشياء المختلفة... بينما تقف شامية في الخارج تشاهد كل هذا في فزع...

وبعد قليل يخرج الطبيب ويقول:

- إنه رجل قوي، سينجوا حتمًا، لكنه بحاجة إلى الراحة التامة... لن يغادر الفراش إلا قبل شهر...

وخرج الطبيب، وبقيت شامية بمفردها في بيت لا تعرف من فيه، فاتجهت إلى أحد الأركان في المنزل وجلست فيه، وعادت تلملم ثيابها وتنطوي على نفسها مرة أخرى بعيدًا عن أعين الحضور... فاقتربت منها إحدى النساء، وحاولت التحدث معها كثيرًا، ولكن دون رد، فظنت السيده أنها لا تسمع ولا تتكلم، ونقلت ذلك إلى سيدة أخرى كانت تبدو بمظهر عجوز في بداية العقود الأخيرة تدعى «عهد»، فاقتربت منها، ونظرت إلى يدها، فوجددتها ملفوفة بقطعة من قميص الرجل، وظلت تنظر لها وليديها وهيأتها، فاستنتجت أنها تأتي من أصول طيبة وثرية،

فشـدت عـلى يديهـا، وضمتهـا لصدرهـا لتجعلهـا تشـعر بالأمـن... ومـن ثـم سـاعدتها عـلى النهـوض... وأدخلتهـا إحـدى غـرف المـنزل الصغـير والبسـيط...

وأعطتهـا ثيابًـا أخـرى غـير ثيابهـا الـتي قـد بليـت... وأشـارت لهـا إلى الحمـام لتغتسـل...

ثـم تركتهـا «عهـد»، وذهبـت إلى غرفـة عدنـان ثـم جلسـت بجـوار فراشـه... وقـد كان يتصبـب عرقًـا مـن شـدة الحمـى الـتي نزلـت بـه...

وبينمـا تبلـل قطـع القمـاش وتضعهـا عـلى جبينـه، محاولـة تخفيف الحـرارة... يدخـل زوجهـا رجـل يبـدو عليـه الوقـار مـن هيأتـه في عباءة صوفيـة... فقـال لها:

- ترى ما هي قصته؟

فتنهدت عهد، ثم ردت قائلة:

- إنـه غريـب ليـس مـن المنطقـة، يبـدو عليهمـا الـترف، وخاصـة الفتـاة الـتي معـه، تعلـم أحـوال منطقتنـا الآن لا يمكـن أن يكونَـا منهـا....

- فتاة!! أليست زوجته؟

- لا، وجـدت قطعـة مـن قميصـه عـلى يدهـا، كان تخفـي جرحًـا طفيفًـا، يبـدو كأثـر حبـال... لكنهـا لا يمكـن أن تكـون امـرأة متزوجـة... هيأتهـا توحـي بأنهـا آنسـة، ويبـدو أنهمـا تعرضَـا للاعتـداء، فهـي واقعـة تحـت تأثـير صدمـة قويـة، لذلـك لا تتكلـم...

- أخـشى أن يجلبـا خلفهمـا المشـكلات... يقـول الطبيـب إنـه لـن يتعـافى قبـل شـهر مـن الآن....

نظـرت المـرأة إلى عدنـان، ثـم مـدت يدهـا المليئـة بالتجاعيـد إلى

وجهـه وراحـت تمسـح عنـه قطـرات المـاء، ثـم قالـت:

- انظر إليه كم يشبه «قاسم» كثيرًا...

- آه، قاسـم نعـم منـذ أن رأيتـه للمـرة الأولى ظننـت أن ولـدي قـد عـاد إليَّ...

- ولـدي شـهيد ودمـه طاهـر، لـن يعـود إلينـا مـن الجنـان... بـل سـيأخذنا إليهـا... ربمـا قـاد اللـه هـذا الجريـح إلينـا لنأويـه... وننظـر لوجهـه فنتصـبر برؤيـة ولدنـا قاسـم...

يتنهد الرجل بقوة، ويقول:

- لا حـول ولا قـوة إلا باللـه، اللـه قـادر أن يحميـه ويحمينـا ممـن يتتبعونـه..

مـر أسـبوع كامـل وعدنـان وشـامية كل منهمـا في غرفـة مـن غـرف المـنزل الـذي يضـم زوج وزوجـة في العقـود الأخـيرة، وولديهمـا، وزوجـات ولديهمـا وأحفادهمـا...

كانـت شـامية لا تغـادر الغرفـة الـتي تمكـث فيهـا، ولا تتحـدث ولا تـأكل إلا بيـد عهـد العجـوز... وكانـت عهـد تعتـني بعدنـان أيضًـا في فراشـه، وتطعمـه وتمرضـه وتتوسـم في كل لحظـة تمضيهـا بقربـه ملامـح ابنهـا الراحـل قاسـم...

بينمـا كان الرجـل يمـضي وقتـه في دكانتـه أسـفل المـنزل... وبينمـا يجلـس في أحـد الأيـام فـإذا بأحـد أحفـاده يهـرول إليـه «لقـد أفـاق الرجـل ... إنـه يتحـدث ...»، فعلـم الشـيخ أن الغريـب قـد أفـاق، فصعـد إليـه... وعندمـا دخـل عـلى عدنـان... قـام عدنـان مـن مكانـه محـاولًا إسـناد ظهـره إلى الفـراش، فلحقـه الرجـل قائـلًا:

- لا بأس، لا عليك... لا تتحرك فأنت مصاب بشدة.

فاسترخى حينها عدنان، وقال:

- شكرًا لك... سيدي.

فنظر الرجل إلى زوجته، وقال لها:

- اتركينا بمفردنا قليلًا...

فخرجت عهد، وأخذت معها الأطفال الموجودين في كل أنحاء الغرفة... وأغلقت الباب، وبعدها نظر الرجل إلى عدنان، وقال:

- عدنان مرزوق طيب الأحمد... أستاذ اللغة العربية بجامعة إسطنبول...

-...

فزع عدنان من صوت الرجل ولم يصدر أي رد فعل، وشخط إليه بالنظر... ولم يصدر أي رد فعل آخر... فهو يخاف منه في كل الحالات يخاف أن يروي له قصته وكيف وصل أمام دكانته، فيرفض مساعدته، ويخاف أن يكون ضمن الجماعة التي أطعمته طعامًا جيدًا لتبيعه أعضاء بشرية...

فنظر الشيخ إلى عين عدنان، وقد فطن الحقيقة كاملة... فتابع الحديث بمكر الشيوخ وحكمتهم، قائلًا:

- عراقي الجنسية، ولكنه وقع في أيدي المعتدين... لقد أعلنوا اليوم في التلفاز عن العثور على جثته متفحمة هو وجثة رجل آخر مجهول الهوية، على إحدى الطرق المؤدية لقريتنا، أردت فقط أن أسألك هل لك علاقة به...

عندها اطمأن قلب عدنان، إلى أن الشيخ لن يعرف هويته، بعد أن أعلنت السلطات مقتله... ولن يعرف أنه فر من أيدي جماعة مسلحة لا بد أنها تبحث عنه... فنفى معرفته بنفسه...

- لا، لا أعرفه...

ثم اطمأن عدنان وهدأت النظرة في عينيه، مما جعل شكوك الرجل تتأكد، وعرف أنه هو عدنان الأحمد، فويلات الحرب علمته أنه من السهل قتل الهويات... ومن السهل إطلاق أي هوية على جثة متفحمة... ولكنه يفهم أيضًا شعور عدنان بالقلق وخوفه من أن يسلمه الشيخ إلى المعتدين مرة أخرى لكي يضمن سلامة أسرته... فرد الشيخ قائلًا:

- لا بأس أنت هنا آمن على حياتك، وحياة من معك، إلى أن تتعافى...

- أنا عاجز عن شكرك سيدي... لقد أنقذت حياتي، والآن تأمنها...

- يا ولدي... لن أطلب منك رد الجميل بجميل مثله، ولكن اعذرني واسمح لي أن أطلب منك، أن لا تسمح أن يرد جميلي فيك بالسوء...

عندها فهم عدنان مبتغى الرجل، فهو والشيخ يفهمان جيدًا أن من هرب من مسلحين، وقتل رجالهم حتمًا سيأتون للبحث عنه... فرد عدنان عليه قائلًا:

- أعدك بأن لا أسمح بذلك سيدي...

فرد الشيخ في ألم، قائلًا:

- على عيني يا ولدي ... ألا أومن لك المأوى أنت ومن معك، لكنهم وجدوا سيارة أولئك الغادرين بالقرب من قريتنا، وقد أتوا إلى هنا واستعادوا السيارة، وحتمًا سيعودون للبحث عنك... أنت عراقي مثلي وتفهم أمور الحروب... لكنك آمن إلى أن تستعيد عافيتك، أنا وولدي فداء لك إلى أن تستعيد عافيتك...

- أنت إذن تغدقني بكرمك سيدي...

ثم قام الشيخ من أمام ضيفه مكسور الخاطر، والعين... إنها الحرب التي حنت سيوف الفرسان، وأسكتت صليل جيادهم... إنها الحرب التي كسرت عين الجواد أمام ضيفه، وأمسكت لسان الضيف عن الحقيقة أمام من أجاد عليه ...

كان عدنان قد أدرك أنه موجود بإحدى القرى الصغيرة على أطراف بغداد بعد يومين من استعادة وعيه... وبمجرد أن تمالك نفسه واستطاع النهوض عن الفراش قبل المدة التي حددها الطبيب بفترة... طلب العون من الشيخ في شيء أخير، هو أن يوفر له الطريق إلى بابل مسقط رأسه... وقد أمنَّ له الشيخ السفر برفقة أحد التجار الذي كان سيمر ببابل في طريقه... وبعد أن قرر الرحيل خرج من الغرفة مستندًا إلى حامل خشبي يرفع جسده عليه من ناحية أضلعه المكسورة ليساعده على النهوض والمشي، واجتمع أفراد المنزل ليودعوا الغريب حتى الأطفال التفوا حوله ليودعوه... وأتت عهد إليه وطوقت وجهه بيديها، ثم سحبته إليها وطبعت قبلة أم مفجوعة على فقدان ابنها على جبين شبيهه...

ومن بين الحضور يرفع نظره فإذا بفتاة بشعر ذهبي يلمع فوق العباءة السوداء التي تلف جسدها، ويظهر وجه برَّاق من خلاله وعين مكسورة إلى الأرض تقترب في خجل ممزوج بالفزع...

فمدت عهد يدها إليها وأمسكت معصمها، ووضعتها في يد عدنان، ودعت لهما أن يصلا لوجهتهما سالمين...

وعندما نزلَا إلى أسفل المنزل كان الشيخ يقف برفقة التاجر يوصيه أن يهتم بهما في الرحلة، ويعطيه أجره...

ومن ثم ركبت شامية السيارة، ووقف الشيخ يودع الغريب... الذي كان يرغب أن يبقيه عنده للأبد فيرى وجه ابنه كل يوم... فضمه بين ذراعيه واحتضنه، وقال بينما يعانقه:

- يا عدنان يا ولدي، إذا تحسنت الأمور يومًا ورجعت للعراق غير مطارد، فمر بمنزل عمك الشيخ، فإنه يتوسم في رؤية وجهك السعادة...

عندها عرف عدنان أن الرجل قد فطن إلى حقيقته... ولم يملك للشكر كلمات على ما فعله معه... فقال:

- سأفعل أيها الشيخ الأمين، سأفعل...

ثم شد على معصمه، وركب السيارة متجهًا إلى مسقط رأسه ... ركب عدنان السيارة مغادرًا إلى القرية ومتجهًا صوب كنف عمه، وأبناء عمومته، فلا أحد من أقاربه حي سواهم، طوال الطريق لم ينطق بكلمة واحدة، وكذلك الفتاة بقربه، حتى إن التاجر شعر أنه مسافر بمفرده كالعادة ... كان عدنان يفكر فيما سيحدث، وما الذي سيخبره لعمه عن الفتاة التي معه ... وكيف يخبر الفتاة أن والدها لم يعد حيًّا لينقذها، وكيف يعود إلى تركيا ليعيدها لموطنها ... وكيف قادته الظروف لكل تلك الأحداث بين ليلة وضحاها...

بينما كانت شامية لا تفكر إلا في شيء واحد... كيف لم يأتِ أبيها لينقذها هي وأمها إلى الآن...

وبعدما انقضى الطريق ووصلا إلى مشارف بابل... انزلهما السائق من السيارة، وأشار لهما على مكان هاتف في إحدى الدكاكين كما طلب منه عدنان...

فـنزل، ومـد يـده في جيبـه وأخـرج بعضًـا مـن المـال منـه ... وأعطاها لصاحـب الـدكان، واتصـل بعـلي أحـد أبنـاء عمومتـه ليـأت إليـه ويقلّـه إلى المـنزل...

ولكـن ابـن عمـه لـم يصـدق أنـه عدنـان فهـو يظـن أنـه قـد مـات متفحمًـا عـلى أحـد الطـرق كمـا نقلـت وسـائل الأنبـاء... لكـن عدنـان ألَّـح عليـه في الحديـث ليقنعـه أنـه ابـن عمـه، وأنـه مـا يـزال حيًّـا... وبعـد مـرور مـا يقـارب السـاعتين كان ابـن العـم قـد وصـل في سـيارته، وانتفـض منهـا متجهًـا صـوب ابـن عمـه بمجـرد رؤيتـه، وفـرت الدمـوع مـن عينيـه، فهـو حـي بعـد أن فجعـت الأسرة كلهـا بموتـه ... مصـاب بسـوء لكنـه حـي...

وبعـد أن قبَّلـه واطمـأن عليـه مـد يـده ليسـنده إلى السـيارة، ولكنـه فوجـئ بـه يمـد يـده إلى معصـم امـرأة مـن خلفـه ويأخذهـا معـه نحـو السـيارة، وفتـح لهـا البـاب الخلفـي ثـم دخلـت وأغلـق البـاب لهـا...

وفتـح بـاب المقعـد الأمامـي، وجلـس بجـوار عـلي... وبعدمـا بـدأ السـير لـم يتوقـف عـلي عـن الإلحـاح في السـؤال مـا الـذي حـدث، وكيـف نقلـت وسـائل الإعـلام خـبر موتـه ... فاضطـر عدنـان أن يلفـق قصـة أخـرى كي لا يزيـد مـن قلـق العائلـة... فقـال:

- لقـد كنـت قادمًـا إلى العـراق عـبر الحـدود مـع تركيـا ... وكان معـي رجـلان فتعرضنـا لهجـوم في الطريـق مـا بـين دهـوك والموصـل، أصبـتُ إصابـة بالغـة ولكـني تمكنـت مـن النجـاة، بينمـا أجهـزوا عـلى الرجلـين الآخريـن، وقامـوا بحـرق جثتيهمـا...

- لقـد قالـوا في التلفـاز إن مصريًّـا يدعـى محمـود كان قـد بلـغ الشرطـة التركيـة عـن اختفائـك في العـراق ... وأن الشرطـة العراقيـة

وجـدت جثتـك متفحمـة عـلى طريـق الموصـل...

- محمود صديقي...

- ولكن كيف تمكنت من النجاة أنت وزوجتك؟

خرقت الكلمة أذن عدنان، ولم يتحملها فرد مسرعًا دون تفكير:

- زوجتي؟

فنظـر عـلي إلى عدنـان باندهـاش، وملامـح وجهـه تتطلـب تفسـير الحديـث... بينمـا فـزع عدنـان مـن سرعـة إجابتـه لـو أنـه صـدق عـلى كلام ابـن عمـه، وقـال إن الفتـاة زوجتـه لنجـي مـن براثـن عمـه سـلطان الـذي لـن يسـتطيع الكـذب عليـه...

وطالت لحظة الصمت، فقال علي:

- إذن مَن هذه؟

فرد عدنان ببديهية:

- إنهـا فتـاة تركيـة مـن أصـل عـراقي، إحـدى تلميـذاتي في الصـف، وقـد كانـت مسـافرة برفقـتي لأقلهـا لأهلهـا...

- الآن فهمـت ... اه يـا ابـن عمـي أهـم شيء هـو سـلامتك ... لـن يصـدق عمـك عينيـه... فهـو لـم يصـدق عندمـا أخبرتـه أنـك تحدثـت إليَّ عـبر الهاتـف.

وبعدهـا أكملَا الطريـق إلى أن وصلَا بـاب المـنزل، مـن عـلى البـاب تصطـف النسـاء في خمورهـن يملـؤون الأجـواء بالزغاريـد... ويندفـع العـم الملهـوف إلى ابـن أخيـه، صـوب عدنـان بقـوة وطوقـه بذراعيـه إلى حـد أنـه لـم ينتبـه إلى السـاند الخشـبي الـذي يتـكئ عليـه ابـن أخيـه، فضغـط عـلى جروحـه بقـوة، ولكـن عدنـان كتـم صـوت الألـم في نفسـه...

وأتى أبنـاء العمومـة وأولادهـم والـكل سـعيد بعـودة القريـب سـالمًا للديـار...

فتح عـلي بـاب السـيارة للفتـاة، وطلـب منهـا الـنزول والتفضـل إلى داخـل المـنزل، لكنهـا لـم تسـتجب لـه ... فظـن أنهـا تشـعر بالحـرج فنـادى كريمـة زوجتـه لتأخذهـا إلى داخـل المـنزل، فاقتربـت كريمـة بثغريهـا المتبسـمين لكـن الفتـاة لـم تنظـر لهـا حـتى ... وحاولـت أن تسـحبها مـن يدهـا فشـدت شـامية معصمهـا بقـوة وفـزع حـتى ظنـت كريمـة أن بهـا خطـب مـا...

ولاحـظ عدنـان أن الفتـاة لـم تغـادر السـيارة فذهـب بنفسـه إلى السـيارة، ومـد يـده لهـا وأخرجهـا منهـا... وإذا بالفتـاة تمسـك بيـده بقـوة وتطـوق ذراعـه بجسـدها وتخفـي نظرها مـن الجميـع إلى الأرض مـن شـدة الخـوف ... فيأخذهـا عدنـان بنفسـه إلى الداخـل أمـام الجميـع، فظـن الجميـع أنـه تـزوج وأن الزوجـة تشـعر بالخجـل...

وإذا بالأب ينادي علي... ويسأله على انفراد:

- هل تزوج ابن عمك...

- لا إنهـا إحـدى تلميذاتـه في الصـف في تركيـا، قـد كانـت في الطريـق لأهلهـا برفقـة عدنـان ولكنهـم تعرضـوا للاعتـداء، وهـي تشـعر بالفـزع مـن وقتهـا...

فعقـد الأب تجاعيـد وجهـه، وعلـم أن في الأمـر ريـب، فهـو يعـرف جيـدًا أن عدنـان ولـد أخيـه قـد أغلـق العالـم عـلى نفسـه منـذ وفـاة زوجتـه ...

بعدمـا أدخـل عدنـان شـامية إلى إحـدى الغـرف المقابلـة لبهـو المـنزل وخـرج، فـإذا بالنسـاء تزغـرد مـن حولـه ويهنؤنـه بالنجـاة،

والـزواج...

فيرفع رجل البيت صوته، ويسكت الجميع للاستماع:

- أعدوا الطعام هيا لا بد أنهما متعبان وجائعان...

فانصرفـت كل النسـاء، وأشـار الأب إلى عـلي بـأن يعـد أحـد الغـرف لـكي يسـتريح فيهـا ابـن أخيـه... ولـم يعلـق العـم ولا بكلمـة واحـدة عـلى الفتـاة... فقـط مـد يديـه إلى ابـن أخيـه وسـحب منهـا السـاند الخشـبي، وسـنده بجسـده إلى غرفـة ليسـتريح فيهـا... وعندمـا وصـلَا سـاعده ليسـتريح عـلى الفـراش، ومـن ثـم أمـره بـأن يكشـف جرحـه ليلقـي نظـرة عليـه... فأمـر أحـد أبنائـه أن يحـضروا لـه الضمـادات لـكي يعـد لـه غطـاء الجـرح بنفسـه، وأشـار إلى مـروان الابـن الأصغـر مـن عـلي:

- قـل للنسـاء أن يُدخِلـن الطعـام للضيفـة، وأن يحـضرن الطعـام لابـن أخـي...

عندهـا علـم عدنـان أن عـلي أخـبر أبيـه بمـا قالـه لـه في السـيارة ... وبـدأ العـم يغـير لابـن أخيـه الضماضـة في صمـت تـام، وعدنـان ينتظـر أن يسـأله عمـه عـن الفتـاة، ولكنـه لـم ينطـق بكلمـة واحـدة عنهـا ... ثـم اطمـأن سـلطان العـم إلى أن ابـن أخيـه قـد تنـاول الطعـام، وأن جرحـه بخـير، وتركـه ليرتـاح بعدهـا...

علـم عدنـان أن الأمـور لـن تمـر بخـير في العـراق، وأن عمـه لـن يقبـل القصـة الـتي حكاهـا لعـلي، وأنـه إن سـأله بشـأن الفتـاة فلـن يـدري مـاذا يقـول؛ لأنـه لا يملـك تفسـيرًا لعلاقتـه بهـا، فعـزم أمـره أنـه في الصبـاح الباكـر سـيهاتف صديقـه محمـود ليؤمـن لـه رحلـة لتركيـا، ويعيـد الفتـاة لعمهـا الـذي كان يتحـدث بـأسى عنهـا في

التلفـاز، وينتهـي كل شيء ...

بينمـا خـرج سـلطان مـن الغرفـة فوجـد زوجتـه، في انتظـار أن تخبره أن الفتـاة لا تتحـدث ولا تنظـر لأحـد، فربمـا تشـعر بالخـوف، وتسـتأذن منـه أن تـأتي بهـا إلى عدنـان فتشـعر بالأمـن، فقـال لهـا إن الفتـاة ليسـت زوجتـه بعـد، إنهـا خطيبتـه وقـد كانَـا في طريقهمـا إلى العـراق لعقـد القـران مـع العائلـة... فعدلـت الزوجـة عـن طلبهـا وقالـت إنهـا وضعـت لهـا الطعـام في الغرفـة، ربمـا شـعرت بالجـوع فتـأكل منـه... وانقضـت الليلـة الأولى بعـد أن أمـر سـلطان الجميـع بالذهـاب إلى الفـراش...

في الصبـاح الباكـر اسـتيقظ عدنـان، وقـرر الـنزول إلى الأسـفل ليطلـب مـن محمـود أن يؤمـن لـه السـفر لتركيـا... وعندمـا نـزل مـن عـلى الـدرج وجـد عمـه جالسًـا عـلى الأريكـة في بهـو المـنزل...

عندمـا رآه عمـه يـنزل الـدرج، أشـار إليـه بيـده، فذهـب عدنـان إليـه... وعندمـا اقـترب دعـاه عمـه للجلـوس بجانبـه والحديـث، فقـال سـلطان:

- هل نمت جيدًا؟

- نعم، الحمد لله...

- كيف هو جرحك الآن؟

- أنا الآن بخير... أشعر بتحسن.

- اممـم، إنـه جـرح خطـير، لا بـد أنـك مـررت بأيـام صعبـة، منـذ مـتى وأنـت مغـادر الأراضي التركيـة؟

- منذ أسبوعين تقريبًا...

- ولكـن أخـبرني، لمـاذا عـبرت للعـراق عـبر الحـدود، ألا تعلـم كـم

هـي خطـرة في هـذا الوقـت؟

- لم أجد بدًا إلا الذهاب للحدود...

شـعر عدنـان بالضيـق، وهـو يعلـم أنـه لـن يسـتطيع الكـذب عـلى عمـه... فحـكى لـه القصـة كاملـة... وحقيقـة الفتـاة الـتي معـه... وبعدمـا انتهـى مـن قـول كل شيء أخـبره أنـه ينـوي إعـادة الفتـاة لتركيـا إلى أهلهـا هنـاك... فـرد العـم قائـلًا:

- إذن فالفتاة بلا أب أو أم الآن، وهل تعلم بالأمر؟

- هـي تعـرف بشـأن مـوت أمهـا، فقـد قالـوا إنهـا أتـت للعـراق بعدمـا سـمعت بالاعتـداء الـذي وقـع عليهـا... لكـن لسـت متأكـدًا إن كانـت تعلـم بشـأن أبيهـا أيضًـا...

- ولماذا لا تتحدث؟!

- إنهـا فتـاة مترفـة الحـال عـلى مـا يبـدو، مـن الصعـب عليهـا معايشـة كل تلـك الظـروف، ورؤيـة كل تلـك الدمـاء...

- وأنت تنوي العودة بها إلى تركيا بأي هوية؟!

- لا أفهم السؤال، اعذرني؟

- كلاكمـا ميـت الآن في نظـر حكومـتي البلديـن العـراق وتركيـا، وكلاكما حتمًا لا يملـك هويـة تثبـت مـن هـو بعـد أن مررتمـا بتلـك الظـروف، فبـأي هويـة تنـوي العـودة لتركيـا...

- لا أعرف، علي أن أوصلها إلى زويها في تركيا، وأنهي الأمر...

- سينتهي الأمر هنا...

- اعذرني عمي لا أفهم...

- غـدًا سـتعقد قرانـك عـلى الفتـاة وستعيشـان معنـا، لسـت

مستعدًّا لفقدانك كما فقدت أبيك من قبل، والفتاة ليس لها من يأويها الآن، ولا يمكنها العودة لتركيا فهي حتمًا مترقبة، وفي خطر...

- عمي! ما الذي تقوله، كيف هذا؟!

- قضي الأمر، لن تغادر العراق إلا والفتاة زوجتك، وفي الغد عقد القران...

- عمي...

- الفتاة ليست في غرفتها... وجدت باب الغرفة مفتوحًا وهي ليست في الداخل بحثت عنها في البيت كله ولكن لا أثر لها...

صرخت كريمة زوجت علي، فصاح سلطان:

- كيف هذا أين علي، أحضري علي ومروان هيا...

ذهبت كريمة تنادي علي ومروان أبناء سلطان وأبناء عمومة عدنان... ونظر سلطان إلى عدنان وقال:

- إلى أين يمكن أن تكون ذهبت؟!!

فرد عدنان وهو يحاول النهوض من على الأريكة في ألم...

- لا أدري علي البحث عنها، فهي لا تتحدث، وقد تقود نفسها للمشكلات...

- لا تتحرك من مكانك سأخرج أنا وعلي ومروان للبحث عنها، ما يزال جرحك بالغًا...

بينما يتحدثان فإذا بعلي ومروان يهرولان صوب أبيهما، فقال الأب:

- أحضروا السيارة سنذهب للبحث عن الفتاة التي كانت برفقة

ابـن عمكـم بالأمـس.

انطلـق الأخـوان مسرعـين إلى السـيارات بينمـا أشـار العـم إلى ابـن أخيـه قائـلًا:

- لا تخـف سـنعيدها للمـنزل، لا بـد أنهـا لـم تبتعـد فهـي لا تعـرف شـيئًا في المدينـة...

- دعـني أرافقكـم في البحـث، فحـتى لـو وجدتموهـا لـن تسـتطيعوا التعامـل معهـا، فهـي واقعـة تحـت تأثـير صدمـات عديـدة، ولا تثـق في أحـد غـيري الآن...

- حسنًا سترافقنا في السيارة ولكن لن تتحرك منها...

- حسنًا أعدك لن أفعل...

مـن ثـم اسـتند عـلى عمـه إلى أن وصـل السـيارة فخـرج للبحـث عـن الفتـاة، فقـال سـلطان لعـلي الـذي كان يتـولى القيـادة:

- أسرع يـا ولـد لا بـد أنهـا ابتعـدت، فأنـا مسـتيقظ منـذ الصبـاح الباكـر، ولـم تمـر مـن أمامـي، لقـد خرجـت في الليـل حتمًـا...

وبـدأوا يبحثـون عـن الفتـاة الـتي غـادرت المـنزل لأنهـا تشـعر بضيـاع تـام، ويخيـل إليهـا مـن هـول مـا رأت أنهـا إن خرجـت تمـشي في الشـوارع سـتجد أمهـا تنتظرهـا في إحـدى الطـرق، أو أبيهـا قادمًـا بحرسـه ليعيدهـا للقـصر... وسـتجد صديقتهـا لتمازحهـا وتمسـح عـن عينيهـا مناظـر الدمـاء السـائلة...

بينمـا كان عدنـان يجلـس في السـيارة، ويـكاد القلـق يفتـك بعضضـه أكـثر ممـا يفتـك الألـم بضلوعـه المكسـورة...

سـاعات مـن البحـث والسـؤال عـن غريبـة تسـير في الطرقـات بشـعر أصفـر ذهـبي، ولكـن دون جـدوى، وانقـضى النهـار ولا أثـر

للفتـاة، كأنهـا تبخـرت في الهـواء...

وبحلـول الظـلام طلـب الأب مـن ابنيـه عـلي ومـروان أن يعيـداه للمـنزل هـو وعدنـان وأن يعـودَا للبحـث عـن الفتـاة مـرة أخـرى...

رفـض عدنـان الأمـر في البدايـة، وكان مصممًـا عـلى الـنزول مـن السيارة والبحـث عـن الفتـاة في الطرقـات، لكـن عمـه أحكـم لجامـه، وعـاد بـه إلى المـنزل بينمـا عـاد عـلي ومـروان للبحـث عـن الفتـاة مـرة أخـرى...

وقـضى عدنـان النهـار بـدون طعـام وكذلـك لـم يـأكل في الليـل مـن شـدة القلـق وهـو لا يعـرف أيـن الفتـاة، وإلى أيـن ذهبـت وهـي في هـذه الحـال...

وبينمـا هـو عـلى حالـه إذا بعـلي يدخـل مندفعًـا مـن الخـارج وينحـني عنـد أذني أبيـه ويهمـس فيهـا، فيـصرخ الأب:

- وأين عثروا عليها...

- لقـد أخبرنـا النـاس أنهـم أخذوهـا مـن سـوق البلـدة، وجدوهـا تائهـة وأخذوهـا معهـم...

وعندما سألنا عنهم قالوا إنهم يبيعون الفتيات سبايا، وخدمًا...

فانتفض عدنان من مكانه صارخًا...

- خـذني إليهـم... سأشـتريها بـكل مـا أملـك، سـأدفع مـن أجلهـا حيـاتي، فهـي بـلا قيمـة عـلى كل حـال...

فرد عليه عمه سلطان بحدة:

- اهدأ يا ولد وتمالك أعصابك...

ثم نظر إلى علي، وقال له:

- اذهب إليهم واعرض عليهم شراء الفتاة، قل لهم إننا سندفع لهم ما يريدونه من مال...

- حاضر يا أبي.

ثم انصرف على وجهته... بينما وقف عدنان لا يفهم شيئًا، فنظر إلى عمه وقال:

- ماذا الذي يحدث، أين الفتاة؟!

- لقد خرجت إلى السوق تائهة تحدق في وجوه الناس، إلى أن وجدوها جماعة تدير بيوت الدعارة، ويبيعون الفتيات، وقد أرسلت علي ليشتري الفتاة...

- لماذا لم تسمح لي بالذهاب معه؟

- لا داعي لأن تطأ أقدام الكثيرين منا تلك الأماكن يكفي علي، سيحسن التصرف لا تقلق...

جلس عدنان على الأريكة يحك يديه ببعضها من شدة القلق الذي أصابه، يحاول أن يجد تفسيرًا لما فعلته شامية، ولكن دون جدوى، ويتعجب كم أن رصيد تلك الفتاة من علامات الاستفهام يزيد يومًا بعد يوم...

وبعد ساعات من الانتظار المرير إذا بعلي يدخل البيت مرة أخرى فارغ الوفاض، فصرخ الأب:

- أين الفتاة؟ لماذا لم تأتِ بها معك؟

- أعتذر لم أستطع، لقد طلبت المرأة مني طلبًا غريبًا جدًّا... قالت إن كنت تريد أن تشتري الفتاة ادفع مهرها، واعقد قرانك بها...

فرد عدنان بتعجب:

- امرأة....

- نعـم يـا عدنـان، فمـن يديـر تلـك الـدار امـرأة تدعـى نـصرة البغـدادي...

فتدخل الأب قائلًا:

- في هـذه الحـال سـيقضي هـذه المهمـة عدنـان، وليـس أنـت يـا عـلي...

فرد عدنان في غضب:

- لن أتزوج بعد زوجتي...

فـرد العـم في هـدوء، إذن أنـت تنـوي أن تتركهـا لرجـل آخـر، ربمـا لـن يعيدهـا أبـدًا لبلادهـا... وربمـا يقـضي حاجتـه منهـا، ويجعلهـا عبـدة لـه...

فوقـف عدنـان يتعجـب مـن سرعـة وتـيرة الأحـداث ولا يفهـم مـا يحـدث... كيـف لتلـك الفتـاة أن تقتحـم حياتـه بهـذه الطريقـة، ومـا الـسر الـذي يجعلـه مهتمًّـا بهـا، ولمـاذا يظـن نفسـه متعـدا بحمايتهـا... فتمالـك، أعصابـه، وقـال...

- لكنه زواج إكراه، فأنا مرغم عليها، وهي مرغمة علي...

فرد العم سلطان:

- وحده الله يعلم ما في القلوب يا ولدي...

بينمـا همـس سـلطان في نفسـه: ربمـا لـم يكـن كلاكمـا مرغـم عـلى الآخـر... فـلا تفسـير لاهتمامـك بشـأنها، ولا تفسـير لاطمئنانهـا لـك دون غـيرك... سـوى أنـه لـن يكـون زواجًـا باطـلًا... ربمـا لـم تشـعر بوخـذة الحـب في قلبـك بعـد مـن كـثرة الصـدأ فيـه بعـد كل مـا مـر بـه مـن أسى...

ثم طلب سلطان من ابنه علي أن يعود لنصرة ويخبرها أنه في الصباح سيعود لدفع مهر الفتاة، وعقد قرانها...

وأمر الجميع بالذهاب للفراش، كانت ليلة طويلة ولم تنقض بسهولة على أي أحد، فشامية قلبها مغيب طول الوقت، وعقلها قد أصابه الشتات، لا تدرك أي شيء من حولها، ولا تخرج عن صمتها كأنها قد فارقت الحياة إلى الجحيم...

وأستاذ الجامعة لا يستطيع أن يغمض جفنه ما بين قلقه على شامية الفتاة التي استنجدت به، وابنته التي ستُصدم من خبر زواجه الباطل، وقلبه الذي فجأة أصابه النبض، وها هو ذا ثائرٌ بين ضلوعه ينزف الدماء...

حتى العم لم تغمض له جفن هو الآخر بحكمته كرجل عجوز يعلم جيدًا أن الفتاة لن يكون لظهورها في حياة ابن أخيه وقع خير، لكنه يرى أن القدر جمعهما، ولا يمكن أن يقفا ندًّا له...

في صباح اليوم التالي خرج الجميع من غرفته، والتف الأبناء حول الأب، فأمرهما بتزيين إحدى غرف المنزل للعروسين، على أنه عقد قران عادي، كما أخبر زوجته في السابق أن الفتاة خطيبة ابن أخيه، وأنه أتى لعقد قرانه بها حتى لا يثير فضول نساء المنزل ... ثم أخذ ابن أخيه وذهب إلى منزل نصرة البغدادية...

عندما دخلَا بهو المنزل لم يبدو كبيت دعارة عادي أبدًا، ففي البهو تلهو الفتيات الصغار، وتذهب النساء وتجيء، وكأنهن لا يحملن أي عار من وجودهم في مثل هذا المكان... ليس هذا وحسب بل قبل دخول المنزل لاحظ وجود حلقة درس بها الفتيان والفتيات الصغار، ويمسكن بأقلام وأوراق ويتوسطهم

معلـم بلحيـة... تعجـب أي علـم قـد يتلقـاه هـؤلاء في مثـل هـذا المـكان... وأي كوميديـا سـوداء يعيشـها هـؤلاء النـاس...

وعندمـا دخـلَا قادتهـم إحـدى الفتيـات الصغـيرات إلى مجلـس نـصرة البغـدادي، فـإذا بهـا امـرأة شـابة لا يظهـر عليهـا أي مـن ملامـح الغاويـات، ترتـدي ثوبًـا نسـائيًّا بسـيطًا جـدًّا لا يُظهـر شـيئًا مـن مفاتنهـا، وتبـدو في غايـة البسـاطة، ممـا أثـار الذهـول في نفـس عدنـان، وبـدى عليـه العجـب لمـا يـرى أمامـه... فبـدأت حديثهـا بـدون سـلام:

- لقد وكلتني العروس... من المشتري ومن الموكل...

فرد عدنان عليها:

- ما الذي قد يعود عليك من عقد هذا القران...

- إنـه القانـون هنـا يـا سـيد... نحـن لا نبيـع الفتيـات نحـن نبيـع الزوجـات...

- إنهـا فتـاة صغـيرة، أنـا أكبرهـا بخمسـة عـشرة عامًـا... دعينـا نأخذهـا، ولـكِ مـا أردت مـن مـال...

نظرت إليه المرأة في عينيه، ونادت بصوت مرتفع...

- فتاة شقراء، لا تتكلم... هل من مشترٍ آخر..

فثار غضب عدنان ورد قائلًا:

- هي ليست سلعة...

- لا تضيع وقتي، هل ستشتري أم أدخل مَن بعدك...

- إنـ...

عندهـا قطـع صـوت عدنـان يـد عمـه وهـو يشـد عـلى معصمـه...

وتدَّخل قائلًا:

- لقد جئنا لدفع المهر وعقد القران، هو العريس، وأنا موكله... دعينا ننهي الأمر ونأخذ الفتاة...

فرمقت سلطان بنظرة ساخرة، وكأنها تسخر من الموقف كله ... ثم نادت بصوت مرتفع:

- أحضروا الفتاة الشقراء...

وبعد قليل دخلت فتاتان تمسكان شامية من كل جانب ... ووضعوها تجلس أمام الجميع، دون أي استجابة لما يحدث حولها...

ومن ثم وضع سلطان المال الذي طلبته نصرة أمامها... فمدت إحدى الفتيات يدها وأخذت المال وانصرفت، ثم دخل رجل آخر بلحية ويحمل في يده صحفًا، هي صحف الزواج، وأتم عقد قران عدنان على الفتاة التي لا يعرف أي قدر ألقى بها في طريقه...

وبعد انتهاء المراسم، أشارت نصرة بيدها قائلة:

- خذوها واذهبوا..

كانت نصرة تدير منزلًا للكوميديا الساخرة، وليس الدعارة، فإن ويلات الحرب التي أطاحت بكل عائلتها، وشردتها من منزلها، وجعلت منها إحدى سبايا رجل غني بعد أن وجدها في الشارع بلا مأوى، جعلها تخترع منطقها الخاص في الحياة، الحقيقة أنها كانت تدير بيتًا للدعارة، وتبيع الفتيات لكنها مؤمنة أنها تحميهم من عالم الخارج، فكلما وقعت بين يديها فتاة، قيمتها طبقًا لسنها، إن كانت صغيرة تركتها تلهو وتترعرع، وتتعلم تحت

كنفهـا، وإن كانـت شـابة باعتهـا زوجـه لأحـد الأغنيـاء.

ولا تـرى فيمـا تفعلـه، إلا أنهـا تقـوم بعمـل بطـولي في بلـد الدمار... والغريـب والمثـير للسـخرية بالنسـبة إليهـا أن أولئـك الذيـن يهدمـون مسـاجد السـنة أو الشـيعة والأضرحـة أو الكنائـس، لـم يفكـروا في هـدم منزلهـا ...

قـام عدنـان مـن مكانـه، بعـد أن انتهـى عقـد القـران ومـد يـده لشـامية الـتي لـم تكـن منتبهـة لمـا حولهـا، فلـم تبـدي أي رد فعـل تجـاه مـد يـده لهـا... فأمسـك بمعصـم يدهـا، ودعاهـا للنهـوض... ومشـيت خلفـه، وهـو يشـدها مـن معصـم يدهـا... ويمـشي في الطريـق لا يعـرف إلى أيـن الخطـوة القادمـة، وأي مفاجـأت تخبئهـا الأيـام بعـد بشـأن الفتـاة...

وبمجـرد وصولـه مـنزل عمـه، إذا بزغاريـد النسـاء تنطلـق والطبـل والتصفيـق، وكان عدنـان حينهـا يـرى مراسـم الأفـراح في ظـروف العـزاء للمـرة الأولى... وخـرج مـروان ابـن عمـه، وهـو يحمـل سـلاحًا آليًّـا، وبـدأ يطلـق الرصـاص الحـي في الهـواء... فقـط صـوت الرصـاص جعـل الفتـاة تفيـق مـن غفلتهـا، فـإذا بهـا تفـزع مـن ثباتهـا، وتمسـك بعدنـان بشـدة، وتخفـي وجههـا في ظهـرة، وتـنزل دمعاتها المتسـارعة عـلى قميصـه.

حـتى بللتـه... فـيرى العـم منظـر الفـزع عـلى الفتـاة، فيشـير للجميـع:

- توقفـوا... توقفـوا، أوقـف طلـق النـار يـا ولـد... هيـا ليهـدأ الجميع ويعـودوا للداخل.

فعمـت لحظـة السـكون عـلى الجميـع ودخلـوا إلى المـنزل بينمـا

اقتربت زوجة العمر، وأمسكت بيد عدنان الذي بدا عليه هو الآخر أنه غير عابئ بأي شيء من حوله وكأن غيبوبة السكون كانت قد أصابته هو الآخر... فسحبت العمة معصمه إلى الداخل، وهي تهدهد بيديها على كتفه وتواسيه بعدما فهمت الأمر كله، ثم قادتهما إلى إحدى غرف المنزل، التي كان بابها مزخرفًا بالورود النضرة... ولكنها كانت تبدو كالأشواك المسممة لعدنان ...

وأدخلتهما بنفسها، ومن ثم خرجت من الغرفة... وعادت إلى زوجها، وهي تبكي..

وبمجرد أن أغلق باب الغرفة تركت شامية يد عدنان، واتجهت إلى الركن المواجه، وجلست فيه تلملم فزعها في ثيابها كما تفعل في كل مرة... ولكن هذه المرة وقف عدنان حائرًا لا يعرف كيف يواسيها، وماذا قد تظن به لو دعاها لأن تفارق الركن الذي تمكث فيه إلى الفراش لترتاح ... شعر هو الآخر أنه بحاجة أكثر منها ليلملم الفزع في قلبه، فإذا به يجلس على الأرض ويستند إلى الفراش في الجهة غير المقابلة للفتاة ويضم قدمه بيديه، ويحني رأسه في سكون تام....

وانقضت الليلة في سكون وصمت الألم، وموسيقى الفزع الوجداني، وكأن كل منهما يستسلم تمامًا لصراع حرب دامية داخل قلبه، لا الفتاة تفقه ما يحدث حولها، ولا عدنان يفقه ما تورط فيه، وكل منهما لا يرى لشروق الشمس بذرة نور، وكل منهما لا يرى للغد ملامح...

وفي الصباح أفاق عدنان من شدة الألم في ضلوعه الذي قد زاده النوم على الأرض الصلبة طوال الليل... فقام وهو يضع يده على مكان جرحه، ويتلوى في صمت من الألم...

لـم يكـن الألـم ألـم آثـار كـسر الضلـوع فقـط، بـل كان الألـم في كل شيء في التفكـير، والنظـر ودقـات القلـب، وحـتى شـم الهـواء في الغرفـة الـتي كانـت تشـبه زنزانـة التعذيـب لـه... فـلا يـدري أي عـذر قـد يبقيـه برفقـة فتـاة تصغـره بأكـثر مـن خمسـة عـشر عامًـا في غرفـة واحـدة، كان شـعوره بالخجـل مـن الموقـف الـذي وضـع فيـه، يفـوق شـعورة بالسـوء أنـه عقـد قرانـه بعـد مـوت زوجتـه، حـتى وإن كان يعـده غـير شرعـي، إلا أن مـن حولـه يصدقـون بـه، وأي عـذر قـد يخـبره لأهلهـا إن قـال إنـه تزوجهـا، وأي زواج هـذا وكلاهمـا مغيـب، وكلاهمـا كاره للزيجـة... كل تلـك الأفـكار جعلـت الألـم الجسـدي يهـون بكثـير أمـام ألـم استنشـاق هـواء هـذه الغرفـة، فـأسرع عدنـان يقـف عـلى قدميـه نحـو البـاب ويغـادر مسرعًـا، حـتى إنـه لـم ينتبـه للفتـاة الـتي تكومـت عـلى نفسـها، ونامـت في ركـن الغرفـة...

فخـرج مـن البـاب مسرعًـا، محـاولا العثـور عـلى أي هاتـف ليطلـب مـن صديقـه العـون، فوجـد عـلي يجلـس في بهـو المـنزل، وعندمـا رآه عـلي قادمًـا هـبَّ مـن مكانـه ليسـاعده عـلى الوقـوف، والسـير بعـد أن اشـتد بـه الألـم ... فطلـب منـه عدنـان أن يعطيـه هاتفـه ليتصـل بصديقـه... وأعطـاه عـلي الهاتـف، وحـاول عدنـان الاتصـال بصديقـه، ولكـن دون جـدوى فهـو لا يسـتطيع أن يجمـع أرقـام هاتفـه بشـكل صحيـح، ولا يسـتطيع تذكـر الرقـم كامـلًا...

بينمـا يقـف عدنـان في حـوش البيـت يحـاول تذكـر رقـم محمـود، إذا بعمـه يضـع يـده عـلى كتفـه... ويتنهـد قائـلًا:

- آه، يا ابن أخي لقد عانيت الأمرين...

فانتبـه عدنـان لحديـث عمـه، وأحـس في صوتـه ألـم الرجـال الـذي يفتـك بالقلـوب... وأكمـل العـم حديثـه قائـلًا:

- لا أريدك أن تظن أنني أردت إرغامك على الزواج من الفتاة، لقد أردت لك البقاء بقربي ... أنت آخر قطعة من أخي وأشم ريحة الطيب فيك ... وأنا شيخ كبير ولا أتحمل أن أفجع بموتك، أردت إبقائك بقربي، ولكن بعد ما حدث بالأمس وما رأيته من ألم في عينك، لم أعد واثقًا من أن ذلك الزواج سيحقق ذلك بالفعل ... كنت أظن إنه إذا زففتك لإحدى النساء سيزول همك ... ولكني رأيت ألمك قد زاد... ولا أدري ما أفعل لأعيد إليك ابتسامتك، أو على الأقل أنتزعك من دوامة الغياب عمَّا حولك، أشعر بالعجز كأني أريد أن أنقذك من براثن الألم ولا أستطيع...

يذكر عدنان تلك الكلمات، ونبرة الصوت تلك جيدًا... فلطالما كان عمه يحاول أن يجعله ينسى ما مر به من أسى ... ولكن عدنان الذي لم يعد حتى يفقه حتى كيف يطمئن أحد على حاله ... رد على عمه بإجابة لا تطمئن قلقه على الإطلاق بل تزيده:

- أريد السفر لتركيا لأسلم الفتاة لأهلها وأنهي هذا كله...

- لكنك الآن أهلها، ألست زوجها...

- إنه حتمًا زواج باطل... وإن لم يكن سأطلقها، وأنهي تلك المهزلة...

- لماذا تراها مهزلة، ليس للفتاة أحد سواك الآن لا تتركها...

- هناك في تركيا لها عم كان يبدو حزينًا جدًّا لفقدانها...

فصمت العم قليلًا، ثم أشار لعدنان بالجلوس بجواره على أريكة في حوش المنزل أمام نافورة مياه صغيرة تضخ ماء الصباح وتفوح رائحة الزهور من حولها ممتزجة مع قطرات الندى ... ثم قال:

- يا ولدي، إن كان للفتاة مشترٍ، فلما بيعت؟

- ماذا تقصد...

- هلا أخبرتني لماذا اتصلوا بك... لماذا لم يتصلوا بعمها ... أو بأي أحد آخر غيره من معارفها...

- اتصلوا برقم صديقي، لأن هاتفي كان معها... ولأنني اتصلت به من عند صديقي فاستغاثت بي وكانت تصرخ أبي، فظنوا أنني والدها...

- ومتى فعلوا؟

- بعد يومين من اختفائها تقريبًا...

- أتظن أنهم لم يحاولوا الاتصال بأحد غير آخر رقم حدثته... ألم يكن معها هاتفها، أليس على هاتفها رقم كل عائلتها بمن فيهم عمها الذي تتحدث عنه... اسمع يا ولدي أنا شيخ عجوز، وأردت أن أخبرك فقط أن الفتاة لم يعد لها أحد سواك، وإن كنت تهتم لأمرها... فاعلم أنه لا يمكنك أن تذهب بها لتركيا، فهي حتمًا ستكون في خطر هناك... ولكن دعني أخبرك يا ابن أخي أنني سأدعم قرارك مهما كان، إن كنت ترغب في البقاء فهو بيتك... وإن كنت ترغب في الرحيل، فلا ترهق نفسك بمحاولة تذكر رقم صديقك، سأؤمن لك ذلك...

- كيف عرفت أنني أحاول الاتصال بصديق لي، ليؤمن لي الذهاب لتركيا...

- أخبرني علي... لا داعي للقلق يا عدنان... أعتقد أنه عليك أن تولي اهتمامًا أكثر للفتاة الآن، لقد تحملت عبء حمايتها، وقد أصبحت دينًا عليك...

- نعم...

ومن ثم انصرف العم، وترك عدنان حائرًا في حديثه، ويعيد على نفسه نفس السؤال، ما الذي قد يدفعهم للاتصال برقم محمود، إن كان معهم هاتف الفتاة... لم يكن يعلم أن كرم قد أخذ هاتف الفتاة حتى لا يستطيع مخطتفي الحدود الاتصال بأحد، ولم يكن يعلم أن بحوزتها هاتف آخر...

وبينما يقف في مكانه على حاله، فإذا بزوجة عمه تأتي إليه، وتسأله بشأن الفتاة:

- كيف هي الآن؟

- لا أعرف لقد تركت الغرفة منذ الصباح الباكر...

- حسنًا، أعددت الطعام، وهي لا تأكل بسهولة فما رأيك أن تأخذه أنت إليها، فهي تطمئن لك فقط.

- حسنًا، سأفعل...

وفي الداخل أعطته زوجة عمه صينية مليئة بالطعام... فذهب بها لشامية، وعندما دخل الغرفة كانت قد أفاقت من ثباتها، ولكنها لم تغادر الأرض حيث كانت تجلس، فقط تكومت في مكانها تتطوق ساقيها بكلتا ذراعيها...

فاقترب عدنان من مكانها حيث كانت تجلس، ووضع الطعام على الأرض بجانبه، وبدأ يبحث عن أي كلمات تساعده في إخراجها من حالة الخوف والفزع... ولكن من أين له أن يأتي بكلمات وكيف لبنك الأحزان أن يصرف كلمات الفرح...

ولكن كان عليه قتل كل المشاعر المتضاربة فيه ليخفف قليلًا عن الفتاة التي بدأ يشعر أن حتى حمايتها من شعور الخوف

واجبـه ... فقـال:

- إذن شـامية... هـل قصـدتي بالفعـل حديثـك عندمـا أخبرتـني أنـك اسـتمتعتي بصفـي ذلـك اليـوم....

-...

- أشك في ذلك، فأنا لا أستمتع به فكيف تفعلون؟!

-...

لـم يصـدر عـن الفتـاة أي رد سـوى أصابـع يدهـا الـتي بـدأت تحركهـا حـول بعضهـا وهـي مشـبوكة حـول سـاقيها... فنظـر عدنـان إليهـا، وعلـم أنهـا قـد زاد قلقهـا، خاصـة أنهـا مـا تـزال تخفـي وجههـا في الجهـة المقابلـة لـه، تنظـر للحائـط ولا تنظـر إليـه... ففكـر في قـول شيء يجعلهـا تطمـئن:

- قريبًـا سـتعودين لتركيـا، لا داعـي للقلـق بشـأن ذلـك... قريبًـا سـينتهي كل هـذا الكابـوس، وهنـاك سـيهتم أهلـك بـك...

عندهـا التفتـت شـامية إلى مصـدر الصـوت ونظـرت لعدنـان في عينيـه... وكأنهـا تتوسـله أن يؤكـد حديثـه... فقـال:

- نعم، قريبًا جدًّا سنغادر أرض العراق... وستصلين لمنزلك...

واسـتدار يجـذب الطعـام إليـه ليقدمـه لهـا، وبينمـا يسـتدير حدث مـا لـم يكـن يتوقعـه، ولـم يظـن أنـه قـد يحـدث... إذا بـه يسـمع صوتهـا فقـد خرجـت عـن صمتهـا... تتحـدث بصـوت يـكاد يكـون غـير موجـود ومختـفٍ، وذلـك لطـول المـدة الـتي قضتهـا في الصمـت:

- لماذا... أتيت...

لـم يكـن الصـوت وحـده هـو مـن داهـم عدنـان، بـل إن السـؤال أيضًـا جعـل قلبـه ينتفـض في مكانـه... إلى حـد أنـه لـم يملـك الـرد

في لحظتها، ولم يملك لنفسه أن يعيد النظر إليها... فقط ظل ساكنًا ممسكًا بالطعام في يده... وبعد ثوانٍ معدودة حاول فيها إعادة هيكلة كل تفكيره ليرد على سؤالها، استدار إليها ورد قائلًا:

- لأنك استغثت بي...

-... لم أفعل، لم أقصدك... كان طلق النار قويًّا، وعندما أضاء هاتف في يدي ظننت أنه والدي، فكنت أناديه...

التفت عدنان إلى الفتاة... وبدى له أنها قد استعادت جزءًا كبيرًا من طاقتها، وتتذكر ما حدث، فرد قائلًا:

- كنت أنا على الطرف الآخر من الهاتف... لي ابنة أنا أيضًا، وخيل إليَّ للحظة أنها من تستغيث، ربما لهذا السبب لم أفكر كثيرًا عندما طلبوا فديتك، انطلقت بسيارتي نحو الحدود، وبالطبع تورطت أنا أيضًا لأني لم أملك المال الكافي...

- لماذا لم يأت أبي؟

عندها علم عدنان أن الفتاة لم تعلم بشأن ما حدث لأبيها... ولم يستطع قول كلمة واحدة، فبماذا يخبرها... في وسط تلك الظروف... فقال:

- أنا لا أعرف بشأن أبيك... لكنني واثق أنه عندما نصل لتركيا ستجدين تفسيرًا لكل أسئلتك...

- هل مات هو أيضًا؟

نظر عدنان للفتاة وإلى نظرة الثبات في عينيها التي تثير الفزع في قلبه، وكأنه هو من يحيا واقعها... وقال:

- ما الذي يدفعك لقول هذا... لا بد أنه بخير، ولا ينقصه سوى الاطمئنان عليك...

الآن تناولي بعض الطعام...

وقرب الطعام إليها، ونهض من على الأرض... وأكمل حديثه بينما يستدير للخروج:

-... ومن فضلك انهضي من على الأرض التي لا تفارقيها... وأرجوك، لا تغادري المنزل مرة أخرى بمفردك...

واستدار للخروج... ولكن أوقفه صوتها...

- أريد أن أتحدث إلى أبي ... أحفظ رقم هاتفه...

عندها صعق عدنان فأي حجة قد يملكها الآن... ولم يملك ردًّا عليها، ولكن كان عليه أن يجد الرد، فنظر حوله فإذا بمكتب خشبي صغير عليه مجموعة ورق وقلم... فأحضره إليها ومد لها الورق والقلم في إشارة منه لها أن تكتب رقم أبيها...

فنظرت إليه، وإلى نظرة القلق والخوف في عينيه، وفكت يديها عن ساقيها، ومدتهما وأخذت الورقة والقلم... وكتبت الرقم... ثم مدتهما إلى عدنان مرة أخرى.

فأخذ منها الورقة، وقال إنه سيحاول الاتصال بأبيها ليخبره بمكانها... ومن ثم انصرف من الغرفة مسرعًا...

وتركها خلفه هي والطعام الذي لم تتناول منه شيئًا، ظن أنه سيجعلها تطمئن لكنها داهمته بالفزع، فالآن ماذا عساه يقول وكيف عساه يخبرها الحقيقة؟!

وذهب إلى عمه يخبره ما حدث وأن الفتاة تريد الاتصال بأبيها... فأشار عليه أن يراوغها إن تحدثت في الموضوع مرة أخرى، ويخبرها أن رقم الهاتف غير صحيح... وأنها ربما من الصدمة لا تستطيع تذكره جيدًا... وأن يطمئنها بأنهما سيرحلان لتركيا في

القريـب العاجـل...

وبالفعـل هـذا مـا أخبرهـا إيـاه عندمـا عـاودت السـؤال عـن أبيهـا... وكلمـا طمأنهـا بالسـفر لبلادهـا كانـت تتحسـن حالهـا، فـإذا بهـا تفارق الأرض وتمـضي النهـار في الجلـوس عـلى الفـراش، وتنـام عليـه في الليـل، بينمـا ينـام عدنـان عـلى الأريكـة المقابلـة، كان عدنـان وكل مَـن في المـنزل حريصـين عـلى راحـة الفتـاة... وكانـت الأطفـال قـد اعتـادت الذهـاب لغرفتهـا، وإمضـاء الوقـت معهـا... ومـن بينهـم حنـين الابنـة الصغـرى لمـروان... كانـت تقـضي كثـيرًا مـن الوقـت برفقـة شـامية عـلى الرغـم مـن نـدرة حديثهـا إليهـا، إلا أن حنـين كانـت تحـب البقـاء معهـا... ومضـت الأيـام عـلى هـذا الحـال، نـادرًا مـا تتكلـم، وتـأكل في غرفتهـا، ولا تفارقهـا، وتمـضي معظـم الوقـت مـع حنـين الصغـيرة، ولا تتحـدث لأحـد، وفي الليـل يدخـل عدنـان فينـام عـلى الأريكـة، وفي الصبـاح الباكـر يغـادر الغرفـة قبـل أن تفيـق مـن نومهـا...

وبعـد مـرور خمسـة أيـام مـن وعـد عمـه لـه أنـه سـيؤمن له السـفر لتركيـا.. إذا بعـلي يـأتي إليـه، ويخـبره أن عمـه يريـده، فذهـب عدنـان إلى عمـه، الـذي عندمـا رآه دعـاه للجلـوس بقربـه... وقـال:

- لقـد وعدتـك يـا بـني أنـني سـأؤمن لـك السـفر لتركيـا، لكـن هنـاك مشـكلة كبـيرة الآن؛ إنـه لـم يعـد بإمكانـك ذلـك؛ لأنـك الآن ميـت في سـجلات الحكومـة العراقيـة، والتركيـة أيضًـا، وكذلـك الفتـاة..

- أنا لا أفهم كيف يظنون أنني ميت، وأنا حي أرزق...

- لقـد قلـت إنـك أطلقـت الرصـاص عـلى اثنـين مـن المختطفـين، وتركـت جثثهـم عـلى الطريـق... لا بـد أن جماعتهـم قـد أشـعلت النـيران فيهـم لإخفـاء هويتهـم، فهـم لا يحبـون الإعـلان عـن

خسائر في صفوفهم... وعندما أبلغ صديقك عن اختفائك عبر الحدود فكان من الضروري الرد على قضيته، وأي رد قد يكون أسهل من إنساب هويتك لإحدى الجثث المحروقة... فهم يعرفون جيدًا أنك لا يمكن أن تنجو من تلك المنطقة على كل حال...

- حسنًا، ماذا الآن؟!

- الآن قد التأمت جروح ضلوعك، وأصبحت جاهزًا للرحيل الذي تتوق إليه... بعد أسبوع من الآن ستسافر عبر البر إلى مدينة الوليد، على الحدود السورية العراقية، وفي الجانب الآخر ستجد سيارة تنتظرك على الحدود يقودها أحد أقارب الشيخ محمد السوري إنه من معارفي، وصديقي، وستمضي في بيته يومًا واحدًا، وبعدها سيأخذك إلى ميناء اللاذقية على السواحل السورية، ومن هناك ستذهب إلى إيطاليا، ومنها إلى إنجلترا، وفي تلك الأثناء سيؤمن لك أحد الرجال جوازات السفر إلى تركيا كسائح أوروبي برفقة زوجته، وإلى حين ذلك ستمكث في منزل «كاثرين» ... إنها الطريقة الوحيدة لدخول تركيا في أمان، ومن هناك يمكنك أن تقرر إن كنت تريد أن تخبر الشرطة التركية بكل ما حدث وتستعيد هويتك، أو تعود للعراق بنفس الطريقة وأن تذهب لإنجلترا وتأتي بابنتك لتعيش معنا في سلام، أو تبقى في تركيا، وابنتك في لندن وكلاكما مشتتين بعيدًا عني... لك الخيار يا ابن أخي...

قال العم كلماته وانصرف من أمام ابن أخيه... وتركه خلفه حائرًا في القرار كيف يعرِّض حياة الفتاة لكل تلك المخاطر، وكيف يذهب بها إلى ابنته، وكيف يقدمها، وكيف يتصرف، وأي

حـل بديـل قـد يملكـه...

ويبنـا هـو عـلى حالـه إذا بابنـة ابـن عمـه حنـين تـأتي إليـه... وتقـول إن شـامية قـد غـادرت الغرفـة إلى فنـاء المـنزل، فظـن أنهـا قـد تغـادر المـنزل مـرة أخـرى، فانتفـض مـن مكانـه مسرعًـا نحـو الفنـاء، فـإذا بحوريـة جميلـة تجلـس إلى نافـورة الميـاه ويتطايـر شـعرها الذهـبي عـلى وجههـا، ومـن شـدة بريقـه تحـت أشـعة الشـمس يحيـل بـين جمالهـا وبـين نظـرات العيـون...

وقـف عدنـان مـن مكانـه ينظـر للفتـاة وهـي لأول مـرة خـارج غرفتهـا، تجلـس إلى النافـورة وتلاعـب المـاء بيدهـا، في ثوبهـا العـراقي الواسـع الـذي يزيـد مـن جمالهـا الأضعـاف...

ولكـن كل ذلـك الجمـال يـزول بنظـرة واحـدة مـن عينيهـا الشـامية المليئـة بالحـزن، ولا تنفـك تطلـق سـهامها لـكل مـا تنظـر إليـه... نظـرة واحـدة مـن عينيهـا إليـه أعادتـه إلى أصـل مشـاعره... أعادتـه إلى الخـوف والفـزع بشـأن أمنهـا...

اقـترب عدنـان مـن النافـورة والحوريـة الجالسـة عـلى طرفهـا... وقـال:

- لقـد تحسـنت أمـورك كثـيرًا... بإمكانـك أن تجـوبي المـكان قـدر مـا شئت...

سـمعت الفتـاة كلماتـه بينمـا كانـت تنظـر إليـه بجبـين مقطـب وعـين تـكاد تكـون مفتوحـة بفعـل الشـمس الـتي تؤذيهمـا، ولـم تبـد اهتمامًـا، فقـط عـاودت النظـر إلى الميـاه مـرة أخـرى وعـاودت التلاعـب بهـا... وبعـد قليـل مـن الصمـت سـألته:

- متى نعود؟

فأخذ نفس عميقًا، وقال:

- الأسبوع المقبل...

عندها عاودت النظر إليه وبدت مهتمة بحديثه أكثر من ذي قبل، فأكمل عدنان حديثه:

- الأسبوع القادم، سنبدأ رحلة طويلة إلى تركيا...

- رحلة طويلة!!

- نعم... لن نسافر لتركيا مباشرة...

فنظرت إليه، ومن ثم عاودت النظر للماء... وتوقع عدنان أنها ستسأل عن الرحلة لكنها لم تفعل، كمن لا يعبأ للحياة، لقد كانت شامية مستسلمة للأحداث إلى حد أنها لا تعني بمعرفة تفاصيلها ...

وبعد السكون جلس عدنان إلى الأريكة المقابلة للنافورة أمامها ينظر إليها وهي تهيم في كل تفاصيل قطرات الماء، كما كان هو يهيم في كل تفاصيل بحيرة بستان أتاتورك...

ومن ثم خرجت من صمتها ثانية:

- لماذا تنسى مقتنياتك على مقاعد أتاتورك... لو لم تكن رجلًا كثير النسيان لما قادك القدر إلى هنا...

عرف عدنان حينها أنها هي من وجد مجلد الرواية وهي أيضًا من وجد الهاتف، بعد أن نسيهم على مقاعد أتاتورك... فرد قائلًا:

- كان قدري أن أصل لتلك النقطة، ولم يكن شيء ليحول دون ذلك.... وكان قدرك أن تعثري في كل مرة على مقتنياتي وما كان شيء ليحول دون ذلك...

-...

- لم أفهم سبب الشكر في الورقة التي تركتيها على المجلد...

فنظرت إليه، وابتسم ثغرُها ابتسامة طفيفة، لكنها كانت كفيلة لتشعل قلبه فرحًا... لم يفهم سببه، ربما لأنها الإشارة الأولى إلى أنه قد لبى نداء الاستغاثه كعربي مخلوق من طين الشهامة... إلى أن بينت الفتاة سر تلك الابتسامة الغريبة:

- على إنقاذك حياتي...

لم يفهم عدنان شيئًا مما قالته... فبدت على وجهه كل ملامح الاندهاش، هل شكرتني على إنقاذها مقدمًا... فتبسم هو الآخر وقال:

- اعذريني، لم أفهم...

-... لا تذكر، وليس لا تفهم...

-...

- كان قدري أيضًا أن أكون نفس الفتاة التي أنقذتها من اللص، في تلك الليلة خارج المطعم في إسطنبول... أردت شكرك، يوم أخبرتك أنني استمتعت بدرسك... لكنك لم تعرفني فعدلت عن ذلك...

- الآن، أذكر عندما تركت اللص من يدي كنت خلفي تمامًا، وأعطيتني حاملة مفاتيحي الخشبية...

- وعرفت أنك صاحب المجلد من الاسم المحفور عليها فقد كان نفسه هو الاسم المكتوب خلف الصورة في المجلد... سارة، من هي سارة تلك؟!...

مجرد سماع السؤال، كان كافيًا ليغير كل ملامح الرجل إلى الحزن

العميـق... ونظـرت شـامية إليـه... وكل ملامـح وجهـه تتغـير... ومـن ثم نهـض مـن مكانـه مغـادرًا المـكان، بينمـا بقيـت هـي تنظـر إليـه وهـو يغـادر مـن أمامهـا ويختفـي كمـا كان يفعـل دائمًـا في إسـطنبول... وعندمـا دخـل المـنزل واختفـى عـاودت النظـر في حـزن إلى الميـاه...

بينمـا عـاد عدنـان إلى الغرفـة، وجلـس عـلى الفـراش يعيـد طقوسـه الحياتيـة ورهبانيتـه في محيـط أحـزان رحيـل زوجتـه... واستسـلم للحـزن والتفكـير بـكل مـا مـر بـه منـذ أن تركتـه، وفتكـت بـه الآلام حـتى استسـلم للدمـوع، ولـم تكـن الدمـوع وحدهـا مـن داهمـه... إذ بشـامية تعـود للغرفـة فجـأة، دون علـم منهـا أنـه في الداخـل، لـتراه غارقًـا بـين عبراتـه، وكرجـل شرقي هـب عدنـان مـن مكانـه، وأدار وجهـه، ومـد يـده إلى وجهـه يزيـل العـبرات عنـه، واسـتدار فجـأة مغـادرًا الغرفـة بسرعـة فخبـط كتفهـا بشـدة بقـوة جسـده، ولـم يلتفـت خلفـه...

بينمـا شـعرت شـامية بالسـوء مـن كل مـا حـدث، وأحسـت بالذنـب أنهـا لـم تحسـن رد الجميـل للرجـل في كل مـرة توقعـه في المشـكلات، وآخرهـا أن أثـارت في قلبـه الأحـزان... ليـس هـذا وحسـب بـل إنهـا أيضًـا قامـت بتعريتـه مـن رداء قوتـه عندمـا كشـفت ضعفـه أمـام عينيهـا ورأت دموعـه...

بينمـا خـرج عدنـان مـن الغرفـة متجهًـا لخـارج المـنزل مندفعًـا تقـوده قدمـه لهلاكـه... خطـوات سريعـه نحـو قـبر الأحـلام، والأمنيـات نحـو مقـبرة حياتـه الـتي فـر منهـا طيلـة تلـك السـنين، نحـو أطـلال زوجتـه ورائحتهـا الـتي تفـوح في المـكان نحـو المـنزل الـذي شـهد عـصر حياتـه... نحـو منزلـه الـذي عـاش فيـه مـع زوجتـه الراحلـة...

لـم يكـن المـنزل ببعيـد عـن مـنزل عمـه... وعندمـا وصـل إلى بوابتـه الصغـيرة، فجـأة أصيبـت قدمـاه الـتي كانـت تغالبـان الوقت في السـير بالشـلل التـام... وقـف أمـام البـاب لا يعـرف للخـلاص طريقًـا، فـلا يقـدر أن يعـود مـن حيـث جـاء، ولا يقـدر أن يخطـو خطـوة واحـدة إلى الداخـل... ولا يقـدر أن يمنـع شـوقه لأطـلال حياتـه فيفتـح البـاب الـذي أصابـت متاريسـه الصـدأ ويخطـو خطـوة واحـدة للأمـام، خطـوة واحـدة.

فقـط... وقـف ينظـر للبـاب، ومـن ثـم نالـت مـن رأسـه الخيـالات، فـيرى زوجتـه، وهـي تقـف عنـد البـاب بتلـك الابتسـامة الرائعـه في كل مـرة يعـود إليهـا في البيـت... ومـن خلفهـا تركـض ابنتـه زهـرة وتخـرج مـن وراء رداء أمهـا عـبر البـاب مسرعـة إليـه، لتضمـه...

فيمـد يديـه وينحـني بركبتيـه عـلى الأرض ليحتضنهـا، وفجـأة يفيـق عـلى سراب... فـلا يكتفـي ويعـود أدراجـه، بـل يكمـل الطريـق نحـو الداخـل... ويمـد يـده ممسـكًا بمقبـض البـاب الـذي لـم يحتـج إلى بـذل مجهـود لفتحـه، فقـد أصابـه الصـدأ إلى أن فسـدت متاريسـه... إلى المـنزل المـتروك بـين الأتربـة، وأغطيـة الأسـاس، ولكنـه يـرى كل لحظـة قضاهـا مـع زوجتـه فيـه، كأنهـا تمـر أمـام عينيـه... ويسـمع صـوت ضحكتهـا المدويـة في الأرجـاء... ويشـم ريحهـا الطيـب، ويشـعر لمسـة يدهـا الدافئـة... إلى أن تهـاوى وسـقط عـلى الأرض مسـتندًا عـلى أطرافـه الأربعـة يديـه وركبتيـه... وتفتـك بـه الدمـوع وينهـار في البـكاء كطفـل صغـير فقـد كل أسرتـه في طوفـان... إلى أن استسـلم للانهيـار التـام وسـقط بـكل جسـده عـلى الأرض مسـتلقيًا عـلى ظهـره ... وراح ينظـر لسـقف المـنزل الـذي آواه وآوى سـعادته، ونبـض حياتـه...

بينما كانت شامية هي الأخرى في غرفة منزل عمه، تغالب العبرات الهاربة... من كل شيء... فلا تشعر بشيء من حولها، ولا تدري سوى أن الرجل الوحيد الذي أنقذها ردت إليه الجميل بأسوأ ما يكون... وشعرت بحزن في قلبها يكاد يفوق ذلك الحزن الذي شعرت به عندما علمت بموت أمها... فقط تتمنى لو أن الوقت يعود للوراء، فلا تنطق ذلك الاسم ولا تسأل ذلك السؤال...

وعندما بدأ الظلام يخيم على المكان كان عدنان قد استعاد قوته، ونهض من مكانه مسرعًا مغالبًا كل شيء... وخرج من البيت بسرعة، وسحب المقبس خلفه فأغلق الباب، وأغلق البوابة وهو يخطو آخر خطواته على أرض منزله...

وراح يبتعد بسرعة عن المنزل، وكأنه يفر منه ثانية... إلى أن وصل غرفته في منزل عمه، ودخل بسرعة وأغلق الباب من خلفه... فإذا بالفتاة هي الأخرى تجلس على الفراش بين عبراتها التي تغطي وجهها الأبيض...

ولكنها لم تهرب من النظر إليه... بل ظلت تنظر لوجهه المضطرب... وكأنها تستمحيه عذرًا لما فعلت... فجلس على الفراش بالقرب منها، ومد يده إلى وجهها يزيل عنه العبرات... وبينما يفعل إذا به يستسلم للعبرات مرة أخرى... كان يريد أن يواسيها، فهو يعرف أنها أصبحت مثله تمامًا وحيدة في الحياة، وكأنه يتوسم مواساة روحه في مسح دموعها... ولكن عندما انهار في البكاء هو الآخر نهض من على الفراش، واستقلى على الأريكة، وأخفى وجهه عنها...

واستلقت هي الأخرى على فراشها... وكل منهما غارقٌ بين

عبراتـه...

وانقضـت ليلـة أخـرى طويلـة مليئـة بالألـم، كتلـك الـتي يقضيهـا الاثنـان منـذ أن التقيـا...

وفي الصبـاح التـالي لتلـك الليلـة... اسـتفاقت الفتـاة مـن النـوم فلـم تجـده في الغرفـة كالعـادة، فقامـت تنظـر مـن النافـذة، فـإذا بـه يجلـس إلى نافـورة الميـاه في الأسـفل... فوقفـت تسـأل نفسـها: هـل أنـزل إليـه لأعتـذر إليـه أم لا؟... وحسـمت أمرهـا وخرجـت مـن بـاب الغرفـة لتـنزل لـه، فـإذا بزوجـة عـلي تقابلهـا خـارج الغرفـة، وتبسـمت لهـا كتعبـير عـن سـعادتها بمغـادرة الغرفـة بمفردهـا حـتى دون الطفلـة حنـين... ثـم ألقـت عليهـا تحيـة الصبـاح، فـردت شـامية بصـوت مـتردد ممـزوج بـكل ألـوان الخجـل:

- صباح الخير...

ثـم انطلقـت نحـو الأسـفل إلى نافـورة الميـاه، كانـت تندفـع بقـوة وكأنهـا تعلـم كل حـرف سـتنطق بـه جيـدًا... إلى أن وصلـت إلى الرجل، فانعقـد لسـانها فقـط ووقفـت تنظـر إليـه...

فقـام عدنـان مـن مكانـه، وأشـار لهـا بالجلـوس عـلى حافـة النافورة كمـا كانـت تفعـل بالأمـس، فقالت:

- شكرًا لك سأجلس على تلك الأريكة هناك...

وأشـارت بيدهـا إلى الأريكـة، ثـم ذهبـت لتجلـس عليهـا في المقابـل منـه... وعـاود عدنـان الجلـوس إلى النافـورة... وشـعر أنهـا أتـت إليـه بسـبب مـا حـدث بالأمـس... فحـاول الهـروب مـن الحديـث عمـا حـدث، قائـلًا:

- هـذه النافـورة صغـيرة جـدًّا، لا تشـبه تلـك الموجـودة في مدخـل

أتاتورك... لكنها تضم حولها الكثير من الورود الرائعة، وتجذب إليها الطيور المغردة... وفي الصباح الباكر يتطاير طيب عطور زهورها مع رزاز مائها... فيرطب الجو برائحة لطيفة جدًّا...

- إلى هذا الحد تحب الطبيعة...

- نعم... كثيرًا، أتمنى دائمًا لو كنت جزءًا منها، أتمنى لو كنت زهرة في بستان، أو طائرًا مغردًا، كل بقاع الأرض وطن له لا حدود توقفه، أو فراشة تحملها الريح إلى حيث تريد الذهاب... أو حتى قطرة ماء ساكنة في وسط بحيرة هادئة كتلك الموجودة في بحيرات أتاتورك، فلا الزهور تبكي قلة عطر أقرانها، ولا الطيور تُطرد من أوطانها، ولا قطرات المياه يرفضها بئرها... وحده الإنسان يفنى إن فني رفيقه، ويرفضه وطنه إن أصابه الفقر أو العلة ...

- لا، طالما عشت حياتي طائرًا حرًّا، كنت أجوب البلاد التي أرغب بزيارتها... وأذهب إلى أفضل البقاع، لكن ما من أماكن أذكر روعتها كتلك الأماكن التي كنت أجوبها برفقة أصدقائي في إسطنبول... دونهم لم يكن لأي شيء معنى... كانوا هم روح اللحظات التي أعيشها...

- الآن... انظري إليك دونهم، وردة ذابلة؛ لأنك تنتظرين منهم العطر...

- ربما أنا كذلك، لكني واثقة أنهم أيضًا ليسوا بخير تام دوني...

- نعم، وتذكرهم الأماكن والروائح بك، وإن ذكر اسمك دمعت عيونهم...

فشعرت شامية أنه يقصد ما حدث بالأمس، فقالت:

- أردت أن أخبرك أنني آسفة بشأن ما حدث بالأمس، لم أكن

أقصد بأن أذكرك بماضٍ يؤلمك...

- لا عليك، فأنا لا أنسى على كل حال...

ثم عاود النظر إلى المياه مرة أخرى... فشعرت شامية أن الحديث قد وصل لخاتمته، فقامت من مكانها وقصدت غرفتها مرة أخرى...

***

وانقضت أيام الأسبوع، وحان موعد المغادرة إلى الحدود السورية، فاجتمع أهل البيت كلهم يودعون عدنان والفتاة ... وحان وقت السلام على العم، فوقف سلطان ينظر لابن أخيه ويقترب منه ليودعه، ولا يدري إن كان سيراه مرة أخرى أم لا ...

وقف الشيخ يودع في شموخ وعزة ويغالب كل المشاعر المتضاربة في داخله، ولا يظهر منها شيئًا سوى أنه يشد بمعصم ابن أخيه، ويطمئنه على سلامة الرحلة، وأنه سيكون بخير...

وبدأت الرحلة إلى الحدود السورية، بسيارة علي... وفور وصولهم للحدود كان «شرف» أحد أبناء الشيخ محمد السوري ينتظرهم على الجانب الآخر، فنزل عدنان من السيارة، وودع ابن عمه، ثم عبر الحدود بين العراق وسوريا سيرًا على القدم هو وشامية خوفًا من أن يقعَا في أيدي حرس الحدود، فإن لم تكن قوات الجيوش التي تطوق حدود بلاد اللغة الواحدة، كانت جموع السرطان التي تسكن تلك الحدود بعد أن تفشت في البلاد... إلى أن وصل إلى الجانب الآخر، وألقى التحية على شرف، الذي كان ينتظره حاملًا على صدره سلاحًا آليًّا تحسبًا للمشكلات، ثم استقلَّا السيارة إلى منزل الشيخ محمد، ليستريحوا فيه قبل

السـفر إلى مينـاء اللازقيـة للانطـلاق مـع الباخـرة إلى السـواحل الإيطاليـة...

وبعـد قضـاء يـوم واحـد مـع الرجـل الـذي أكـرم ضيفـه، انطلـق عدنـان وشـامية إلى الرحلـة الكبـيرة، ودون أي رد فعـل مـن شـامية، سـوى أنهـا تتبـع زوجهـا إلى حيـث يشـد رحالـه...

ثـم جـاء وقـت ركـوب الباخـرة وكان السـفر، وكأنـه نـوع مـن التهريـب، قبـل أن يركـب عدنـان الباخـرة... سـلمه الشـيخ محمـد بنفسـه إلى أحـد العامليـن عليهـا، وبـدا عليـه وكأنـه يوصيـه بشـأنهما... وأخـبره أنـه فـور وصولـه للمينـاء في الطـرف الآخـر سـيجد سـيارة في انتظـاره، تأخـذه إلى إنجلـترا؛ حيـث تعيـش ابنتـه زهـرة برفقـة جدتهـا كاثريـن...

... ركـب عدنـان الباخـرة، وكانـت رحلـة غـير كل تلـك الرحـلات الـتي ذهـب فيهـا مـن قبـل... ثـم أخذهمـا العامـل إلى مـكان بقائهمـا عـلى الباخـرة، وهـو يعتـذر ويتأفـف مـن سـوء المـكان، فهـو لا يسـتطيع إبقائهمـا في مـكان آخـر غـير مخـازن الحقائـب، ثـم منحهمـا غطـاء واحـدًا ليحتميَـا فيـه مـن بـرد الرحلـة، ولـم يعطهمـا غطائـين عـلى أسـاس أنهمـا زوج وزوجـة... كان عدنـان يشـعر بالسـوء حيـال بقائهمـا في مخـازن الحقائـب... ولكـن الأمـر لـم يشـكل فارقًـا بالنسـبة لشـامية الـتي لـم تبـدِ أي أسى مـن وجودهـا وسـط الحقائـب ومقتنيـات العمـال، قـد كانـت تقبـل الوضـع بـكل مـا فيـه مـن مصاعـب... بينمـا كان عدنـان يعـاني مـن كل مـا حولـه، بدايـة مـن صـوت البـوق الـذي يـكاد يفجـر رأسـه... إلى المـكان الـذي سـيمكث فيـه... ولكـن لا حيلـة لـه سـوى أن يكمـلَا الطريـق الـذي بـدآه...

راح ينظـر حولـه باحثًـا عـن غطـاء أو قطـع قمـاش يفرشـها عـلى

الأرض لتجلس شامية عليها...

ومن ثم عثر على قطعة كبيرة من قماش الجوخ، فأتى بها وفرشها على الأرض تحت قدميها بين أرفف الحقائب، وأشار لها بالجلوس لتستريح، فجلست في صمت تام، ... بينما أسند هو ظهره إلى الرف من خلفه وجلس في الجهة المقابلة لها أيضًا في صمت...

وبعد ساعات قليلة انطلقت الباخرة، وبدأت الرحلة...

كانت الفتاة قد غرقت في النوم بينما بقي عدنان ساهرًا طوال الليل، هو ليس قلق بشأن سلامة الرحلة، وليس قلقًا من وصوله إلى لندن، فهو يعلم أنه سيصل لا محال... ولكن كل قلقه من أن يصل هو أن ينظر في عين ابنته، وأمر زوجته الراحلة إذا سألوه من هذه، فبأي رد يجيب... وظل حائرًا بين أفكاره إلى أن سلم رأسه للرف من خلفه وغرق هو الآخر في نوم عميق ...

وبعد ساعات من النوم استيقظت الفتاة وهي لا تعرف إن كان الشروق قد نشر نوره أم لا، فلا ضوء في المخازن سوى ذلك الضوء الكهربائي الخافت... وكان عدنان لا يزال جالسًا ولكنه ساند رأسه إلى الخلف وغارق في نومه... فقامت الفتاة وهي تحتمي من البرد بالغطاء الذي أعطاهما إياه العامل... تنظر إليه وهو نائم... وتسأل نفسها من أي أصل أتى، وأي شيم قد تكون بهذا القدر من النبل... ما الذي قد يدفع إنسان لخوض كل تلك الصعاب من أجل إنسان لا يعرفه...

وتسأل نفسها كيف كانت تهتم لأمره، وكأنها تعلم أنها تعرفه جيدًا... وكيف تشعر بكل هذا الأمن بقربه... كيف بقربه لا تعبأ بشأن أي شيء ولا تقلق من أي شيء... رغم عدم معرفتها بأي

شيء عـن عائلتهـا، ورغـم كل المخاطـر الـتي تحيـط بهـا، إلا أنهـا بخـير مـا دامـت معـه...

وما الذي ينوي فعله بشأن الزواج، وهل هو زواج...

وبينمـا هـي عـلى حالهـا إذا بالنائـم يفيـق مـن سـباته، ويفتـح عينيـه عـلى عيـون تنظـر إليـه، كأنمـا تنظـر إلى أعجوبـة لـم ترهـا مـن قبـل... فظـل ينظـر في عينيهـا، وكأنهـا أفاقتـه عـلى جمـال لـم يعهـده مـن قبـل... فقـال:

- عيناكي جميلتان جدًّا...

...-

لـم تعلـق شـامية ولكـن نظـرة الدهشـة عـلى وجههـا كانـت كفيلـة بالتعبـير، ثـم تبسـم ثغـر عدنـان، وقـال:

- كانـت زوجـتي سـارة تخـبرني دائمًـا، أن أعـبر عـن الجمـال بـأروع الكلمـات إن وقعـت عليـه عيـني... وكانـت تقـول ابتسـم في وجـه الصعـاب تهـون...

- هل كنت تحلم بها...

- أتمـنى... لكنهـا لا تفعـل... هـي لا تأتيـني في أحلامـي أبـدًا، فهـي ليسـت راضيـة عمـا فعلتـه بنفـسي بعـد موتهـا... لا يمكـن أن تكـون راضيـة عـن حـزني...

- الآن تتحدث عنها ولا تشعر بالسوء...

- لـم أشـعر يومًـا بالسـوء للحديـث عنهـا... في تلـك المـرة عنـد النافـورة عندمـا سـألتيني عنهـا... لـم أشـعر بالسـوء حيـال ذلـك... وأنـت لـم تذكريـني بهـا، فأنـا لا أنسـاها... لكـني شـعرت حينهـا بالضعـف والحـزن، ولـم أشـأ أن تريـني في تلـك الحـال...

-...

بينما يتحدثان إذا بالعامل يدخل الطعام لهما، ويحييهما بالسلام... ويضع الطعام أمامهما الذي لم يكن يشبه طعام الفطور على الإطلاق... فقال عدنان:

- هل في العادة تتناولون هذا اللحوم في الفطور، هنا على السفينو؟

فضحك العامل، وقال:

- إنها الواحدة ظهرًا، وبعد ساعات قليلة أخرى نصل إلى وجهتنا...

ومن ثم انصرف العامل وترك لهما الطعام... وبعد انصرافه سألت شامية:

- وما هي وجهتنا؟

- السواحل الإيطالية، ومن هناك ستنقلنا سيارة إلى إنجلترا، سنمكث في لندن، وبعد يومين سنسافر إلى تركيا.

- لماذا لم نسافر لتركيا مباشرة...

عندها ارتبك عدنان ولم يعرف أي رد يرد به... فقال:

- لم يكن الأمر سهلًا...

عندها سكتت شامية، ولم تعلق على الحديث فهي لا تعبأ على كل حال... وانتظر عدنان أن تكمل الحديث، ولكنها لم تفعل، فأكمله هو:

- عندما نصل لندن سننزل بمنزل أم زوجتي، تدعى كاثرين... وتعيش ابنتي الوحيدة برفقتها هناك... وتدعى زهرة، وهي لا

تتكلـم ولكنهـا تسـمع جيـدًا...

- لماذا تعيش بعيدًا عنها؟

لـم يتوقـع عدنـان هـذا السـؤال أبـدًا، فقـد ظـن أنهـا قـد تتذمـر وتطلـب البقـاء بعيـدًا عـن النـاس... كمـا كانـت تفضـل أن تفعـل في العـراق، ولكـن هـا هـي ذا تداهـم حصـن قـواه بسـؤال يفتـك بـه... فـرد عليهـا كمـا كان يـرد عـلى صديقـه محمـود...

- لا أستطيع احتواءها الآن...

- بأي عذر ستقدمني لها...

عـرف عدنـان أنهـا لا تنـوي إيقـاف صعقاتهـا... وبـدأ يسـايرها في الـردود:

- ولما قد أحتاج لعذر لأقدم زوجتي...

-...

المـرة الأولى الـتي يناديهـا فيهـا بزوجتـه، كانـت كفيلـة لتشـعل نيران العشـق الأولى في قلـب فتـاة ظنـت أن العالـم كلـه انقلـب عليهـا، وتخـلى عنهـا، وهـا هـي مـن بـين الحطـام تجـد مـن يتقبلهـا زوجـة، ويحمـل لـواء حمايتهـا... كانـت تلـك النبضـة القويـة الـتي هـزت كيـان قلبهـا وعلامـة العشـق الأولى... ولكـن عدنـان ظـن أن ملامـح الذهـول عـلى وجههـا؛ لأنهـا تخـشى أن تجـد نفسـها مرغمـة تجاهـه بواجباتهـا كزوجـة لـه... فـراح يـرد عـلى خيـلات رأسـه أمامهـا:

- أنـتِ زوجـتي، وعـلي حمايتـك، وإن كنـت لـم ولـن أقـترب منـك... فيكفـي أنـك الآن تحملـين اسـمي... وإن كنـت أشـك في سـلامة هـذا الـزواج، لكـني مـصر عـلى حمايتـك حـتى النهايـه بصفتـك زوجـة لي... الآن عـلى الأقـل أملـك سـببًا قويًّـا يدفعـني لأتمسـك بحمايتـك، وإن

كنت لا أنوي أن أتركك إلا عندما تصلين لديارك سالمة على كل حال...

قال كلماته ومن ثم مد يده وقرب الطعام منها، ودعاها إليه... وكأنه يستمحيها عذرًا أن توقف الحديث، فيما قد يؤلمه، وأن تتوقف عن ذكر ما يثير الذعر في نفسه...

فسكتت الفتاة، وبدأت في تناول الطعام... وبعد انقضاء عدة ساعات كانت الباخره قد شارفت على أبواب وجهتها، ثم ملأت الأجواء صوت الباخرة، وأطلقت نفيرها المدوي...

وإذا بالعامل يأتي إليهما ليوصلهما إلى سائق السيارة الذي ينتظرهما، ولم يتحدث عدنان إلى السائق، بل فعل العامل، وأشار إلى عدنان لركوب السيارة، وأخبره أن السائق سيأخذه إلى البلدة التي أوصى عمه سلطان أن يوصلهما إليها... ليس هذا وحسب بل إن العامل أخذ من السائق كيسًا بلاستيكيًّا، وأعطاه رزمة من المال، ولم يفهم عدنان ما حدث إلا عندما أعطاه العامل الكيس، وقال له:

- هذا جواز سفرك أنت وزوجتك لتركيا، كسائحين كما أراد عمك...

وبدأت ساعات رحلة أخرى بسيارة عادية ليست مخصصة للسفر عبر الكثبان الرملية إلى السهول الخضراء والمدن الحدودية، ومظاهر الحياة بأشكالها وأنواعها المختلفة، وعندما وصلا إلى مشارف لندن، نزلَا من السيارة التي انطلق صاحبها بها بعيدًا، وقصد عدنان أقرب هاتف رآه أمام عينيه، واتصل بكاثرين يخبرها أنه في الطريق إليها، والتي لم تصدق نفسها أنها سترى زوج ابنتها الراحلة، وبدا من كلامها أن أي من أخبار قتله

لـم تصـل إليهـا، فقـط كل الدهشـة كانـت أنهـا زيـارة مفاجئـة، ودون سـابق علـم... ومـن ثـم اسـتقلَّا سـيارة أجـرة إلى عنـوان المـنزل الـذي يحفظـه عدنـان عـن ظهـر قلـب، مـن كـثرة مـا خيـل لـه أنـه ذاهـب للقـاء ابنتـه، وزيارتهـا في هـذا العنـوان...

فـور وصـول «عدنـان» و«شـامية» إلى أبـواب مـنزل «كاثريـن» بلنـدن، نـزل عدنـان مـن سـيارة الأجـرة ثـم فتـح بـاب شـامية لتـنزل مـن السـيارة، بـدت شـامية قلقـة بشـأن الأمـر في بدايتـه... ومـن ثـم خرجـت العجـوز السـبعينية «كاثريـن»، تندفـع بسرعـة بأقـصى طاقـة بالنسـبه لعجـوز في السـتين تتـكئ عـلى عصـا، وتندفـع ناحيـة «عدنـان» مرحبـة بـه وتحيطـه بـين ذراعيهـا متوسـمة شـم ريـح ابنتهـا الفقيـده سـارة... في أكـثر رجـل أحبتـه... وقالـت:

بني، آه عدنان يا عزيزي.. عدنان..

اشتقت لكِ كثيرًا يا كاثرين العزيزة.

آه عدنان، كيف حالك بني؟!

لقد شعرت بخير للتو، فور رؤيتك.

بينمـا يتبـادلان أسـئلة الشـوق إذا بكاثريـن تلحـظ وجـود «شـامية»، فتنظـر إلى عدنـان وتقـول:

- من هذه الجميلة التي معك؟!

سـألت كاثريـن «عدنـان» السـؤال الـذي كان يخشـاه طـول الطريـق في الرحلـة مـن العـراق لإنجلـترا... وقـف أمامهـا وشـعر أنـه لا يملـك الـرد... ولكنـه خـاف أن تزيـد الريبـة في قلبهـا فبـدأ يـرد:

اسمها شامـ....

ولـم يكـد يكمـل كلمتـه، إذا بالصغـيرة الصامتـة، ابنـة الحاديـة

عـشر عامـا، تندفـع بسرعـة الشـوق نحـو أبيهـا، وتطـوق كتفيـه بذراعيهـا الصغـيرة، عندهـا خـر عدنـان عـلى ركبتيـه مـن هـول السعادة في قلبـه، وكادت الدموع أن تفر من عينيه لشوقه لابنتـه، الـتي ظـن أنـه لـن يراهـا ثانيـة، وأنـه سـيدفن في العـراق، دون أن تعـرف مـكان قـبره فتـأتي لزيارتـه... كان المشـهد رائعًـا إلى حـد أن الفتـاة بـدأت تـذرف الدمـوع في صمـت عـلى كتـف أبيهـا، وكأنهـا هـي الأخـرى شـعرت للحظـة مـن اللحظـات أنهـا لـن تـراه مجـددًا...

دمعـت عـين العجـوز بينمـا وقفـت شـامية تتعجـب لقـدرة الـرب الـذي كتـب لهـذا الرجـل أن ينجـو مـن كل مـا مـر بـه ليصـل اليـوم إلى أحضـان هـذه الصغـيرة...

... ثـم اسـتجمع «عدنـان» قـواه وكبـح دموعـه في عينيـه... ومـن ثـم أمسـك بيـد «كاثريـن» وقـال لهـا:

كاثرين الطيبة، أتقبلين بي وبضيفتي في بيتك لبعض الوقت؟!

نظـرت العجـوز إلى زوج ابنتهـا، ووضعـت يدهـا عـلى خـده كأنهـا تدلـل ابنهـا وقالـت:

أنت في منزلك أخيرًا يا بني.

وكأن العجـوز تخـبره أنـه لا يمكنـه الاسـتئذان للمكـوث في بيتـه، فنظـر عدنـان إلى شـامية وقـال لهـا:

- تفضلي بالدخول...

وأخـذت «كاثريـن» بيـد «شـامية» مرحبـة بهـا دون أن تعـرف مـن هـي، وحمـل «عدنـان» ابنتـه إلى الداخـل، بينمـا تسـير كاثريـن برفقـه «شـامية» خلـف عدنـان ليدخلـوا مـن بـاب المـنزل، ثـم نظـرت الفتـاة «زهـرة» إلى «شـامية» نظـرة قلـق لا تبـشر بأنهـا سـترحب بهـا...

في حين نظرت إليها «شامية» بشفقة الخوف، فهي تشفق على نفسها من أن توضع في مثل هذا الموقف أمام الصغيرة...

عندما دخلوا المنزل...طلب عدنان إلى كاثرين أن تأخذ «شامية» إلى غرفة «زهرة»، فنظرت إليه «كاثرين» وقالت:

بالطبع عزيزي.

ثم نظرت إلى شامية وسألتها:

بما أدعوكي عزيزتي ؟!

فنظرت «شامية» إلى «عدنان» وكأنها تطلب النجدة، لا الإذن في الرد... فرد بسرعة وكأنه يتدارك الموقف:

شامية.. اسمها شامية!!

نظرت العجوز إلى زوج ابنتها الذي بدا عليه الارتباك، وقد أدركت أن في الأمر ريب... ولكن ربما لم ترد أن تزيد عليهما مشقة السفر، فلم تزد عليهما في السؤال...

وقالت بصوت خافت، وكأن أحبالها الصوتية تتخبط في حلقها...

آآآ الطريق إلى هنا... لا بد أنها كانت رحلة طويلة وشاقة، تعالي معي عزيزتي سآخذك إلى غرفة زهرة.

ثم نظرت إلى «زهرة» وقالت:

حسنًا هيا سيدتي الصغيره، دعينا نري صديقتنا كم أن غرفتك جميلة ورائعة.

ثم أمسكت بيد «شامية» لتأخذها إلى الغرفة، بينما نظرت «زهرة» إلى أبيها نظرة توحي بالقلق، فابتسم عدنان في وجه ابنته ابتسامة مشوبة بالخوف... وصعدت الفتاة بعدها على

الـدرج لتتبـع جدتهـا...

بعدهـا اسـتند عدنـان إلى الأريكـة وجلـس يفكـر في همومـه، وعـن قلقـه بشـأن أمـور كثـيرة، فقلقـه الآن يشـبه الصنـدوق الأسـود الـذي يخـبِّئ الكثـير للجميـع، لا يـدري مـاذا يقـول، ومـاذا يفعـل... يتمـنى أن يصـل صديقـه المـصري بأقـصى سرعـة ليفـرغ حاويتـه أمامـه، ويسـأله مـاذا يفعـل، هـل يخـبر كاثريـن وابنتـه أنـه تـزوج بعـد زوجتـه الـتي أقسـم لهما أنـه سـيمضي العمـر بعدهـا وحيـدًا إلى أن يلحـق بهـا، وفـاء لحبهـا لـه، هـل يخبرهمـا أنـه تـزوج فتـاة تصغـره سـنًّا ... فقـط لأنـه أراد إنقـاذ حياتهـا، هـل سـيفهمان الأمـر، هـل سـتتقبل «زهـرة» مـا حـدث، وهـل سـتوافق كاثريـن عـلى رغبتـه في اصطحـاب ابنتـه معـه إلى تركيـا لتعيـش معـه هنـاك، هل سيسـتطيع أن يوصـل «شـامية» آمنـة إلى أسرتهـا بإسـطنبول، وكيـف يخبرهـا أن والدهـا الـذي تتـوق للقائـه قـد فـارق الحيـاة، كيـف يخبرهـا أن أملهـا الوحيـد في الحيـاة قـد انقطـع، وأنـه يخـشى أن عمهـا قـد لا يقبـل وجودهـا وقـد يرفـض اسـتلامها منـه... كنبتـة صبـار في صحـراء جـرداء لا تنفـك تفقـد كل نقطـة ميـاه في أوراقهـا، لا ينفـك عدنـان يفكـر في كل ثغـرة قـد يصـل منهـا الأمـل إلى قلبـه... وبينمـا يجلـس عـلى حالـه غارقًـا في أفـكاره، إذا بجـرس الهاتـف يسرقـه مـن همومـه... ويرفـع السـماعة ليسـمع صـوت الصديـق المـصري...

«محمود»...

- ألو... ألو.

عندمـا سـمع عدنـان صـوت رفيقـه شـعر أن الإمـدادات قـد أتتـه مـن السـماء، إلى حـد أنـه لـم ينتظـر ليعـرف «محمـود» مـن عـلى الهاتـف، وسـأله مبـاشرة:

- أين أنت؟

- عدنان، هذا أنت؟ هل أنت عدنان ... أعرف صوتك جيدًا...

- نعم إنه أنا، إنه أنا يا صديقي...

- أنـت حـي تـرزق!!... كنـت أعـرف هـذا، كنـت أعـرف أنـك لـم تمـت... لـم أصـدق يـا صديقـي، صدقـني لـم أفعـل...

- أعرف يا صديقي، ساعدني محمود أنا غارق هنا...

- أنـا قـادم إليـك... بالطبـع سـأفعل، لقـد وصلـت أرض المطـار لتـوي، لكـني قـادم إليـك...

- حسنًا، أسرع...

- سأفعل...

لـم يطـق عدنـان فكـرة الانتظـار... إلى حـد أنـه هـم بالخـروج لحديقـة المـنزل فـور مـا وضـع سـماعة الهاتـف... ولكـن أوقفتـه «كاثريـن» بعدمـا نزلـت للـدور السـفلي وقالـت:

إلى أين؟!

صديقي محمود سيصل الآن سأنتظره في الخارج.

وقبل أن يخرج عاود النظر إلى «كاثرين» وقال:

كيف هي شامية ؟!

نظرت إليه العجوز بريبة وقالت:

انها بخير، لما لا تستريح إلى أن يصل محمود.

شكرًا كاثرين أنا بخير، ولكن أين زهرة؟

إنها في الطابق العلوي برفقة الفتاة.

شـعر عدنـان في داخلـه بالقلـق حيـال بقـاء «زهـرة» برفقـة

«شـامية»، وشـعر في داخلـه بالنـدم لأنـه أتى إلى لنـدن برفقتهـا...

قبـل أن يـترك البـاب للخـارج، اسـتوقفته كاثريـن قائلـة إن ابنتهـا الأخـرى «كيـت» سـتأتي أيضًـا لترحـب بـه...

نظـر إليهـا «عدنـان» وابتسـم، ولكنـه عـاد ليقطـب جبينـه فـور مـا أدار وجهـه لهـا... فقـد علـم حينهـا أن الأمـور سـتزداد سـوءًا بحضـور «كيـت»... فهـي طالمـا كان موقفهـا منـه يشـبه موقـف أبيهـا، وهـي تكـره عدنـان منـذ مقتـل سـارة، الآن لـن يكـون مـن السـهل أبـدًا إخبارهـم عـن حقيقـة «شـامية» ...

خـرج عدنـان إلى حديقـة المـنزل الأماميـة يذهـب ويجـيء بانتظـار صديقـه... ومـن نافـذة غرفـة «زهـرة» كانـت «شـامية» تنظـر هـي الأخـرى، تفكـر فيمـا يحـدث لهـا، بعـد أن غـادرت أرض الدمـار والدمـاء، وابتعـدت عـن بابـل... ولكنهـا مـا تـزال بعيـدة كل البعـد عـن حديقـة أتاتـورك... بـل هـي الآن تجلـس عـلى فـراش ليس فراشـها وتنظـر مـن نافـذة ليـس لهـا الحكـم عـلى هوائهـا بلنـدن، المشـهد مـن خـارج النافـذة ليـس غريبًـا عليهـا، فهـي ليسـت المـرة الأولى الـتي توجـد فيهـا بلنـدن، فلطالمـا اعتـادت أن تقـضي الإجـازات برفقة والديهـا بـين باريـس ولنـدن... لكـن المشـهد مـن داخـل النافـذة هـو المشـهد الغريـب، فهـي تـدرك تمامًـا أنهـا برفقـة أنـاس لـن يرحبـوا بهـا إذا عرفـوا حقيقتهـا... وحقيقـة ارتباطهـا بعدنـان... ورغـم أن عدنـان صرح لهـا بأنـه يعدهـا زوجتـه، وأنـه ملـزم بحمايتهـا وليـس عليهـا أن تشـعر بأنهـا عـبء عليـه... إلا أن الشـعور ذاتـه يخالجهـا دائمًـا وبكـثرة منـذ أن وصـلَا إلى لنـدن، وشـعرت بقلـق شـديد مـن أن تسـبب لعلاقتـه بابنتـه أي مشـكلات...

بينمـا هـي غارقـة في فكرهـا... كان الكابـتن قـد وصـل أخـيرًا... بمجـرد

وصوله لم يكن يصدق عينيه أنه يرى «عدنان» من جديد، وأنه لم يمت في العراق... بينما لم يصدق «عدنان» نفسه أنه أخيرًا سيخرج ما في جعبته لصديقه الوحيد...

وانهال كلاهما على الآخر بترحيب الشوق والأحضان ... ثم قال «محمود» وهو يطوق صديقه بذراعيه:

- لم أصدق أنك ستنجو...

- صدقني ولا أنا... لكن الله كتب لي عمرًا جديدًا، من أجل أن أرى ابنتي مرة أخرى...

ثم سأل محمود بلهفة القلق:

- أخبرني كل شيء، ما الذي حدث؟!

- تمكنت من الفرار برفقة الفتاة، وتورطنا في الزواج...

- أي فتاة... تزوجت؟!

- أتذكر عندما أخبرتك أن فتاة تستغيث على الطرف الآخر من الهاتف...

- الفتاة ماتت...

- لا، هي لم تمت...

ثم سرد عدنان لصديقه القصة كاملة، وعما حدث معه من تركيا للعراق، إلى أن وصل لندن... وبعدما انتهى سأله محمود:

- وأين الفتاة؟ كيف هو رد فعل «كاثرين»؟

- إنها في غرفة «زهرة» في الأعلى، لم أخبر أحدًا شيئًا عنها بعد...

- وماذا تنوي أن تفعل عندما تصلان لتركيا؟

- مـن المفـترض أن أسـلمها لعمهـا، ولكـني أشـعر بالريـب حيـال ذلـك؟

- ماذا تعني لا أفهم؟

- أنـت وأنـا نعلـم جيـدًا أن الفتـاة قـد انتحـر والدهـا، ولكنهـا لا تعلـم، وأنـا أيضًـا لسـت واثقًـا إن كان عمهـا يرغـب بعـودة وريثـة ملـك أخيـه الوحيـدة إلى القـصر أم لا...

- ألم تخبرها الحقيقة؟!... ألم تخبرها أن والدها قد انتحر...

- لـم أسـتطع، كانـت حالتهـا في غايـة السـوء، وخفـت أن أخبرهـا فتزيـد الأمـور سـوءًا حينهـا... ولـم أفعـل إلى الآن، أضـف إلى ذلـك أنـني هنـا وأعلـم جيـدًا أن «كاثريـن» سـتغضب إذا علمـت بحقيقـة نسـبها إليَّ...

- حسنًا إذن، اسمعني جيدًا سأغادر الأ...

قاطـع «عدنـان» صديقـه بغضـب؛ لأنـه لـم يفهـم سـبب رده، قائـلًا:

- لا يمكنـك ذلـك، يجـب أن تكـون بجانـبي لا أدري مـاذا أفعـل... أتيـت لاصطحـاب ابنـتي وسـآخذها هـي وشـامية، ونرحـل إلى تركيـا، ولا يمكنـني أن أتخيـل رد فعـل «كاثريـن» وابنتهـا «كيـت» أنـا بحاجتك هنـا...

أمسـك «محمـود» بيـد صاحبـه، وشـد عليهـا، ونظـر إليـه بحـدة ليهـدئ مـن روعـه، واندفاعـه... ثـم قـال:

- «عدنـان» تمالـك نفسـك وفكـر بحكمـة، لا تخـبر كاثريـن عـن حقيقـة الفتـاة، وأنـا سـأذهب، لأعـد شـقتي هنـا لتبقـى فيهـا أنـت والفتـاة، إلى أن ترحـلَا إلى تركيـا، ولا تفكـر في اصطحـاب ابنتـك معـك

الآن هـي بخـير هنـا، دعهـا مـع جدتهـا إلى أن تهـدأ الأمـور... والآن اهـدأ سـأعود بعـد قليـل لاصطحابـك أنـت والفتـاة...

ثـم اندفـع محمـود منطلقًـا مـن أمـام صديقـه، قبـل أن يتمكـن عدنـان مـن أن يسـأله مـاذا سـيخبر زهـرة إن سـألته كيـف يـأتي ويذهـب في نفـس اليـوم قبـل أن يمـضي وقتًـا أكـثر برفقتهـا؟

ثـم اسـتدار عدنـان ليجـد كاثريـن الـتي تقـف عنـد بـاب المـنزل تنظـر إليـه بدهشـة... فاقـترب مـن البـاب لدخـول المـنزل، ثـم قالت:

هل كل شيء على ما يرام؟

نعم... طبعًا، لما السؤال؟!

إذن.. لماذا غادر محمود قبل أن يلقي التحية.

اعتقد أنه كان على عجلة من أمره.

نعم.

ثـم دخـلَا المـنزل... فقالـت كاثريـن إنهـا أعـدت الطعـام، وطلبـت إلى عدنـان أن يذهـب لاسـتدعاء ضيفتـه للمائـدة...

في الأعـلى كانـت «شـامية» قـد اغتسـلت، وجلسـت تمشـط شـعرها الذهـبي المنسـدل عـلى كتفيهـا... بجانـب زهـرة الـتي كانـت تحـدق فيهـا، فتوقفـت شـامية عـن تمشـيط شـعرها وابتسـمت ابتسـامة خفيفـه في وجـه زهـرة، ولكـن زهـرة رأت في تلـك الابتسـامة الخـوف أكـثر مـن المـودة، ولـم تغـير تعابـير وجههـا المليئـة بالريبـة، وأشـارت بيدهـا تسـألها، مـن أنـتِ؟...

لكـن شـامية لـم تفهـم قصدهـا، فعـادت تشـير لهـا مـرة أخـرى... فقالـت شـامية وهـي تسـتعطفها عـذرًا:

آسفة، لا أستطيع أن أفهمك.

فقامت الفتاة، وأحضرت ورقة وقلمًا من على مكتبها، وكتبت عليها...

من أنتِ؟

فخفق قلب شامية بشدة وتلكأت الكلمات على طرف لسانها، وبدأت تتمتم بلسانها:

- شام... شام... شامية.

فعاودت الفتاة الصغيرة الكتابة على الورقة وزادت عليها كلمة واحدة «شامية» فأصبح السؤال: من انتِ يا شامية...

انتفض قلب شامية وكأن ما كانت تخشى حدوثه يحدث بالفعل، ورغبتها القوية في ألا تكون سببًا في الإطاحة بقلب الفتاة المسكينة بعيدًا عن أبيها... ولم تدرِ ماذا تفعل... وماذا عساه قد ينقذها... لكن الذي أنقذها، هو من اعتادت أن يفعل دائمًا... إذا بعدنان يطرق باب الغرفة ويستأذن في الدخول، ثم يقول:

- لقد أعدت «كاثرين» الطعام، إنها تنتظر بالأسفل...

نظرت حينها كل من الفتاتين لعدنان ولكن اختلفت النوايا... نظرت زهرة إلى أبيها بقلق، ونزلت إلى الأسفل... بينما نظرت إليه شامية باطمئنان، وتعجبت كيف له أن ينقذها في كل مرة في الوقت المحدد منذ اليوم الذي التقته فيه، وهو دائمًا يأتي عندما تحتاج إليه، وكأن القدر يسوقه إليها... نظرت إليه وكادت الدموع تفارق عينيها... ولكن هذه المرة دموع مختلفة تمامًا عن تلك التي تذرفها منذ حادث رحيل أمها...، دموع ليست كالدموع، وحزن ليس كالحزن، دموع ممزوجة بالشوق، وحزن ممزوج بالسعادة... كيف تخبره أن قلبها سعيد بقربه منها...

ولكنها تعلم جيدًا أن دموعها إن ظهرت له لن تحمل المعنى الذي ترغب أن توصله له أبدًا... لأنها كانت على يقين أنه سيظن أنها دموع اليأس، فعاودت النظر إلى الأرض...

لكن لم تستطع هي الأخرى أن تقراء ما يجوب بخاطر من بدت له ملامح العشق والشوق له على قلبها ...

كانت نظرات عدنان تنطق لها بما يجوب في خاطره، وهو يخبرها أنا آسف حقًّا لم أشأ أن أضعك في هذا الموقف هنا...

ثم خرج عدنان من الغرفة ولم يقل كلمة واحدة، ولم يرغمها على النزول فهو يعلم أنها لن تأتيها الشهية للطعام على كل حال...

عندما نزل إلى الأسفل أخبر كاثرين أنها لا ترغب في تناول الطعام... وأنها تفضل النوم قليلًا فهي مرهقة من السفر...

بينما يتناولون طعامهم، إذا بجرس الباب يدق، ظن عدنان أن محمود قد أتى أخيرًا، فهب يفتح الباب، ولكن الطارق لم يكن محمود، إنها كيت قد وصلت إلى المنزل...

عندما رآها عدنان تغيرت ملامحه، وعلم في داخله أن الأمور قد ازدادت سوءًا، ولكن بالطبع كتم مشاعره، ورحب بها بابتسامة عريضة، في حين رحبت به المحامية بابتسامة بدا عليها أنها ليست من القلب... على كلٍّ كلا الابتسامتين لم تكن من القلب، وبعد الترحيب انضمت كيت إلى مائدة الطعام، وبدأت تغدق على الصغيرة زهرة أشكال العطف المختلفة...

ولكن الحقيقة أن في نفس زهرة، الكثير لكيت التي حاولت أكثر من مرة أن تدفعها إلى اعتناق الكاثوليكية المسيحية، لكن

الصغـيرة كانـت متمسـكة بديـن أمهـا الـذي ماتـت عليـه... وكانـت تسـاندها جدتهـا في ذلـك الأمـر عـلى الرغـم مـن أنهـا هـي الأخـرى مسـيحية تنتمـي للكنيسـة الكاثوليكيـة، إلا أنهـا تؤمـن بحريـة الأديـان، وأن كل إنسـان حـر في اختيـار دينـه، فحينمـا كانـت تخبرهـا كيـت أن أمهـا ماتـت بسـبب دينهـا، كانـت تخبرهـا جدتهـا أن أمهـا ماتـت بسـبب قدرهـا ... وكانـت تحـكي لهـا عـن حكايـات الحـروب بـين الأديان عـبر الزمـن وعـن قصـص المسـيحية ورحلتهـا في أوروبـا... وتحـكي لهـا أيضًـا عـن رحلـة أمهـا مـع الإسـلام... بعدمـا انتهـى الجميـع مـن الطعـام... اقترحـت كيـت أن يخرجـوا للاحتفـال بمناسـبة عـودة عدنـان، فانتفضـت الطفلـة مـن عـلى مقعـد الطاولـة وبـدأت تصفـق تشـجيعًا لفكـرة الخـروج... لكـن عدنـان تهـرب مـن الأمـر قائـلًا إنـه لا يسـتطيع؛ لأنـه قـادم مـن السـفر لتـوه، ولا يسـتطيع الخـروج... وعندهـا تبسـمت كيـت ابتسـامة المكـر بينمـا تضـع الطعـام في فمهـا

... فرحـت كيـت برفـض عدنـان الخـروج، فقـد كانـت حريصـة عـلى إبقـاء زهـرة بعيـدًا عـن أبيهـا، خوفًـا مـن تأثرهـا بـه، فقـد كان لديهـا اعتقـاد دائـم أنـه السـبب في مـوت أبيهـا وأختهـا، وقـد ظنـت في فـترة مقاطعتـه لزهـرة أنـه ذهـب ولـن يعـود وسينسـاها...

بينمـا بـدا عـلى وجـه زهـرة الأسى، وأعـادت شـوكة الطعـام بمـا تحتـوي في الطبـق تعبـيرًا عـن الغضـب بعـد أن قضبـت جبينهـا، حينهـا اسـتغلت خالتهـا الموقـف، وتدخلـت وحلـت الأمـر، وقالـت إنهـا سـتصطحب زهـرة إلى عـرض فيلـم الرسـوم المتحركة في السـينما المجـاورة للحـي...

وبهـذا تكتمـل خطتطهـا في إظهـار مـدى اهتمامهـا بالفتـاة، في حـين أن أبيهـا لا يفعـل، بينمـا الحقيقـة هـو أن كل مـا شـغل زهـرة هـي

أنهـا سـترى فيلـم الرسـوم المتحركـة، كطفلـة اطمأنـت لأن أبيهـا هنـا ولـم تخـل أنـه قـد يذهـب قبـل أن تقـضي معـه مـا يكفـي مـن الوقـت، ... بينمـا قـام عدنـان مـن مكانـه واقـترب مـن مقعـد زهـرة، واسـتند عـلى ركبتيـه عـلى الأرض بالقـرب منهـا، والتقـط شـوكتها الـتي ألقتهـا في طبقهـا وبـدأ يطعمهـا بنفسـه، وهـو يقـول:

أنـا هنـا الآن، ولا أرغـب في رؤيتـك حزينـة مـرة أخـرى، أعـدك أنـني لـن أبتعـد مجـددًا، سـيكون لدينـا الكثـير مـن الوقـت لنمضيـه معًـا.

عـادت البهجـة إلى وجـه زهـرة، وتناولـت الطعـام مـن يـد أبيهـا، وفرحـت كاثريـن بحديـث عدنـان؛ لأنـه أخـيرًا سـيحقق رغبتهـا في احتـواء ابنتـه وألا يتهـرب منهـا، فمـدت يدهـا تمسـح عـلى شـعره، بينمـا انهـارت آمـال كيـت في إبقـاء الفتـاة معهـا، وإبعادهـا عـن أبيهـا فـوق رأسـها في تلـك اللحظـة... وقالـت وهـي تكبـح غيظهـا:

حسـنًا جيـد جـدًّا زهـرة، يبـدو أن والـدك أخـيرًا أصبـح لديـه الوقـت ليمضيـه معـك، حسـنًا دعينـا نذهـب يـا صغـيرتي، لا نريـد أن يفوتنـا الفيلـم!!

وبعدمـا خرجـت زهـرة وكيـت مـن المـنزل، بقـي عدنـان وكاثريـن وشـامية الـتي كانـت نائمـة في الأعـلى، ووجـد عدنـان نفسـه جالسًـا أمـام كاثريـن الـتي كانـت تنظـر إليـه في عينيـه بريبـة... فشـعر أنهـا سـتبدأ بالأسـئلة، فقـام مـن عـلى مقعـده قائـلًا إنـه سـينظف الصحـون، لكـن كاثريـن أمسـكت بمعصـم يـده قبـل أن يغـادر طاولـة الطعـام، وقالـت:

لقـد قلقـت كثـيرًا بشـأنك، أيـن كنـت طـوال هـذه المـدة؟ كيـف لـك ألا تسـأل عـن ابنتـك طـوال هـذه المـدة؟!! ألديـك أدنى فكـرة كيـف كانـت حالـة زهـرة في ذلـك الوقـت؟!

بـدا عدنـان مستاءً كثـيرًا، فعـاد يجلـس عـلى الطاولـة مـن جديـد ثـم رد عليهـا بصـوت متهـدج وهـو يخفـض رأسـه:

كيـف لـكِ أن تعـرفي أنـني لـم أحـاول، لقـد حاولـت الاتصـال مـرارًا وتكـرارًا، ليـس لديـك أدنى فكـرة عمَّـا واجهتـه في تلـك الأيـام كاثريـن؟

عدنـان!! تعلـم جيـدًا أنـني أحبـك كابـني تمامًـا، بـل أتمـنى لـو كان لي ابـن يـوم أن يكـون هـو أنـت، تحـدث إليَّ بـني، سأسـمعك للنهايـة، قـل كل شيء وأزل الهـم عـن قلبـك المسـكين.

لا أدري من أين أبدأ، ولا أعرف ماذا أقول..

حسـنًا لنبـدأ بالفتـاة الـتي في الأعـلى، مـن هـي؟ ومـاذا تفعـل برفقتـك؟ ولمـا يبـدو عـلى كلاكمـا الأسى إلى هـذا الحـد؟!

نظـر عدنـان إلى كاثريـن وبـدا عليـه الارتبـاك التـام وبـدأ يشـبك يديـه الواحـدة بالأخـرى، ودار في عقلـه حينهـا أنهـا سـتفهمه إذا أخبرهـا تفاصيـل القصـة...

إنها فتاة من تركيا.. هي.. هي زوجتي.

ظهـرت علامـات الصدمـة عـلى العجـوز عندمـا أخبرهـا عدنـان أن الفتـاة زوجتـه... وبـدأت الأسـئلة تجـوب بخاطرهـا... كيـف يفعـل هذا دون أن يأخـذ بـرأي ابنتـه، أو حـتى يخبرهـا... كيـف ينـسى حبـه الكبـير لابنتهـا الـتي تبعتـه إلى أرض الدمـار، وماتـت بـين ذراعيـه... حـتى إن الصدمـة أصابـت حلقهـا بجفـاف الذعـر، فمـدت يديهـا وهـي ترتعـش لتنـاول نفسـها كأس المـاء مـن أمامهـا... مـن ثـم التقطتـه، وشربـت منـه بعـض المـاء...

وعندمـا انتهـت مـن الـشرب، مـد عدنـان يـده وأخـذه منهـا... ووضعـه عـلى الطاولـة، وقبـل أن ينطـق كلمتـه التاليـة، رفعـت

كاثريـن يدهـا في وجهـه تشـير إليـه أن يصمـت، ثـم قالـت:

- my husband "Jorge" died on his feet.

لقـد تـوفي زوجـي جـورج وهـو واقـف عـلى كلتـا قدميـه بجـواري وهـو يسـتمع إلى الموسـيقى الـتي اعتـادت ابنتنـا سـارة أن تسـمعها... لقـد شـعر بالذنـب الشـديد حيـال موتهـا، لـم ينفـك يلـوم نفسـه ويحملهـا الأسـباب لمـوت ابنتـه إلى حـد أنـه لـم يعـد يطيـق حياتـه، لـم ينفـك يسـأل نفسـه كيـف سـمح لسـارة أن تتبعـك إلى أرض الهـلاك، لقـد أحبهـا كثـيرًا لدرجـة أنـه لـم يتمكـن مـن البقـاء حيًّـا بعـد رحيلهـا..!!

لكنهـا أحبتـك أنـت، أحبتـك أنـت حـتى أكـثر مـن حبهـا لوالدهـا، لقـد عصـت أوامـر والدهـا وتبعتـك إلى العـراق، لتمـوت هنـاك بـين يديـك، والآن... الآن أنـت هنـا تـتزوج مـن سـيدة صغـيرة جميلـة، لـم تأبـه لابنـتي، لـم تأبـه لحبهـا لـك... لقـد تركـت ابنتهـا ولـم تسـأل حـتى عنهـا.

ثـم نهضـت العجـوز مـن مقامهـا، في حـين بقـي عدنـان جالسًـا إلى الطاولـة، ورأسـه منخفـض، يتمـزق مـن الداخـل... واتجهـت إلى المطبـخ وتابعـت الحديـث، وهـي تكبـح آلامهـا في صدرهـا وتقـاوم اختنـاق صوتهـا مـن شـدة الضيـق... قالـت بسـخرية مريـرة:

حسـنًا لقـد كنـت مشـغولًا بالـزواج إذن، لهـذا لـم تتمكـن مـن الاتصـال بابنتـك!

نهـض عدنـان مـن مقامـه، وتبعهـا قائـلًا بغضـب وعينـاه غارقـة في الدمـوع:

كيـف تجرؤيـن!! كيـف لـكِ أن تشـككي في ولائي وحـبي لسـارة، لقـد

وعـدت أن أحبهـا إلى الأبـد، لقـد أردت دائمًـا أن أبقـى وحيـدًا إلى يـوم ألقاهـا... لقـد أحببتهـا أكـثر مـن حيـاتي، ليـس لـدي حـتى حيـاة بدونهـا، لقـد ماتـت سـارة.. ماتـت مـرة واحـدة، وتركتـني هنـا لأتجـرع المـوت كل يـوم.

مـن الأعـلى كانـت شـدة الصـوت قـد أفاقـت شـامية مـن ثباتهـا، وخرجـت مـن الغرفـة، فسـمعت آخـر جملـه قالهـا عدنـان ... وبـاقي الحديـث حيـث قاطعـت كاثريـن عدنـان وسـألته:

أهكـذا تظهـر ولاءك لابنـتي؟!! أن تـتزوج مـن فتـاة صغـيرة بـدون حـتى أن تطلـب الإذن مـن ابنتكمـا.

توقفـي أرجـوك، لا أحتمـل كلمـة واحـدة.. لقـد أرغمـت عـلى هـذا الـزواج.

وقبـل أن يكمـل عدنـان حديثـه مـبررا لكاثريـن سـبب زواجـه مـن شـامية... قاطـع صوتـه صـوت وقـوع أقـدام شـامية التركيـة، تـنزل عـلى الـدرج، وكانـت آخـر جملـة قالهـا تسـمعها شـامية لأول مـرة، أمـام أم زوجتـه السـابقة وهـو يقـول بـكل مـرارة إنـه أُجـبر عـلى الـزواج منهـا... نزلـت إلى الأسـفل وكالغريبـة الـتي لا يوجـد لهـا في بقـاع الأرض مـكان يأويهـا، كالضيـف الغريـب الـذي يـأوي إلى كنـف ليـس كنفـه وقفـت لا تعـرف الخـلاص، ولا حـتى منقذهـا الـذي يقـف أمامهـا يزيـل عنهـا خجـل اللحظـة ... صمـت الجميـع، ونظـر عدنـان إليهـا بعدمـا صعـق مـن حقيقـة مـا قـال مقارنـة بمـا قالـه لهـا عـلى المركـب عندمـا قـال إنهـا لا يجـب أن تشـعر أنهـا عـبء عليـه، فكيـف الآن وهـي تسـمعه يتوسـل سـبل الـبراءة مـن نسـبه بهـا ... بينمـا نظـرت إليهـا كاثريـن في أسى، وانصرفـت مـن أمامهمـا لتجلـس عـلى أريكـة... مقابلـة لبـاب المـنزل... بينمـا وقفـت شـامية

وعدنـان، أمـام بعضهمـا البعـض، وكل منهمـا يتمـنى لـو أن شـيئًا مـا يحـل عليـه فيخفيـه مـن الوجـود في تلـك الحظـة حـتى لا يـراه الآخـر ... وانتهى المشـهد وكل منهمـا ينقصـه شيء لا يعلمـه، كاثريـن لا تعلـم تفاصيـل إجبـار عدنـان عـلى الـزواج، رغـم حبـه لابنتهـا الراحلـة، وشـامية لا تعلـم أن عدنـان يشـعر بالفـزع والضيـق لمـا جـرح بـه مشـاعرها مـن قـول، وعدنـان لا يعلـم أن مـن يظـن أنهـا أكـبر مصاعـب حياتهـا حقيقـة ارتباطهـا برجـل يكبرهـا سـنًّا، هـي في الواقـع قـد بـدأت تكـن لـه العشـق... كصـورة تنقصهـا الألـوان كانـت رؤيـة الجميـع في تلـك اللحظـة، ولـو اسـتمع كل منهـم للآخـر لارتـاح قلبـه...

وقطـع لحظـة الصمـت صـوت جـرس البـاب، فذهـب عدنـان ليفتـح، إذا بكيـت قـد عـادت هـي وزهـرة، الـتي لـم ترغـب في مشـاهدة الفيلـم؛ لأنـه لـم يـرق لهـا وقـررت العـودة للمـنزل، وعندمـا دخلـت كيـت لاحظـت وجـود شـامية تقـف بجـوار أسـفل الـدرج، ولاحظـت الصمـت والضيـق عـلى وجـوه الجميـع...، وقبـل أن تنطـق بكلمـة واحـدة، إذا بمحمـود يصـل هـو الآخـر... ابتسـم محمـود في وجـه الجميـع وحياهـم، ولكـن دون أي رد مـن أي أحـد، عندهـا فطـن محمـود أن صديقـه قـد اسـتباح الحديـث وحـكى مـا حـدث ... فـإذا بكاثريـن تجلـس عـلى الأريكـة، وتتـكئ بكلتـا يديهـا عـلى عصاهـا ويبـدو عليهـا الأسى الشـديد... وعـلى نهايـة الـدرج تقـف شـابة شـقراء عيونهـا زرقـاء مظلمـة، كل ملامـح وجههـا تعـبر عـن كـم الحـيرة في قلبهـا...

نظـر إليهـا بإعجـاب شـديد، ثـم نظـر لعدنـان، وكيـت وهمـا يقفـان في ثبـات ... فوقـف هـو الآخـر عاجـزًا لا يعـرف مـاذا يقـول

ولـم ينطـق بكلمـة واحـدة... في لحظـة ذهـول وصمـت خيمـت عـلى الجميـع حـتى عـلى كيـت الـتي لـم تكـن تعلـم أي شيء يحـدث حولهـا، ولا تعـرف مـن الغريبـة الـتي تقـف عـلى الـدرج...

ثـم صعـد عدنـان إلى الـدور العلـوي... ونـزل وفي يـده الحقيبـة الصغـيرة الـتي أتى بهـا... ووقـف بجانـب شـامية الـتي كانـت مـا تـزال تقـف في مكانهـا... ثـم قـال لهـا:

- سنرحل الآن...

وانطلـق مسرعًـا ناحيـة صديقـه، وأعطـاه الحقيبـة، ففهـم محمـود أنـه يريـد إخبـار كاثريـن شـيئًا، فنظـر ناحيـة الفتـاة قائـلًا:

- تفضلي معي آنستي.

نظـرت إليـه شـامية، وتحركـت إلى الخـارج، كدميـة آليـة لا تشـعر بـشيء مـن حزنهـا، مضـت وللمـرة الأولى تكـون في حزنهـا ولا تنتظـر يديـه تمسـك بمعصمهـا فتطمئنهـا للسـير... فقـط حملـت نفسـها وخرجـت مـن المـنزل، وبينمـا تخـرج تمـر مـن أمامـه كسـيوف مسـممة تمـزق وجهـه... وقلبـه مـن الداخـل يـنزف خجـلًا وألمًـا، مـن كونـه عـراقي لـم يسـتطع حمايـة مـن تنسـب إليـه زوجـة مـن شـعور الضيـف غـير المرغـوب فيـه...

ثـم حمـل محمـود الحقيبـة وتبعهـا إلى الخـارج إلى السـيارة الـتي كانـت في انتظارهـم...

خـرج الجميـع ولـم يبـق غـير عدنـان وكاثريـن، وكيـت وزهـرة اللتان لا تفهمـان شـيئًا ممـا يحـدث في المـنزل... اقـترب عدنـان مـن المقعـد الـذي كانـت تجلـس عليـه كاثريـن، ونـزل عـلى ركبتيـه بقربهـا، وبـدا وكأنـه لا يعلـم مـاذا يقـول أو مِـن أيـن يبـدأ، ثـم أخـذ نفـس عميقًـا،

وقال بصوت متهدج:

لقد أحببت سارة بحق... وما زلت أفعل.

... شيء آخر، سأعود لاصطحاب ابنتي معي.

كمن به جِنة، وفاقد لكل معاني الحياة، ويدرك تمامًا أنه لا يملك لأحد سوى الآلام التي لا يملك سواها، قال عدنان كلماته للمرأة العجوز دون أن يهدئها بكلمة واحدة بعد أن تأكد أنه يجهل كيف يفعل، ما لم يفلح فيه منذ موت الروح في قلبه مع موت من سكنت فيه... واندفع مسرعًا من أمام العجوز كمن يهرب من مطاردة خطيئة... بينما رفعت كاثرين ناظرها إليه لتراه وهو يغادر من أمامها مسرعًا، وفرت من عين العجوز الشامخة دمعة هاربة تودع رحيل ريح ابنتها...

خرج «عدنان» مندفعًا من المنزل ناحية السيارة، التي كانت تنتظر، وكان «محمود» ينتظر خارجها... ركب عدنان في الخلف بجانب «شامية»... وركب «محمود» بجانب السائق ثم انطلقوا إلى حيث الشقة التي يملكها «محمود» في لندن... عندما وصلوا المبنى نزل الجميع من السيارة، ثم وقف «محمود» وصديقه يتهامسان بالحديث، أعطى محمود المفتاح لصديقه، وقال إنه جمع معظم أغراضه... وأنه سيذهب إلى المطار؛ لأنه سيقلع الليلة إلى إسطنبول... وقبل أن يصعد إلى السيارة متجهًا نحو المطار أخرج من جيبه عدد من بطاقات الائتمان، وأعطاها لعدنان... قائلًا:

- حتمًا ستحتاجها...

أخذ «عدنان» البطاقات، وأعطاه رقم القصر الذي كانت

شـامية أعطتـه إيـاه في العـراق، وقـال:

- هـذا رقـم هاتـف القـصر، عليـك أن تحـاول الوصـول لعمهـا... لا أريـد الذهـاب لتركيـا لأجـد المزيـد مـن المشـكلات هنـاك أيضًـا...

- حسـنًا، لا تقلـق سـأهتم بالأمـر... ولكـن أخـبرني مـاذا تنـوي أن تفعـل، هـل سـتخبرها أن والدهـا قـد مـات؟

- لا أدري، ولكـن حتمًـا لا أريـد أن يطـول بقـائي هنـا... أريـد العـودة لحيـاتي السـابقة، سأسـلمها لعمهـا، وأنهـي كل هـذا...

- ماذا... ولكنها زوجتك الآن...

نظـر عدنـان إلى شـامية الـتي كانـت تقـف بزاويـة المـنزل ويبـدو عليهـا الأسى... ثـم قـال لصديقـه:

- أنـت لا تفهـم، لا وقـت للـشرح... سـنتحدث فيمـا بعـد... لا تنـسى مـا أخبرتـك بـه، سـأنتظر أن تهاتفـني.

- حسنًا، لا تقلق.

ثـم ركـب محمـود السـيارة وانطلـق، واتجـه عدنـان إلى شـامية وحمـل عنهـا الحقيبـة، وأمسـك معصمهـا واتجـه نحـو المصعـد، في مبـنى فخـم مدخلـه مـليء بعلامـات فـن المعمـار الحديـث والأناقـة والـرقي، ولكـن كليهمـا لـم ينتبـه إلى المنظـر مـن حولـه... عندمـا دخـلَا المصعـد اسـتقبلهما عامـل المصعـد بابتسـامة، ولكـن كليهمـا لـم يردهـا للرجـل، عندمـا وصـلَا كانَـا في الطابـق السـابع عـشر، فتـح عدنـان البـاب وأشـار للفتـاة بالدخـول، ومـن ثـم دخـل هـو الآخـر...

بـدت الفتـاة في غايـة الأسى والارتبـاك إلى حـد أنهـا جلسـت عـلى أول مقعـد قابلهـا ولـم تلتفـت إلى الديكـور الفخـم مـن حولهـا، حـتى عدنـان بـدا أكـثر انشـغالًا بهـا مـن الديكـور مـن حولـه... وقـف تفكيره

عنـد أن كلماتـه كانـت ذات وقـع سـيئ عـلى نفسـها، ولكـن الحقيقة أن كلماتـه قتلتهـا مـن الداخـل... حـاول عدنـان تخفيـف وقـع الأمـر عـلى كليهمـا فقـال وهـو ينظـر للشـقة مـن حولـه:

- محمـود طائـر يعشـق التحليـق، في السـماء... حـتى منازلـه يختارها شـاهقة الارتفاع...

لـم تعلـق شـامية عـلى كلامـه، ولـم تقـل شـيئًا، فعلـم عدنـان أنـه لا بـد مـن المواجهـة، فقـال:

- ما قلته أمام كاثرين كان... أنا...

فقطعت شامية حديثه، وانتفضت من مكانها، وسألته بغضب:

- لماذا لم نسافر إلى تركيا مباشرة، لماذا أتينا إلى هنا؟

فرد عدنان بهدوء محاولًا امتصاص غضبها:

- لـم أسـتطع الوصـول لوالـدك عـبر الهاتـف... ولـم أسـتطع الحصـول عـلى إذن السـفر لتركيـا...

- كيف هذا؟ لا يبدو حديثك منطقيًّا...

- اسمعي يا فتاة...أخبرتك أنني سآخذك إلى تركيا، وسـ..

- هـلا توقفـت عـن هـذا! لمـاذا أنقذتـني، لمـاذا تريـد لعـب دور البطـل المغـوار في حـين تجـبرني أنـا أن أكـون أكـبر مشـكلات حياتك...

شـعر عدنـان في حديـث شـامية أنهـا خرجـت عـن كل المألـوف منـذ عرفهـا، وأن الشـجار معهـا لـن تكـون عواقبـه حسـنة لكليهمـا، فقـال:

- أنتِ غاضبة ولا أعتقد أن الوقت مناسب لمثل هذا الكلام...

ثم أدار وجهه لها ليغلق باب النقاش، لكن أوقفه صوتها:

- لـم يحـدث أي شيء مناسـب عـلى أي حـال... لكـن يكفـي إلى هـذا

الحـد ... أفضـل التسـول في شـوارع لنـدن عـلى البقـاء في حياتـك، لا أرغـب بـأن أكـون عبئـا عـلى أحـد...

قالـت كلماتهـا بعنـف شـديد وهمـت بالخـروج، متجهـة نحـو البـاب، ولكـن كلماتهـا دفعـت عدنـان للغضـب الشـديد لحـد أنـه أمسـك بمعصـم يدهـا بعنـف، وجذبهـا بشـدة إليـه... وقـال وعينيـه تستشـيط غضبًـا:

- يكفـي تذمـرًا... نحـن في هـذا معًـا، أخبرتـك مـرارًا أني لـن أسـمح لـشيء أن يؤذيـك ولا حـتى نفسـك... قلـت إنـني سـأعيدك إلى المـنزل، وسـأفعل...

مـن شـدة الغضـب في عينيـه نظـرت الفتـاة، وقـد بـدت مندهشـة لمـا تـراه في عينيـه، فقـد كانـت تلـك المـرة الأولى الـتي يعاملهـا فيهـا بهـذه القسـوة منـذ أن رآهـا... ثـم تابـع حديثـه قائـلًا:

- سـأذهب لإحضـار ابنـتي الآن، فقـط لا تحـاولي إفسـاد الأمـور أكثر مـن هـذا... وانزعـي مـن رأسـك أفـكارك السـامة تلـك، لسـتِ عبئًـا عليَّ أبـدًا... أنـتِ زوجـتي الآن، وأنـا أؤدي واجـبي تجاهـك، وسـأوصلك لبيتـك آمنـة...

زادت كلمـات عدنـان الفتـاة غضبًـا وتوتـر فقالـت، وهـي تـصرخ في وجهـه بصـوت اختلـط بالدمـوع الحارقـة:

- لـم أطلـب منـك ذلـك، لـم أطلـب منـك إنقـاذ حيـاتي، ولـم أرغـب في الـزواج منـك ...

تـرك عدنـان حينهـا يدهـا وتمالـك نفسـه، وغضبـه بعـد أن شـعر أن كلماتهـا تسـلبه كل الحـق في مسـك معصمهـا، ثـم قـال في هـدوء:

- سـأذهب الآن لأحـضر زهـرة، وقريبًـا نصـل لتركيـا، وينتهـي

الأمـر... ويريـح كل منـا الآخـر...

ثـم تركهـا تبـكي، وتراجـع للـوراء وهـو ينظـر إليهـا غارقـة بـين عبراتهـا، ولكـن حـدث مـا لـم يكـن يومًـا يتوقعـه، شيء في قلبـه أراد أن يخبرهـا ... أرجـوك كـوني بخـير... ولكنـه لـم ينطـق بهـا... ولـم يفهـم مـا يحـدث لـه، وكيـف أصبـح قلبـه يحمـل الأمـاني لأحـد غـير راحلتـه سـارة...

وخـرج مـن الشـقة مسرعًـا، ثـم اسـتقل سـيارة أجـرة عائـدًا إلى منزل كاثريـن... وعندمـا وصـل المـنزل فتحـت لـه «كيـت» البـاب وقـد بـدا عـلى وجههـا الغضـب الشـديد... ولكـن عدنـان نظـر إليهـا ولـم يعتـد لنظراتهـا التهديديـة، كجنـدي يائـس مـن كل المحـاولات، فتجاهـل إنـذارات الاتهـام، دخـل عدنـان المـنزل وبـدأ ينـادي ابنتـه:

- زهرة...

فقالت كيت ساخرة:

حسنًا حسنًا!! لقد تزوجت إذن!!

فتجاهلها عدنان وتابع النداء على ابنته:

- زهرة...

فقالـت كيـت وقـد اسـتعدت لإطـلاق كافـة كلماتهـا الـتي تشـبه الرصـاص الحـي بوجـه عدنـان:

مـا الداعـي لمنـاداة زهـرة؟! لا تناديهـا... أنـت لا تريدها أن تسـمعني عندمـا أخـبرك أنـك لسـت مرحـب بـك في بيـت أبي بعـد الآن، أتريـد ذلك!!

لم آتِ لأبقى، أتيت لاصطحاب ابنتي.

اه حقًّـا!! الآن تذكـرت أن لـك ابنـه... حسـنًا هـي لـم تعـد ابنتـك

بعـد الآن، لا يمكنـك حـتى أن تحلـم باصطحابهـا بعيـدًا!!

انتبهي لحديثك، لقد أتيت لاصطحاب ابنتي، وسأفعل.

حقًّـا هـل تنـوي إذن أن تجبرهـا أن تتبعـك إلى بلـدك، لـكي تلقـى حتفهـا كمـا حـدث مـع أمهـا.

فطنـت المحاميـة الإنجليزيـة كيـف تنقـض عـلى فريسـتها، وتجعلهـا تخـرج كافـة مـا لديهـا عندمـا توصلهـا لأقـصى غضبهـا، في حـين تحافـظ هـي عـلى هدوئهـا التـام ونـبرة صوتهـا المنخفضـة... حيـث صرخ عدنـان غضبًـا:

كيت!!

ماذا!! هل ستقتلني الآن.. أليس هذا ما تعلمته في بلادك!!

كانـت كيـت قـد تخطـت كل الحـدود في حديثهـا مـع عدنـان إلى حـد أن كاثريـن لـم تحتمـل سـماع كلمـة أخـرى في الجـدال بينهمـا، فطرقـت الأرض بعصاهـا بشـدة ثـم قامـت المـرأة العجـوز ناهضـة عـلى قدميهـا... وقالـت كلمـة الفصـل:

كيـت!! لقـد لفظـتي لتـوك مـا ليـس لـك الحـق في قولـه، يكفـي الآن.. أنـا لا أسـمح لـكِ بكلمـة واحـدة أخـرى!

ثم نظرت إلى عدنان بغضب، وقالت:

وأنـت!! اذهـب وأصلـح حياتـك أولًا ومـن ثـم تعـال لاصطحـاب ابنتـك، لـن أسـمح لـك باصطحـاب الفتـاة إلا بعـد أن أشـعر أنـك مسـتعد لذلـك!! وإلى ذلـك الحـين سـتبقى زهـرة معـي.

نظر عدنان إلى كاثرين، وبدأ بالقول:

ولكن.. كاثرين.. أنا.

فقاطعت كاثرين كلماته وقالت بحدة أقوى:

أنـت لسـت مسـتعدًّا لاصطحـاب الفتـاة، اذهـب وأعـد نفسـك جيـدًا، ومـن ثـم تعـال لاصطحابهـا، لا أريـد أن أمـوت قبـل أن أرى زهـرة برفقتـك.

بحكمـة بالغـة أنهـت المـرأة السـتينية الموقـف والجـدال، حكمـة لـم يفطـن لهـا حـتى عدنـان في وسـط موجـة المشـكلات والغضـب الـتي انسـاق إليهـا... ولكـن كلمـات كاثريـن جعلتـه يطمـئن إلى بقـاء ابنتـه معهـا... في الأسـفل كان الشـجار بـين الأب والخالـة، وفي الأعـلى كانـت الابنـة تجلـس في ذعـر في زاويـة غرفتهـا... وصعـد عدنـان ليودعهـا، فـإذا بابنتـه جالسـة في زاويـة مظلمـة في الغرفـة ترتجـف مـن شـدة الخـوف، فـأسرع إليهـا يمـد يـده نحوهـا لعلهـا تهـدأ، ولكنهـا رفضـت حـتى النظـر إليـه بعـد أن نكـث وعـده لهـا بالبقـاء بقربهـا، فقـال لهـا أبوهـا:

- سأعود من أجلك... وفي المرة القادمة حين آتي سآخذك معي...

ثـم خـرج مسرعًـا مـن غرفتهـا، إلى الخـارج وهـي تودعـه بدمـوع الخـوف... ونـزل إلى الأسـفل لتودعـه كاثريـن بعيـون الحسرة، وكيـت بعيـون الحقـد...

غـادر عدنـان مـنزل كاثريـن منكـس الـرأس... ثـم عـاد في سـيارة الأجـرة نفسـها إلى شـقة محمـود... لكـن الإيقـاع الصاخـب للأحـداث لـم يكـن ليهـدأ بعـد... عندمـا وصـل عدنـان الشـقة، لـم يسـتطع أن يجـد شـامية فيهـا، نـادى عدنـان اسـمها كثـيرًا ولكـن دون جـدوى... في تلـك اللحظـة شـعر عدنـان بـشيء غريـب يحـدث لـه، كأن هنـاك شـيئًا أكـبر يربطـه بهـذه التركيـة... في تلـك لحظـة خفـق قلبـه بشـدة، وكأنـه كان يخـشى أن يفقدهـا، فـدون أن يـدري إذا بـه يخـرج

باحثًا عنها وعيونه تنطق بالخوف كطفل صغير أضاع أمه بين الزحام... كل هذه المشاعر وكل هذا الخوف، كانت أكبر من أن يشعر بها المرء تجاه شخص لا يعنيه...

خرج عدنان باحثًا عن الفتاة في الطرقات المجاورة للمبنى وفي الأماكن القريبة منه والطرقات، ويسأل نفسه أين يمكن أن تكون قد اختفت في مثل هذا الوقت المتأخر، بحث كثيرًا، ولكن دون فائدة كأن ضالته ابتلعها الظلام في شوارع لندن... لم تبهر عدنان ألوان الأضواء المختلفة في شوارع المدينة من حوله... في الواقع لم يستطع أن يرى أضواءها، فقد أظلمت الحياة في عينيه حينها... وأضاءت أنوار أخرى، وراح يتذكر مواقف لقائه بشامية وكأنها تظهر أمامه كومضات من نور... منذ أن اقتربت منه تعبر عن سعادتها بدرسه، إلى رحلته معها من العراق للندن، إلى شجاره معها قبل أن يغادر شقة صديقه... ووقف في منتصف الطريق إلى المبنى لا يعرف كيف سيعود، وماذا سيفعل إن لم يجدها في الشقة؟... تملكت عدنان الحيرة، وشعر في هذه اللحظة أنه خسر كل شيء...

ولأول مرة يلاحظ عدنان هذه اللحظة أنه هو من بحاجة شامية، وليست هي من بحاجته... فهو عندما أقدم على إنقاذها من إيدي المختطفين في العراق، لم يكن يفعل ذلك لأجلها بقدر ما كان يفعله لنفسه... كان بحاجة إلى أن ينقذ تلك الفتاة، كان بحاجة إلى أن يجد سببًا يحيا لأجله، وكانت شامية هي هذا السبب، كان بحاجة لأن يشعر أنه أنقذ حياة... ليعوض عدم قدرته على إنقاذ حياة من أحب... كان يشبه المغامر الذي لا يملك شيئًا يخسره، فقط مستعد للإقدام على فعل أي شيء دون

رويـة أو تفكـير محـاولًا الإجابـة عـلى تسـاؤلات نفسـه ... هكـذا وقـف في منتصـف الطريـق يفكـر في حقيقـة مـا حـدث منـذ أن سـمع صوتهـا في الهاتـف تسـتغيث، شـعر أنـه أراد أن يسـتغل الفرصـة، ويصعـد إلى مركـب نجـاة عـبر محيـط باحثًـا عـن حياتـه فيـه ليعيدهـا إليـه، تـاركًا خلفـه الحيـاة الـتي كان يعيشـها غـير عـابئ بهـا...

وبعـد قليـل عـاود الرجـوع لشـقة صديقـه، وعندمـا وصـل الشـقة، ونادهـا، ولـم تـرد عليـه، وبحـث عنهـا، ولـم يجدهـا تأكـدت لـه ظنونـه أنـه خـسر القـارب في المحيـط ...

عـاد عدنـان للشـقة واجـم الوجـه، كمـن بـه كـرب عظيـم، ويشـعر بضيـق صـدره... فدخـل الشـقة وجلـس عـلى مقعـد مواجـه للشرفـة، الـتي كانـت تغطيهـا سـتائر بيضـاء طويلـة، وبينمـا يجلـس في حـزن شـديد، وقـد اشـتد عليـه ألـم اختفـاء شـامية، وألـم تلـك الشـهامة العربيـة الـتي راحـت تؤنبـه كيـف لـم يسـتطع حمايـة مـن تعهـد بحمايتهـا ...

إلى أن جمعـت الآلام فـوق رأسـه كل تلـك الصعـاب، والمشـكلات الـتي حدثـت وبـدأت تفتـك بـه وتجعـل قلبـه يـنزف الدمـع الـذي لـم يسـمح لـه بالـنزول مـن عينيـه، لكـن نسـمة ريـاح هبـت فجـأة مـن الشرفـة، فلمسـت وجهـه بريحهـا الطيـب، فنظـر إلى الشرفـة ... باندهـاش وشـعر في نفسـه أن نسـمة الهـواء تلـك تدعـوه إلى الشرفة... وكأنهـا تخـبره أن أقبِـل، لـدي مـا يطيـب جراحـك... فذهـب عدنـان إلى الشرفـة منسـاقًا خلـف نسـمة هـواء، وعندمـا اقـترب منهـا، وجـد ضالتـه... كانـت نائمـة عـلى الأرض في الشرفـة، كان لـصراخ عدنـان في وجـه شـامية، ومـا مـرت بـه مـن مصاعـب خـلال اليـوم، أمـر كافٍ ليثـير الذعـر في نفـس الأمـيرة المدللـة، ممـا دفعهـا للجلـوس في زاوية

الشرفة، وانطوت على نفسها لتجهش بالبكاء، حتى عندما نادها عدنان لم ترد عليه بسبب شدة غضبها منه... وتابعت البكاء في صمت إلى أن غرقت في النوم في مكانها، مثل الطفلة الصغيرة...

عندما رأها عدنان نزل على ركبتيه بالقرب منها وكأنه أصابه شعور لم يتحمله، ولم يصدقه... كان شعور بالفرحة الممزوجة بالأمان، ثم بدأ يحدث عقله... لقد أدرك حينها أن الفتاة لم تعد مجرد طالبة في صفِّه يسعى لإنقاذ حياتها... بل أصبحت أكبر من ذلك بكثير...

ثم مكث في مكانه تساوره الحيرة، هل يوقظها من نومها... ثم يعود يحدث نفسه... إنها متعبة فقد كان يومًا صعبًا، جلس برفقتها في الشرفة، لا يدري ماذا يفعل ولا يقدر على أن يزعجها في نومها ... وفي آخر الأمر قرر أن يحملها إلى الفراش... ثم حملها بين ذراعيه للمرة الأولى التي يضمها فيها بهذا القرب منه، كان يظن أن الأمر لن يؤثر فيه... لكن قلبه كان يخالفه الرأي، باقترابها منه تأثر شيء في قلبه، وكأن طبيعة نبضاته لم تعد ذاتها ... ثم أسرع يضعها على الفراش، ويغطيها...

وخرج من الغرفة مسرعًا، وكأنه يخشى شيئًا ما... شيئًا يخشى حدوثه، ولكنه الشيء ذاته الذي لا يمكن توقعه، ولا يمكن ردعه... شعر عدنان في قلبه بتجدد النبضات فيه، فهي ليست نبضات الخوف أو القلق التي اعتاد عليها... بل نبضات تشبه نبضات الحب... ولم يدر إن كان عليه أن يفرح أم يقلق، هل يفرح لأنه أحب زوجته، أم يقلق خوفًا من أن يصدق أنها حقًّا زوجته، وينسى أن الزواج كان لدافع إنقاذها ولابد أن ينتهي... قضى عدنان الليلة على أريكة خارج الغرفة التي تنام فيها شامية،

غارقًا في تفكيره، لا يعرف تفسيرًا لتلك النبضات التي شعر بها، إن كان قلبه ينوي الثورة على اعتكافه بين أطلال سارة، فهل يجد في شامية كنفًا له، أم أنه سيعيد على نفسه جراحًا أخرى لا خلاص من آلامها ...

وفي اليوم التالي دخلت الشمس من نافذة الشرفة التي لم يغلقها بالأمس، لتضيء عينيه لينهض قبل شامية، في حين بقيت الأميرة نائمة في فراشها... إلى أن استيقظت لتجد نفسها في الفراش بدلًا من الشرفة... دون أن تدري كيف، فمن شدة التعب لم تشعر به عندما حملها بين ذراعيه إلى الغرفة...

عندما نهضت من الفراش وغادرت الغرفة، وجدت عدنان يعد طعام الفطور... فوقفت تنظر إليه من مكانها، كيف إن ملامح الجدية تغطي وجهه حتى حينما يعد الطعام... عندما انتبه عدنان لوجودها، شعر بالارتباك بعض الشيء، فهو يعد الطعام بنفسه كنوع من الاعتذار لها عمَّا حدث بالأمس... ولكنها لم تتحدث بكلمة واحدة، ولا حتى هو... فقط دخلت المطبخ لتجلس على طاولة الطعام... رغم أنه لا يجيد الطهي إلا أنه كان حريصًا أن يكون الطعام أفضل ما يمكنه صنعه...

عندما وضع عدنان الطعام على الطاولة بدأت بتناوله فظن أن طهوه جيد، ولكن عندما تذوقه هو، أدرك أنها فقط جائعة... ثم بدأ ينتظرها لتبدأ بالحديث، لكنها لم تفعل... فبدأ هو بالحديث:

- هل أعجبك الطعام؟

توقفت شامية عن الأكل وصمتت برهة ثم قالت:

- إنه... سيئ.

لـم ينصـدم مـن رد فعلهـا، فهـو يعـرف أنـه سـيئ، ولكنـه شـعر أنهـا لا ترغـب بالحديـث معـه... فقـام مـن عـلى الطاولـة يعد الشـاي، لكـن الفتـاة كانـت قـد أنهـت فطورهـا، وقامـت مـن عـلى الطاولـة عائـدة إلى غرفتهـا في صمـت... وقبـل أن تدخـل الغرفـة اسـتدارت، وسـألت عدنـان:

- متى أعود للمنزل؟

لـم يملـك عدنـان ردًّا عـلى السـؤال، وشـعر بالضيـق في نفسـه فهـو لا يـدري مـاذا يخبرهـا، أو مـاذا يقـول؟ ولكنـه عـاد يسـتجمع قـواه، وأخـذ نفسًـا عميقًـا ثـم أطلـق تنهيـدة، وقـال:

- في أقرب وقت نستطيع فيه الذهاب لتركيا...

نظـرت إليـه الفتـاة وقـد بـدا عليهـا أنهـا لـم تشـعر بالارتيـاح لكلماتـه... ثـم دخلـت الغرفـة، وأغلقـت البـاب... شـعر عدنـان بالضيـق فهـو لـم يسـتطع أن يبلغهـا اعتـذاره عمـا حـدث، ولـم يمتلـك الفرصـة حـتى للحديـث معهـا...

دخلـت شـامية إلى غرفتهـا وبسـبب شـدة الضيـق، وشـعورها بقلـة الحيلـة، لجـأت للفـراش هروبًـا مـن التفكـير، كعادتهـا تبحـث عـن الهـروب مـن التفكـير في النـوم...

بينمـا بقـي عدنـان في الخـارج يحتسـي كـوب الشـاي الـذي أعـده... مـرت سـاعات الصبـاح والظهـيرة وكلاهمـا يجلسـان في الشـقة، ولـم تغـادر شـامية غرفتهـا... إلا أن عدنـان كادت الوحـدة أن تذهـب بعقلـه مـن شـدة التفكـير في الهمـوم المتراكمـة عليـه، ولـم يفلـح في الهـروب مـن همومـه كمـا فعلـت شـامية، فـإذا بـه يذهـب إلى غرفتهـا

ويطرق الباب، في أول مرتين دون إجابة، وفي المرة الثالثة فتحت الأميرة الباب، ثم نظرت إليه، في انتظار أن يتحدث، ولكنه أصابه الصمت للحظة، إلى حد أنها اندهشت لماذا طرق الباب إن كان لا يتحدث... ولكنه تدارك الموقف، قائلًا:

- أنا جائع، ولا أجيد الطهو، ما رأيك أن نخرج لتناول الطعام في أحد المطاعم المجاورة؟ إذا لم يكن لديك مانع...

نظرت إليه شامية، وبدا عليها التعجب من حديثه، فأحس عدنان أنها تستغرب الحديث، فقال:

- لا بد أنك مللت من أجواء المنزل... ولا بد أنك أيضًا جائعة، ولا ترغبين بتناول طعام سيئ كالذي أعدتته في الصباح...

- سأتهياء...

ثم أغلقت الباب، ودخلت الغرفة لتستعد للخروج... أخذ عدنان بعدها نفسًا عميقًا، وكأنه قد أنهى تسلق أحد الجبال، فالحديث إليها لم يكن سهلًا كما تخيل... أو لم يعد سهلًا بعد تلك الوخذة في قلبه...

ثم جلس ينتظر إلى أن خرجت من الغرفة، ترتدي الثياب نفسها، فتذكر أن الحقيبة في حوزتها لا تحتوي على ثياب لها... فقرر في نفسه عندما يخرجان أن يشتري ثيابًا لها...

اقتربت من الباب ولم تتفوه بكلمة... فقال:

- هل نذهب؟

- حسنًا...

ثم خرجَا من المبنى يسيرون على أقدامهم في الطرقات، وفي عقل عدنان صراع هل أعتذر، أم لا أعتذر، وإذا أردت الاعتذار

كيـف أفعـل ذلـك؟... بينمـا كان مـا يجـول في خاطـر شـامية شيء آخـر كانـت تتذكـر جولاتهـا في شـوارع إسـطنبول برفقـة أصدقائهـا، وتتسـاءل هـل مـا زالـوا يجوبـون شـواع إسـطنبول بدونهـا؟... ثـم تابعَـا السـير في صمـت إلى أن عـثروا عـلى مطعـم قريـب، انتبـه إليـه عدنـان ولكـن شـامية كانـت غارقـة في الفكـر، فلاحـظ أنهـا لـم تنتبـه لوجـود المطعـم... فقـال:

- ما رأيك أن نتوقف هنا، يبدو هذا المطعم جيدًا...

فالتفتـت إليـه، وأومـأت برأسـها موافقـة... كان مطعمًـا صغـيرًا للوجبـات السريعـة، وكانـت طاولاتـه متوافـرة في خـارج المطعـم، فجلـس الاثنـان إلى أحـد الطـاولات في الخـارج وطلبًـا الطعـام، لكـن شـامية كانـت مـا تـزال تائهـة في التفكـير.

ظـن عدنـان أنهـا غارقـة في التفكـير فيمـا مـرت بـه، ولأنـه يعلـم جيـدًا كيـف تكـون الأفـكار عندمـا يمـر المـرء بـكل تلـك الصعـاب، فحـاول أن يسرقهـا مـن تلـك الأفـكار، ولكنـه لـم يـدري مـاذا يفعـل؟ ولا يسـتطيع أن يتابـع النظـر إلى عينيهـا التائهتـين دون أن يحـرك سـاكنًا... ثـم تذكـر المطعـم الـذي قالـت لـه إنـه أنقذهـا مـن اللـص عندهـا، وتذكرهـا، هـي ورفاقهـا في إسـطنبول عندمـا كانـوا يتحدثـون عـن تحريـر العالـم مـن الفسـاد... وتذكـر أيضًـا كيـف كان حمـاس الفـتى الـذي كان يجلـس معهـم في الدفـاع عـن فكـره... فقـال، محاولًا جـذب انتباههـا:

- أتعلمـين... صديقـك هـذا الـذي كان يدافـع عـن حقـوق المسـتضعفين عندمـا كنتـم في ذلـك المطعـم في إسـطنبول...

انتبهـت شـامية لكلامـه، ولـم تفهـم شـيئًا... وبـدا عليهـا الاسـتنكار، كيـف يعـرف بشـأن معـاذ... ففطـن عدنـان لذلـك، فـأزال الحـيرة عـن

ملامح وجهها قائلًا:

- في تلك الليلة التي تعرضتي فيها للسرقة، لقد قلتِ إنك كنتِ خارجة من المطعم، لقد تذكرت حينها أيضًا أنني رأيتك مع رفاقك فيه، كنت جالسًا إلى الطاولة المقابلة للطاولة التي كنت تجلسين عليها أنت وأصدقاؤك، وسمعتكم تسخرون من ذلك الفتى... الذي كان يتحدث عن حقوق الإنسان... لكني لا أتذكر بما كنتم تدعونه...

- معاذ... اسمه معاذ...

- نعم!! لم أعتقد أن وجهة نظركم صائبة في السخرية منه حينها...

عندها أبدت ملامح الاهتمام لحديثه مما جعله يتابع:

- أذكر جيدًا أنك لم تظهري أي تعاطف مع هذه الفئة من الناس، ولم أفهم كيف؟

نظرت إليه شامية في عينيه ثم أجابته بهدوء، يحمل وراءه نظرة الغضب:

- أمي عراقية، كانت تقول دائمًا إن الإنسان إذا مات واقف على قدميه في وجه الطاغية، فإنه عيب في حقه أن تصرخ النساء في عزائه، أما إذا مات منحني الرأس من الخوف، فليطلق حينها النساء عويلهن... هؤلاء الذين ينتحبون بالدفاع عن ضحايا الحروب، وتقف أعمالهم على عرض صور الضحايا والأشلاء عبر وسائل الإعلام، إن كانوا حقًّا يدافعون عن الحقوق فليذهبوا ليصرخوا بوجه الطغاة في ميادين القتال، فليذهبوا ويصنعوا من أجسادهم دروعًا بشرية، ليحموا من ينددون بالعنف ضدهم...

أنـا لا أعـرف كيـف ماتـت أمـي، لكـني عـلى يقـين أنهـا لـم تخضـع لأحـد...

نظـر عدنـان للفتـاة، وقـد انتابـه الذعـر منهـا للحظـة، فقـد أدرك للمـرة الأولى أنهـا ليسـت أبـدًا الشـقراء المدللـة، بـل إن العراقيـة رقيـة تركـت فيهـا الكثـير... ظـل عدنـان يحـدق في الفتـاة ويعيـد عـلى ذهنـه كل كلمـة نطقـت بهـا... بـدا حديثهـا وكأنـه خليـط مـن الشـجاعة واليـأس والأمـل والخـوف والقـوة والضعـف في آن واحـد، عندها أدرك أن شـامية العشرينيـات مـن أمامـه تحمـل مـن ملامـح الشـام أكـثر مـن مجـرد ملامـح الشـكل، بـل إنهـا تحمـل ملامـح الطبـع أيضًـا، فقـد كان واضحًـا في صوتهـا شـموخ عـزة الشـام، وأصلـه...

اسـتغرق عدنـان الكثـير مـن الوقـت قبـل أن يجيـب عـلى حديـث شـامية... حـتى إنـه أدرك أن رده عـلى كلماتهـا يجـب أن يرتقـي لنفـس المسـتوى.. فعـاد يـرد عليهـا، قائـلًا:

- صديقـك معـاذ هـذا، في الواقـع هـو ليـس صاحـب فكـر بالنسـبة لمـن يقـوده، بـل هـو ثلاثـة أشـياء، صـوت، ودرع، وجثـة...

- ماذا تعني؟

- في الواقـع، إن غالبيـة الجماعـات السياسـية، وتلـك الـتي تدعـي الدفـاع عـن الإنسـانية، إنهـم في الحقيقـة ينظـرون إلى أولئـك الذيـن ينضمـون إليهـم عـلى أنهـم صـوت يرتفـع فيزيـد مـن شـدة الصـوت المطالـب برغباتهـم، ودرع إذا بـدأت المواجهـات اختبـأوا خلفـه، وجثـة إذا انتهـت المعركـة كسـبوا بصورتهـا اسـتعطاف المزيـد...

نظـرت إليـه شـامية، ولـم تعقـب عـلى حديثـه... ولكنهـا بـدت مقتنعـة تمامًـا بـه...

عندما بدأ عدنان الحديث كان يرغب في التخفيف عن شامية عبء التفكير، لكنه نسي أن حياتهما لا يمكن أن تخلوا منه، فكلاهما الألم في داخله أقوى من أن تمحوه بعض الكلمات...

نظر عدنان إلى شامية في أسى وحزن، وعاد يحدث نفسه، من أي عدم خرجت إليه، وكيف لهذه العشرينية أن تحرك في بحيرة حياته الراكدة النبض من القاع، وعاد يتساءل ماذا عن حياتها هي... هل ستكتفي عند موت أمها، وأبيها أم أنها لن تقف عند هذا الحد، وما تزال تخبئ لها المفاجأت، وهل ستكون قوية في مواجهتها كما يراها الآن أم أنها ستتهاوى مع مفاجأت الأيام...

ثم أتى النادل بالطعام، فطلب القهوة له، والليمون البارد لشامية، ثم بدأ كلاهما بتناول الطعام ... وبعد تناول وجبة شهية، أكمل كلاهما اليوم على غير عادة الأيام الماضية، فتركًا المطعم، وتابعًا السير في المدينة، إلى ان دخلًا أحد محال الثياب، واشتريًا ما يكفيهم... ومن ثم خرجًا ليتابعًا السير في المدينة... ويتبادلان الحديث... وبينما يسيران في المدينة سألت شامية:

- أين ابنتك، لماذا لم تحضرها؟

- لم أستطع، ظننت أنه علي أن أوصلك بسلام لتركيا أولًا؟

انتابت شامية لحظة من الصمت، غارقة في التفكير في شهامة الرجل، ثم قالت:

- هل تحب إنقاذ الناس، أم أنك معني بإنقاذي أنا فقط؟!

لم يفهم عدنان سبب سؤالها الغريب... فرد باندهاش:

- اعذريني ولكن لم أفهم...

صمتت شامية لبرهة ثم قالت:

- منـذ أن عرفتـك، وأنـت تكـون دائمًـا موجـودًا عندمـا أقـع في مشـكلة، إليسـت مصادفـة غريبـة؟

- نعـم إنهـا مصادفـة غريبـة نوعًـا مـا، لكـني أعلـم جيـدًا أنـه لـو كان هنـاك أحـد غـيرك في مشـكلة لسـعيت لإنقـاذه أيضًـا...

- حتى لو اضطررت للزواج من فتاة لا تحبها؟

- لا أحبـك... لا أفهـم لـم أكـن حـتى أعرفـك عندمـا زوجتنـا تلـك المـرأة الغريبـة، كيـف أحبـك أو لا...

- هل تفعل الآن...

داهم السؤال عدنان إلى حد أنه أوقف سيره... وقال:

- لقـد كنـت مخلصًـا جـدًّا لزوجـتي سـارة، ومـا زلـت مخلصًـا لهـا حـتى بعدمـا فارقتـني، لا أنكـر أنـه عندمـا وضعـت أمـام شرط الـزواج لأتمكـن مـن إنقـاذك، رفضـتْ أشـياءُ كثـيرة بداخـلي ذلـك، لكـن كان عـلي أن أفعـل شـيئًا كي أضمـن سـلامتك... وقـد أخبرتـك أنـه عندمـا نصـل إلى ديـارك سـأنهي الأمـر برمتـه كي لا تقلقـي... كان عـلي أن أفعل كل هـذا لأنـك إحـدى الطالبـات لـدي لـم يكـن ليهـدأ ضمـيري، لـو كان قـد أصابـك مكـروه في العـراق... خاصـة أنـني سـمعت صوتـك، وأنـت تسـتغيثين... خُيِّـل إليَّ أن ابنـتي مـن الممكـن أن تكـون في مكانـك...

كل هـذا الـرد الطويـل ليهـرب مـن السـؤال الـذي لا يجـرؤ أمـام نفسـه النطـق بـه... ولكـن هـم شـامية كان هـو أنـه مـا يـزال ينطـق بالحقيقـة ذاتهـا الـتي تفتـك بقلبهـا دون أن يشـعر، فهـو لا يصـدق أن فتـاة في العشرينيـات سـتفضله عـلى شـباب سـنها، لكـن الحقيقـة

أن الفتـاة أرادت كثـيرًا أن تخـبره أنهـا تشـعر بالأمـان بقربـه وتتمـنى ألا يذهـب، ولكنهـا كانـت لا تسـتطيع أن تقـول هـذا الـكلام حـتى أمـام نفسـها، ولا تسـتطيع أن تسـمع مـا لـم ينطـق بـه عدنـان، الـذي كان متأكـدًا مـن حديثـه هـذا في بـادئ الأمـر، أمـا الآن وبعـد مـا حـدث بالليلـة الماضيـة، عندمـا ذهـب يبحـث عنهـا كمـن بـه جِنـة، عندمـا اعتقـد أنـه قـد لا يراهـا مجـددًا، فقـد تغـيرت الأمـور كثـيرًا، ولـم يعـد الأمـر مجـرد محاولـة إنقـاذ طالبـة في صـف اللغـة العربيـة لديـه، بـل أصبحـت حمايتهـا سـببًا يعيـش لأجلـه، وأصبـح القـرب منهـا رغبـة في نفسـه... لكـن ينتهـي الأمـر عنـد مشـهد الصمـت ذاتـه الـذي تسـوء في خاتمتـه الأمـور للاثنـين...

إلى أن وجـدَا نفسـهما أمـام المبـنى بعـد أن قادتهمـا أقدامهمـا إليـه...

عندمـا دخـل عدنـان المـنزل كان الهاتـف يـدق، فدخلـت شـامية الغرفـة لتغتسـل وتبـدل ثيابهـا، بينمـا تفقـد عدنـان الهاتـف، فـإذا المتصـل محمـود، فأخـذ عدنـان الهاتـف ودخـل الشرفـة، خوفًـا مـن أن تسـمع شـامية شـيئًا مـن المحادثـة إن كانـت فيهـا أخبـار سـيئة، قـال محمـود إنـه فـور وصولـه لإسـطنبول ذهـب إلى العنـوان الـذي أعطـاه إيـاه عدنـان... وأن الـذي يديـر الأعمـال الآن ويسـكن في القصر هـو السـيد خالـد شـقيق السـيد عمـر، وأنـه عندمـا علـم بـأن ابنـة أخيـه سـالمة آمنـة في لنـدن برفقـة عدنـان، وعلـم بتفاصيـل القصـة كاملـة كمـا سردهـا لـه محمـود أظهـر امتنانًـا شـديدًا لذلـك، ويقـول إنـه يرغـب في رؤيـة ابنـة أخيـه في أسرع وقـت ممكـن...

واتفـق الاثنـان عـلى أن يحجـز عدنـان تذاكـر السـفر لـلأراضي التركيـة كسـائحين كمـا وفـر لـه عمـه التذاكـر كنـوع مـن الدواعـي

الأمنيـة، كمـا أخـبره السـيد خالـد حيـث بـرر ذلـك بـأن حيـاة ابنـة أخيـه معرضـة للخطـر، وأنـه لا يريـد الكشـف عـن هويتهـا إلى بعدمـا تأتيـه سـالمة...، فوافـق عدنـان، رغـم شـعوره بالريـب تجـاه الأمـر...

أغلـق محمـود الهاتـف مـع صديقـه وتركـه حائـرًا... لـم يعـرف مـاذا يفعـل، أو كيـف يشـعر؟ هـل يشـعر بالفـرح لأنـه سـيوصلها إلى منزلهـا بسـلام؟ أم يشـعر بالضيـق لأنهـا سـتفارقه؟... وبينمـا يقـف حائـرًا إذا بالفتـاة تظهـر مـن خلفـه... قائلـة:

- ماذا هناك؟

التفت عدنان إليها، وقال بابتسامة زائفة...

- أخبـار جيـدة، سـنحلق في أقـرب وقـت إلى تركيـا، قـد نسـافر غـدًا، إذا تمكـن محمـود مـن إنهـاء إجـراءات الحجـز...

- حقًّا... جيد، هل تحدثت إلى والدي؟

- في الحقيقـة لا، إنـه عمـك الـذي أجابـني؟ سـتكونين بخـير قريبًـا، لا تقلقـي. والآن دعينـا نسـتريح قليـلًا فأمامنـا يـوم طويـل غـدًا...

ثم انصرف مسرعًا من أمامها كي لا يضطر للإجابة على أسئلتها...

وانصرفـت الفتـاة هـي الأخـرى إلى غرفتهـا... كان كل منهمـا في حال لا تشـبه الآخـر، عندمـا آوت شـامية للفـراش، لـم تـدر هـل تفـرح لأنهـا عائـدة إلى تركيـا، أم تقلـق لأنهـا إلى الآن لـم تسـمع صـوت أبيهـا... لا تطيـق الانتظـار ليـأت الغـد مجيبًـا عـلى أسـئلتها... بينما عدنـان كان في غرفتـه يتوسـل النـوم كي يـأتي، لا يفهـم مـا أصابـه مـن الأرق، يرتخـي عـلى الفـراش ثـم ينهـض مـن مكانـه، لا يفهـم مـا أصابـه مـن مشـاعر المراهقـة الـتي يخجـل منهـا في سـنه هـذا، ويفتـك التفكـير برأسـه، هـل سـتكون بخـير، هـل عمهـا هـذا قلـق بشـأنها حقًّا...

وإن كان كذلك، لماذا لم يرسل خلفها أحدًا لنجدتها من العراق؟ ... ويقول لنفسه، ربما لم يستطع أن يحسن التدبير حينما داهمه انتحار أخيه... ربما لم يتصل به المختطفون بدلًا من أخيه؟... ثم يعود يسأل نفسه، هل حقًّا سأدعها تذهب؟ ماذا سيكون رد فعلها عندما تعلم أنها فقدت أبيها أيضًا؟ ... ويرد على نفسه محاولًا إقناعها... ستكون بخير، ستكون بخير، لن أكون أبدًا أفضل حماية لها بعد أبيها، بل إن عمها هو الأفضل...

هكذا انقضت الليلة دون أن يغمض لعدنان جفن، ويتمنى ألا يأتي الصباح بسرعة حتى يمنحه الوقت فرصة للتفكير أكثر ربما استطاع أن يهدئ نفسه... ولكن أتى الصباح باكرًا... واستيقظت الفتاة في الثامنة، استعدادًا للرحيل... بينما خرج عدنان وقد بدا على مظهره أنه لم يذق النوم... ثم استقلى على أريكة في صالة المنزل... قالت الفتاة:

- ما الأمر، هل أنت بخير؟

نظر إليها عدنان ليجيبها، لكنه لم يكد يفعل، حتى دق هاتفه، ففزع من مكانه بقوة، والتقط الهاتف بسرعة:

- ألو...

- ألو عدنان، اسمعني جيدًا، ستقلع طائرتك لإسطنبول غدًا في العاشرة صباحًا، لقد أتممت عملية الحجز لكما في رحلة سياحية كما اتفقنا... وعندما تصلان للمطار في إسطنبول سيكون في انتظاركما سيارة مرسلة من قبل السيد «خالد»...

- نعم، نعم...

- كيف تسير الأمور عندك؟

- بخير... بخير تمامًا...

- حسنًا، وماذا عن زهرة؟

- سأخبرك حينما نلتقي...

- حسنًا، أراك قريبًا، سأكون في انتظارك ...

- حسنًا، وداعًا...

أنهى عدنان المكالمة، وقد أدرك أنه أمامه يوم آخر ليقضيه برفقة شامية، فانتابه الارتباك مجددًا، إلى حد أنه أصبح عاجزًا عن إدراك ما يريده، لم يستطع النوم في الليل؛ لأنه كان يدرك أنها ستفارقه وتعود لحياتها، والآن وقد منحه القدر الفرصة أن يقضي معها يومًا آخر لا يدري ماذا يفعل، ويشعر بالارتباك بقربها...

لم يعجب عدنان شعور الطفل الحائر في داخله، الذي لا يدري ماذا يفعل، بينما شامية التي لاحظت عليه التوتر، انتقل التوتر أيضًا لقلبها... فسألته:

- هل هناك خطب ما؟

- لا أبدًا...

- من كان على الهاتف...

- إنه محمود يخبرني أنه حجز لنا الطيران غدًا إلى تركيا...

- ألا يعلم والدي أنني هنا؟

رد عدنان بسرعة محاولًا تغيير الحديث...

- في الواقع لا أدري لم يطلعني محمود على كافة التفاصيل...

فقد كان في عجلة من أمره، يبدو أننا سنقضي يومًا آخر هنا، ما رأيك أن نخرج لنتمشى كما فعلنا بالأمس، سأستعد للخروج دعينا نتمشى قليلًا...

جعلت كلمات عدنان الشك يزيد في قلب شامية، فقالت بينما يدير وجهه باتجاه غرفته:

- هل تخفي عني أمرًا ما؟

ازداد قلق عدنان، وشعر بقلبه يخفق بشدة، هل يخبرها الحقيقة أم لا، فعزم أمره أن يفعل، ويخبرها أن والدها قد مات هو الآخر...

لكن عندما استدار ليخبرها، ونظر في عينيها الحائرة، لم يستطع أن يفعل، لم يستطع أن يزيد الحمل على عينيها الملأى بالأسى، فقط نظر إليها، وقال:

- لا أفعل... أريدك فقط أن تعلمي أنني أبذل قصارى جهدي لأوصلك إلى منزلك آمنة.

حاول عدنان أن يطمئن الفتاة لكن حديثه قد زاد من حيرتها فعادت تسأل:

- إن كان والدي يعلم أنني هنا، فلما لم يرسل طائرته لتقلني؟

- صدقيني، أنا لا أملك أجوبة لأسئلتك. ولكن أريدك أن تطمئني ستكونين بخير، عليك أن تثقي بي.

قال كلماته ثم ذهب من أمامها إلى الغرفة، هروبًا من حديثها، وخوفًا من أن تزداد الأمور سوءًا...

ظنت شامية أنه دخل الغرفة ليهيئ نفسه للخروج كما قال، لكنه بعدما أنهكه الفكر كان قد نسي أنه طلب منها الخروج،

وسلم رأسه للنوم بمجرد دخول غرفته... بينما تهيأت شامية للخروج، وظلت تنتظره خارج الغرفة، وراح الوقت يمر والغامض لا يغادر غرفته، فقامت تطرق بابه الذي انفتح أمامها بمجرد وضع يدها عليه، فهو لم يغلقه خلفه، لتجده نائمًا في سبات عميق، فوقفت تنظر إليه، وهو غارق في سباته... تريد أن توقظه ولا تستطيع، فقد كان غارقًا في نومه وكأنه لم ينم منذ فترة طويلة.... وقفت حائرة لا تعرف كيف تخبره أنها جائعة، وأرادت أن توقظه، لكنها تراجعت عن الفكرة، وقررت الدخول إلى المطبخ لتعد شيئًا، إن كان طهو عدنان سيئًا بعض الشيء، فالفتاة لا تدري أي من شئون الطهو، فقد اعتادت أن تجلس إلى مائدة الطعام كالأمراء ثم يجوب الخدم حولها بمختلف أصنافه، أما أن تعد الطعام فلم تجرب هذا حتى في حياتها... حتى إن المطبخ أصبح بالنسبة لها أصعب من صف الفيزياء الذي كانت تتهرب منه... وبينما تقف فيه تحاول التعرف على أي شيء فيه بخلاف الخضر والفواكه التي اعتادت أن تتناولها من باعة الشوراع مع أصدقائها في أحياء إسطنبول الفقيرة لا تفقه أي شيء، وبينما هي على حالها تحاول إشعال الموقد، إذا بعدنان قد استفاق من غفوته بعد أن أيقظه صوت الضوضاء في المطبخ، عندما رآها في المطبخ، وهي لم تلحظه، قال بصوته الذي كان أشبه بزئير الأسود:

- مرحبًا...

ولشدة انشغالها بكيفية إشعال الموقد، فوجئت عندما أطلق الرجل صوته، فصرخت صرخة مدوية، وألقت ما في يدها من أشياء على الأرض من شدة الفزع... لم يفهم عدنان سبب فزعها

في بـادئ الأمـر، لكنـه عـاد يتذكـر أنهـا ربمـا تفاجـأت بوجـوده، فقـال:

- آسف، لم أقصد إخافتك...

نظـرت إليـه الفتـاة وهـي تحـاول التقـاط أنفاسـها وثـم أطلقـت تنهيـدة الاطمئنـان، وقالـت:

- لا عليك...

- ماذا تفعلين؟

أجابت وهي تتذمر كالأطفال:

- أشعر بالجوع، ألم تقل إننا سنخرج...

- نعـم أعتـذر، فقـد غلـب عـلي النـوم؟ حسـنا دعينـا نخـرج، سـأتهيأ حـالًا...

- حسـنًا، ولكـن أرجـوك حـاول ألا تغفـو هـذه المـرة، فأنـا جائعـة جـدًّا...

ابتسم ابتسامة خفيفة، وقال:

-لا تقلقي لن أفعل...

ثـم ذهـب يتهيـأ واسـتعدَّا للخـروج معًـا، وبعـد قليـل غـادرَا المبـنى متجهـين إلى المطعـم الـذي تنـاولَا فيـه الطعـام بالأمـس، كانـت الحـال في لنـدن غـير كل تلـك الأحـداث الـتي سـبقتها، كلاهمـا شيء مـن ألـوان البهجـة عـاد لحياتـه، كانـت تلـك ألـوان أضـواء الحـب الـتي أعـادت للحيـاة معـنى، فأضـاءت تلـك الأماكـن المظلمـة في قلـب كل منهمـا، ليـس هـذا وحسـب، بـل علمتهمـا كيـف يضيئًـا تلـك الألـوان، حـتى في أكـثر الأوقـات ظلامًـا...

بعـد أن أنهيَـا الطعـام كمـا فعـلَا بالأمـس قـررًا أن يكمـلَا طريقهمـا

سيرًا بلا وجهة... تمامًا، كما كان كلاهما يفعل بإسطنبول... ولكن الفرق هذه المرة بالنسبة لعدنان هو أنه لا يسير وحده، ولا يسير ورأسه منكس، ووجهه مكتئب... وبالنسبة لشامية، لا تسير برفقة أصدقائها، إلا أنها تشعر بسعادة تفوق تلك التي كانت تشعر بها عندما كانت تسير برفقة أصدقائها...

أثناء سيرهما وصلَا إلى بوبات إحدى الحدائق فقررَا الدخول، وبدآ السير بين طرقاتها، وتبادل الأحاديث، قالت شامية:

- هذه الأشجار رائعة...

- نعم ولكنها ليست بجمال أشجار أتاتورك...

- هل كنت تكثر من زيارة أتاتورك؟

- نعم لقد كان المكان المفضل لي في إسطنبول.

- هل أعجبك أكثر من حدائق بابل التي كانت في العراق، كانت أمي تقول إن الطبيعة في العراق لها طابع خاص ومميز...

- لا شيء في العالم يضاهي جمال بابل، ليس هناك حتى إمكانية لمقارنة بابل بأي مكان، إنها الجنة على الأرض بالنسبة إليَّ...

- هل تقصد قبل تعرضها للدمار...

- لا، بل والآن أيضًا...

- الآن، أنت تتحدث عن منطقة مدمرة ليس فيها أي شيء يدعو للجمال.

عندما قالت شامية كلماتها كانَا قد اقتربَا من إحدى المقاعد في الحديقة، فدعاها عدنان للجلوس، ثم أجابها قائلًا:

- إن الأوطان تشبه الأمهات الوفيات، تعطينا كل ما تملك ما دامت قادرة على ذلك، هل إذا أصابها مرض ما تخلينا عنها، وقلنا إنها لم تعد قادرة على العطاء، بالطبع لا، أنا عراقي عربي، وليست الخيانة من طباعي... ألم تخبرك أمك العراقية عن طباع العرب...

- ظننت أن هذه الطباع لم تعد بعد موجودة في العرب...

- لا يمكن أن ينتهي شيء إلى العدم، صدقيني... في نفس كل عربي، شيء عربي...

- اعذرني ولكن لم أفهم...

- أنتِ ما تزالين صغيرة، اعتاد صديقي محمود أن يفهمني على الفور، فهو يفهم قصدي قبل أن أتحدث...

بدت علامات الاستياء على وجه شامية، فقد اعتقدت أنه يسخر من عقلها، وهذا لا يتناسب مع فتاة العزة الشامية... فأحس عدنان فيها الضيق من حديثه، فضحك ضحكة خفيفة، وقال:

- لا عليك أنا أمازحك، ما قصدته بكلامي، هو أنه رغم كل ما يظهر على أبناء الوطن العربي الآن من علامات السوء، إلا أن الحقيقة التي لا يمكن أن تمحوها الأيام، أو الأحداث هي أنهم عرب، والعربي سيد يرفض الذُّل، مهما أجبرته الظروف على إخفاء طباعِه فهي حتمًا غالبة عليه...

نظرت شامية إلى الرجل اللغز من أمامها، هي لا تفهم، إن كان مجرد رجل عادي مستسلم لمصاعب الحياة، أم مقاتل يحارب مشاعر اليأس في داخله ليحافظ على هيبته، هل هو رجل

مهـردل كمـا يبـدو مظهـره، أم سـيد أنيـق الفكـر والـروح، هـل هـو فوضـوي، أم إن كل شيء في حياتـه يـسري بنظـام... كيـف يمكـن أن يكـون شـيخًا وطفـلًا في الآن ذاتـه، كيـف يجمـع في رجـل واحـد حكمـة الهـرم، وفوضويـة الطفـل...

كل تلـك الأمـور وأكـثر كانـت تجعـل قلـب الفتـاة، يتمسـك بـه أكـثر فأكـثر... حـتى إنهـا لـم تفكـر قبـل أن تطـرح عليـه سـؤالها التـالي:

- حدثني عنك؟

بمجـرد أن سـمع السـؤال، مـرت أمـام عينيـه كل ذكريـات ماضيـه المؤلـم، وحـاضره الأصعـب... فاسـتغرق برهـة مـن الوقـت قبـل أن يـرد عليهـا، ثـم فعـل:

- ما الذي تريدين أن تعرفيه، أكثر من الذي تعرفينه الآن؟

- أريـد أن أعـرف أكـثر عنـك، تبـدو لي لغـزًا محـيرًا، والأكيد بالنسـبة إليَّ أنـك أكـثر الرجـال شـهامة على وجـه الأرض...

نظر عدنان إليها، ثم وجه نظره صوب الأرض في حزن، وقال:

- حسـنًا، أنـا رجـل عـادي جـدًّا، ولـم أرغـب يومًـا في أن أكـون أكـثر مـن رجـل عـادي... فقـط أردت أن أحيـا أنـا وزوجـتي في أمـن وسـلام، لـم أرغـب في أن أكـون أكـثر الرجـال شـهامة عـلى وجه الأرض بالنسـبة لأحدهـم... أردت أن أحيـا بكرامـة، وسـلام لا أكـثر...

شعرت شامية بالأسف لأنها طرحت السؤال، فقالت:

- لم أقصد أن أزعجك...

فأخذ عدنان نفسًا عميقًا محاولًا تلطيف الأجواء ثم قال:

- لا عليـك، لـم انزعـج كثـيرًا... والآن دورك أنـتِ، تحـدثي عنـك قليـلًا؟

- هل أنت مهتم؟

أجاب عدنان بصوت متوتر:

- ماذا!! لقد طرحت عليَّ السؤال، ففكرت أن أعيده، لا أكثر؟

- إذا، أنت لست مهتمًّا؟

- لا أفهم قصدك، هل تشعرين أنه ليس عليك أن تخبريني عن حياتك، إن كان كذلك فلا بأس...

- لا أبدًا... الأمر ليس كذلك، ولكن عندما سألتك كنت أرغب في معرفة المزيد عنك، أقصد عن زوجي...

صعقت الكلمة عدنان الذي لم يفهم شيئًا مما يحدث، هل صدقت الفتاة أنها زوجته حقًّا، كان الأمر برمته محاولة لإنقاذ حياتها لا أكثر... فسألها:

- هل تفضلين زوجًا يكبرك بما يقارب العشرة أعوام، عن زوج أفضل قريب من سنك العمري؟

عاد إلى القصة نفسها وشعرت أنه، سيعيد سرد ما سيحدث أنهما سينفصلان فور وصولها للمنزل آمنة... فأجابت سؤاله الأول كي لا تبعده عن الحديث بشكل يزعجها:

- دعني أحدثك عني... بالنسبة إلى فتاة مثلي اعتدت أن أكون أميرة في قصر أبي، صديقة طائشة برفقة أصدقائي، وفتاة هائمة في صف الفنون، وقطة مدللة بين يدي أمي، فإني ومن هذه الصفات أفضل أن أكون زوجة لشخص أشعر برفقته بأنني بخير...

كانت كلمات الفتاة تحمل تصريحًا بالغًا عن ارتياحها لفكرة الزواج من عدنان، لكن عدنان نفسه لم يصدق أبدًا ذلك، إلى

أن طلبت طلبها التالي:

- أريد أن أطلب منك شيئًا؟

- ما هو؟

- أريدك أن تصطحبني إلى عشاء رومانسي، بصفتي السيدة شامية عدنان الأحمد... ولو لليلة واحدة، كما تعلم غدًا نصل إسطنبول وينتهي الأمر برمته هناك، وتذهب في طريقك، وأكمل أنا حياتي... ولكني أريد أن أجرب هذا الشعور، أن أكون زوجة لرجل نبيل على عشاء رومانسي...

كالعادة صعق من حديثها الذي لا تنفك تداهمه به، ولكن هذه المرة كان كلامها طائش ومجنون، وفي كل الأحوال هو لن يرفض آخر طلب لها منه، هكذا برر لنفسه سر رغبته في الموافقة على طلبها...

- طلبك هذا، غريب جدًّا...

- نعم أعرف...

سكت عدنان لبرهة يفكر في كلامها ثم قال في نفسه، غدًا تذهب لموطنها، وينتهي هذا الزواج، وتكمل حياتها، لن يضر الأمر في شيء، مجرد عشاء على طاولة فخمة في إحدى الفنادق... فقال:

- حسنًا، لكِ ما طلبت...

- جيد، والآن دعنا نذهب لشراء ثياب للسهرة...

- حسنًا كما تريدين...

ثم غادرا المتنزه متوجهين إلى إحدى المحال لشراء الملابس، وقرر كلاهما أن ينفذا الفكرة بكل ما فيها من جنون، بعيدًا عن

كل تلك المشكلات التي تطوق عنق كل منهما، اختار عدنان بِزَّة أنيقة، بعد أن كان قد نسي كيف يرتدي زيًّا رسميًّا أنيقًا... في حين اختارت شامية فستان سهرة قصير وهو الأمر الذي لم يعجب العراقي الغيور... فقال:

- إن كنت تنوين تناول العشاء برفقتي بصفتك زوجة لي، فأنا لست متأكدًا أنني قد أسمح لزوجتي بارتداء فستان يظهر مفاتنها كهذا...

- ماذا، ألا يعجب الرجال أن تكون زوجاتهم أجمل النساء في الأماكن التي يذهبون إليها...

رد عليها عدنان وهو يأخذ الفستان من يدها ليعيده لمكانه، قائلًا:

- الذي يعجب الرجال، أن تكون زوجاتهم مصانة من عيون الذكور الآخرين، دعينا نبحث عن فستان آخر سيكون أفضل من هذا...

ثم بدأ يبحث معها إلى أن وجدَا فستانًا لا يبدو أنيقًا جدًّا لكنه مرضٍ بالنسبة لعدنان، فهو لا يظهر مفاتنها، كالآخر... واقتنعت شامية أيضًا به لأنه أعجب عدنان...

بعد أن دفع ثمن الملابس... اكتشف عدنان أن المال المتبقي بحوزته لن يكفي لحجز طاولة في مطعم فخم، ولكنه لم يخبر شامية، بذلك... بل اكتفى بحجز طاولة وعشاء في مطعم بسيط في المدينة...

ثم عادا معًا للمنزل يستعدان للخروج، ودخل كل منهما غرفته يتهيأ، كان الأمر صعبًا بالنسبة لعدنان فهو لم يدر ماذا يفعل؛

إذ لـم يتهيـأ لمناسـبة مثـل هـذه منـذ أن رحلـت زوجتـه، فقـام بتقصير ذقنـه قليـلًا، وارتـدى ثيابـه، وعندمـا جـاء دور رابطـة العنق، تذكـر كيـف كان ربطهـا يسـتغرق وقتًـا طويـلًا كل مـا خـرج برفقـة سـارة، فكانـت تـسرع إليـه تعدهـا لـه ... فشـعر بالاسـتياء وقـرر الخـروج بدونهـا، وغـادر غرفتـه لينتظـر خـروج الأمـيرة منهـا... وكاد الليـل ينقـضي، وهـي لـم تغـادر غرفتهـا بعـد، اتصـل عدنـان ليؤكـد حجـز الطاولـة في المطعـم، وبينمـا يتحـدث في الهاتـف، خرجـت الأمـيرة الجميلـة مـن غرفتهـا، ولكنهـا هـذه المـرة ليسـت أمـيرة جميلة بـل ملكـة فاتنـة... إلى حـد أن عدنـان لـم يسـعه أن ينطـق بكلمـة سـوى التحديـق بجمالهـا... فـأي كلمـة في وصـف الجمـال الـذي يـراه، لـم تكـن لتجـدي نفعًـا...

قالت الحسناء الشامية:

- هل نذهب؟

فأجاب المأخوذ بالمنظر من أمامه...

- نعم طبعًا... هيا تفضلي....

- هل ستذهب هكذا؟

- ماذا تعني؟

- ألم نشتري رابطة عنق؟

- بـلى فعلنـا، ولكـني لـم أرغـب في ارتدائهـا، في الواقـع يصعـب عـليَّ ربطهـا، فقـد مـر وقـت طويـل منـذ آخـر مـرة لبسـت فيهـا زيًّـا رسـميًّا...

- حسنًا دعني أربطها لك، ستبدو أنيقًا بها...

لـم يسـتطع أن يخبرهـا أنـه لا يرغـب بـأن يضـع لـه رابطـة العنـق

أحـدٌ غـير زوجتـه الراحلـة، فقـد أرادهـا فقـط أن تسـتمتع بوقتهـا، فقـال:

- كما تريدين، سأحضرها...

ثـم أحضرهـا، وأعطاهـا لهـا... وبـدأت تربطهـا لـه، فـراح ينظـر إليهـا مـن الأعـلى، ويتذكـر كيـف كانـت سـارة تربـط لـه رابطـة العنـق، ولكنـه لـم يسـتطع أن يـرى سـارة في شـامية، فقـد كانـت الفتـاة كيانًـا قائمًـا بذاتـه، مـن الصعـب الخلـط بينهـا وبـين سـارة، وإن كان عدنـان قـد أحبهـا، فهـو أحبهـا لأجـل كونهـا شـامية، وليـس لأنهـا تشـبه سـارة في شيء...

وبعدمـا انتهـت، فـإذا بهـا تـرى الوسـيم عدنـان الأحمـد رجـلًا أنيقًـا في بِـزَّة سـوداء مـن الطـراز الرفيـع، ورابطـة عنـق أنيقـة، لكنهـا لـم تكـن مأخـوذة بمظهـره فقـط، بـل كانـت مأخـوذة بكونـه رجـلًا يحمـل معالـم الأناقـة مـن الداخـل والخـارج...

فقال عدنان:

- هل نذهب؟!...

فنظـرت إليـه شـامية بـشيء مـن الاندهـاش وبـدت الحـيرة في عينيهـا، وقـد بـدا عليهـا أنهـا اسـتفاقت فجـأة مـن وهلـة الغفلـة... فسـألت:

- لماذا توافقني على أن نفعل هذا؟

- ماذا تقصدين؟

- تبـدو رجـلًا عاقـلًا، مـا الـذي يجعلـك توافـق عـلى طلـبي في اصطحـابي للعشـاء؟

- أنـتِ ذكيـة جـدًّا، معـكي حـق لقـد اندهشـت جـدًّا لطلبـك عندمـا

أردتني أن أصطحبك للعشاء، ولكني وافقت... يمكنك القول إنني أريد الاعتذار عما حدث عندما أتينا إلى هنا، أعني ما حدث في منزل كاثرين، والشجار عندما حاولت الخروج إلى الشارع، أريد أن أقدم الاعتذار، ولكني لست بارعًا في قول كلماته؛ لذلك فكرت أن أوافق على طلبك، كنوع من الاعتذار عمَّا حدث...

- ولكن...

كانت شامية على وشك طرح المزيد من الأسئلة، والتي يخشاها عدنان في كل مرة...فقطع كلامها قائلًا:

- ظننتك تحبين الاستمتاع بوقتك أكثر من طرح الأسئلة... هل نذهب ؟

ابتسمت شامية، وقد أعجبها الحديث... ثم أمسكت بذراعه لأول مرة ليس بغرض الاحتماء بل للشعور بالدلال، كان كل شيء مرتب ومعد، فالسيارة التي طلبها عدنان، تنتظر أمام المبنى، والسائق يعرف وجهته، والطاولة مهيئة وعليها الشموع المضاءة... وبمجرد دخول المطعم ، كان كل شيء مجهز كما طلبه عدنان... الموسيقى الهادئة انطلقت عند قدوم الأميرة التركية، وبكل ذوق سحب عدنان مقعدها برفق لتجلس عليه، ثم وقف يفتح أزرار بِزَّته الأنيقة وجلس على المقعد المقابل لها...

كان كل شيء مهيأ، ومعد جيدًا، سوى شيء واحد، شامية وعدنان... حتى لو كان كلاهما قد بدا مهتمًّا بالآخر، فقد كانت أهم حلقة ما تزال مفقودة، وهي أن يعلم كلاهما بذلك... فمن طرف الانثى تخشى أن تصدق أنها في عشاء رومانسي برفقة زوج يحبها، ومن ناحية الرجل، يخاف حتى أن ينظر إليها فيفتن بجمالها، وهو يعتقد أنها بعيدة كل البعد عنه، فيبقي

نظره بعيدًا هنا وهناك، وقليل ما تتجه نظراته إليها، فانشغل بإبعاد نظره إلى حد أنه نسي أنه في أمسية شاعرية برفقة الأميرة الجميلة...

ثم يأتي النادل بالطعام، ويضعه على الطاولة بذوق، ثم يقول إن مشروبات الليلة مقدمة هدية من المطعم... ويحاول فتح زجاجة مشروب الفودكا، فيوقفه عدنان قائلًا:

- oh، hold on please … actually، we don't need this

-thank you …

- as you wish my lord …

ثم انصرف النادل متعجبًا من طلب الرجل الغريب، كيف تكون أمسية شاعرية بدون المشروبات الروحية... هذا بالنسبة إلى نادل إنجليزي، بينما على الطاولة كان الأمر طبيعيًّا... ثم بدأ عدنان الحديث قائلًا:

- المكان هنا ليس أفخم الأماكن في لندن، لكنه جيد... والموسيقى أيضًا جيدة...

- بل إنه جيد جدًّا بالنسبة إليَّ، يكفي أنك اهتممت بطلبي، وقد يبدو أنك بذلت قصارى جهدك لفعل ذلك، فلا أظنهم يقدمون المشروبات مجانًا لكل الطاولات...

أمسك عدنان الشوكة والسكين، واستعد لتناول طبقه وبينما يقطع اللحم من أمامه وينظر إليها، رد قائلًا:

- نعم لقد أخبرتهم أني أريد الاحتفال بزواجي... لكي يزيد اهتمامهم بالأمسية.

عندما سمعت شامية الرد بدأت هي الأخرى تتناول الطعام،

وقالـت:

- ولكن لماذا رفضت المشروب، ألا تحتسي الكحول؟

- لا، هل تفعلي؟

- لا، ولكن لا أخاف من تجربة الأشياء الجديدة...

منـاورة جيـدة مـن الأمـيرة في التباهـي بطاقتهـا العاليـة، لكـن كان رده عليهـا أكـثر روعـة... إذ لـم يغضـب أو يثـور، بـل ابتسـم ابتسـامة خفيفـة، ثـم قـال:

- جيد...

- ما هو الأمر الجيد؟

- أنك لا تخافين تجربة الأشياء الجديدة...

- ماذا تقصد؟

- لا شيء، جيد أنك لا تخافين تجربة الأشياء الجديدة...

أحست شامية في نبرة صوته السخرية، فقالت بصوت هادئ:

- أتسخر مني؟

فضحـك عدنـان، لأول مـرة منـذ أن عاهدتـه الفتـاة، الوسـيم الجـاد يضحـك، ربمـا كانـت تلـك المـرة الأولى منـذ زمـن طويـل... ثـم قـال:

- أنتـم، معـشر الشـباب، تظنـون أن البطولـة تكمـن في عـدم الخـوف مـن أي شيء، فتنسـبون كل أفعالكـم إلى جملـة «أنـا لا أخـاف»... مـا المخيـف في احتسـاء كأس أو اثنـين مـن الخمـر، لـن يضر الأمـر في شيء، لكـن الفكـرة في إيمانـك بذاتـك، إن إيمـان المـرء بذاتـه ينبـع مـن إيمانـه بمعتقداتـه وعقائـده، إنهـا تشـبه قواعـد محـددة

لحياتـه، وكلمـا زاد تمسـك المـرء بتلـك المعتقـدات زاد تمسـكه بهويتـه ورضـاؤه عنهـا...

- ما الأمر الممتع في كون الرجال معقدين؟

- ماذا تعنين؟

- أعـني لمـاذا عليكـم أن تكونـوا دائمًـا صارمـين، مقطبـين الوجـه، تظهـرون بصـورة المنشـغل الـذي لا يملـك الوقـت، الـذي لديـه قواعـد وقوانـين لـكل شيء؟

نظـر إليهـا عدنـان وبـدا لـه أنـه إذا فتـح الجـدال في هـذا الأمـر فقـد ينتهـي الأمـر بالأمسـية الـتي أنفـق عليهـا كل مـا معـه مـن مـال، ستفسـد لا محـال، ففكـر في حيلـة ينهـي بهـا الجـدال دون أن يجعـل الأنـثى الـتي أمامـه تشـعر بأنهـا انهزمـت، فعندهـا لـن ينـال سـوى المشـكلات، وأن أحسـت أنـه يسـخر منهـا عندهـا لـن يفسـد الأمسـية فقـط بـل سيفسـد كل شيء، فهـو يـدرك جيـدًا أن للنسـاء طابعًـا خاصًّـا... فقـال وقـد رسـم عـلى وجـه ملامـح الجديـة:

- أتعلمـين، أنـتِ محقـة تمامًـا معظـم الرجـال يميلـون لأن يكونـوا معقديـن، خاصـة عندمـا يتجـاوزن الأربعـين... لكـن دعينـا نقـول إنـه فيمـا يتعلـق بموضـوع الخمـر، حسـنًا يمكننـا القـول إنـني رجـل مسـلم ملـتزم لا أحتـسي الخمـر...

اكتفـت شـامية بنظرتهـا الـتي تعـبر عـن فرحتهـا بالنـصر... وتناولـت بيدهـا شـوكة مـن أمامهـا وغرسـتها في قطعـة اللحـم الـتي كانـت تقطعهـا بيدهـا الأخـرى، مـن ثـم توقفـت فجـأة عـن قطـع اللحـم، ونظـرت لعدنـان بينمـا يتنـاول طعامـه، وكأنهـا تفكـر في شيء مهـم، ولاحـظ ذلـك عدنـان فنظـر إليهـا وعـرف أنهـا عـلى وشـك أن تسـأل

سـؤالًا يداهمـه كالعـادة، وقـد فعلـت:

- مـا المميـز في علاقـة الـزواج بـين رجـل وامـرأة، الـذي قـد يدفـع أحـد الطرفـين ليقـضي عمـره وحيـدًا إن فارقـه الآخـر؟

بضـع كلمـات كانـت كفيلـة لتنقـل عدنـان بسرعـة الضـوء، إلى كل تلـك اللحظـات السـعيدة الـتي قضاهـا برفقـة سـارة، منـذ أن تعـرف عليهـا...

لـم يعـرف مـن أيـن يـأتي بالكلمـات لـيرد عـلى سـؤال شـامية، وأي كلمـات سـتنصف حبـه لراحلتـه... فأطلـق تنهيـده، ثـم أجابهـا قائـلًا:

- إن قصـص الحـب الـتي تشـاهدونها في التلفـاز، أو حـتى قصـص العلاقـات الاجتماعيـة، لا تشـبه الواقـع في أي شيء، وعلاقـة الـزواج لا تكـون مميـزة إلا إذا آمـن بهـا كلا الطرفـين، عندهـا فقـط يسـتطيعان أن يحققـا السـعادة، وتكـون العلاقـة بينهمـا أعمـق بكثـير مـن أن تصفهـا الكلمـات، إنهـا تشـبه تحـول روحـين إلى روح واحـدة، إلى حـد أن كليهمـا يصـل لدرجـة، أنـه لـو أخـبره الآخـر في وجهـه أنـه يكرهـه، سـيعرف أنـه يكـذب... هـي لا تشـبه تلـك العلاقـات في التلفـاز الـتي تخلـو مـن الخلافـات والمشـاحنات، بـل إن الخلافـات تحـدث، لكنهـا خلافـات حلـوة المـذاق... لا تؤثـر في دفء الحيـاة الـتي يعيشـانها... يتحـول الأمـر إلى هـواء يتنفسـه المـرء، فهـو يتنفـس حينهـا وجـود شريكـة في حياتـه...

قـال عدنـان كلماتـه ثـم بـدأ ينظـر للفتـاة الجميلـة مـن أمامـه الـتي بـدت مأخـوذة بتعابـيره، ثـم انطلقـت موسـيقى هادئـة، فحـاول الهـروب مـن نظراتهـا الحانيـة بالتعليـق عليهـا قائـلًا:

- أعشق الموسيقى، كم هي رائعة...

ولكن قطع كلماته صوت شامية، وقد تبدلت نظراتها الحانية، إلى نظرة القسوة قائلة:

- لماذا لم تنتقم؟

أنزل سؤالها المفاجئ بمسامع عدنان العجب، وبنظراته الاستنكار... وظل برهة من الصمت يحاول استيعاب ما قالته الفتاة... ثم قال:

- أنتقم؟!

ولكن أدهشه أكثر ردة فعلها الهادئة؛ إذ بدأت بالتقاط السكين والشوكة وعادت تقطع اللحم في طبقها بهدوء شديد، بينما تقول وهي تنظر إلى طبقها:

- ألا يستحق الذين يجعلون حياتنا آمنة ودافئة، أن ننتقم لهم ممن تسبب في بعدهم عنا ...

انزعج عدنان كثيرًا من طريقة حديثها، ودون أن يتفوه بكلمة غادر الطاولة، مسرعًا إلى خارج بهو المطعم، ليقف في شرفة صغيرة مليئة بالزهور، وتعجبت شامية كثيرًا من تصرفه، فهي لم تستوعب كيف يتركها وحيدة على الطاولة ويذهب بهذا الشكل... لكنها فسرت ذلك أن حديثها ربما ذكره بواقعة اغتيال زوجته، فالتمست في نفسها له الأعذار...

من ثم استدار عدنان ينظر للطاولة التي تجلس عليها، وقبض يده بشدة، محاولًا السيطرة على أعصابه، في حين لم تفهم شامية ما الذي حدث... ثم عاد مسرعًا إلى الطاولة... وجلس قائلًا:

- أعتذر...

لـم تعقـب شـامية عـلى اعتـذاره بـل بقيت صامتـة لبعـض الوقت، ومـن ثـم طلبـت إليـه العـودة إلى المـنزل... وهـو لـم يرفـض ذلـك، فقـط قـال إنـه سـيخرج ليسـتدعِ سـيارة أجـرة... وتوجـه إلى النـادل بالشـكر عـلى الأمسـية ثـم طلـب إليـه أن يوقـف سـيارة أجـرة، وبينمـا يسـتدير عائـدًا إلى الطاولـة، إذا بشـامية تلحـق بـه وتضـع يدهـا عـلى كتـف النـادل مـن الخلـف برفـق، وعندمـا انتبـه إليهـا، أخبرتـه أنـه ليـس مضطـرًا لإيقـاف سـيارة أجـرة لهمـا، وأنهمـا سـيتدبران أمرهمـا... ومـن ثـم تابعـت السـير إلى خـارج المطعـم...

فلحـق بهـا عدنـان متعجبًـا مـن تصرفهـا هـذا، وبمجـرد خروجهـا مـن المطعـم إذا بهـا تخلـع حذاءهـا ذا الكعـب العـالي وتوجهـت لعدنـان وقالـت:

- ألديك مانع أن نعود سيرًا على الأقدام...

نظر عدنان إلى قدميها العارية وقال:

- أتنوين العودة هكذا؟!

- في الواقـع لـم أعتـد التجـوال في شـوارع المـدن بحـذاء أنيـق بكعـب عـالٍ...

ثـم بـدأت بالسـير أمامـه، وهـي تحمـل في يدهـا الحـذاء، فتبعهـا عدنـان... وعندمـا أحسـت بـه اقـترب قالـت:

- أخـبرني يـا سـيد عدنـان، هـل حـدث أن سرت وحـدك يومًـا في شـوارع إحـدى المـدن؟

- نعـم كنـت معتـادًا عـلى إمضـاء الوقـت في السـير في طرقـات إسـطنبول... حـتى عندمـا كنـت ببابـل كنـت أحـب كثـيرًا السـير في الطرقـات، كنـت حينهـا أشـعر أنـني قطـرة مـاء في محيـط عميـق...

نعـم كان هـذا هـو شـعوري حينمـا أسـير في الطرقـات بـلا وجهـة...

- نعــم أنــت محــق، ولكــن كان شــعوري مختلفًــا، ربمــا لأنــني اعتــدت التجــوال برفقــة أصدقــائي، كنــت أشــعر أنــني أحلــق في السماء الخاليـة بحريـة، حينمـا تعلـو ضحكاتنـا، أو نفعـل مـا يخطـر ببالنــا دون تفكــير...

- نعـم مثلمـا فعلـت الآن عندمـا خلعـت الحـذاء، وسرتِ وحسـب دون تفكـير....

- هل جربت أن تفعل شيئًا يومًا دون تفكير...

- نعم.

- حقًّا، لا أصدق أنك فعلت...

- بــلى فعلــت، اســتيقظت يومًــا في الصبــاح وكنــت قــد عقــدت العـزم عـلى طلـب يـد سـارة للـزواج، ولـم أفكـر كثـيرًا، في الحقيقـة لـم أشـعر بنفـسي إلا وأنـا واقـف عـلى عتبـة بابهـا، وهـي تنظـر إليَّ في دهشـة لـم أعهدهـا عليهـا مـن قبـل، بعـد أن سـمعتني أطلـب يدهـا للـزواج، كانـت الدهشـة نفسـها عـلى وجهـي، فأنـا أيضًـا لـم أصـدق حينهـا أنـني نطقـت تلـك الكالمـات ...

أبدت شامية أعجابها بذلك كثيرًا:

- هــذا لطيــف جــدًّا، يــا ســيد عدنــان... اليــوم لا أســتطيع أن أصــدق مــا أســمع...

- لـم تعرفيـني في صغـري عـلى كل حـال، كنـت متهـورًا حـتى أكـثر منـك أنـت ورفاقـك.

- لا أصدق، أنا وأصدقائي لا يضاهينا أحد...

- هيا كفاكي تفاخرًا بأصدقائك.

ضحكت شامية ضحكة جميلة، ثم قالت بصوت متهدج:

- اشتقت إليهم...

فشعر عدنان بالضيق قد نال من قلب رفيقته، وشعر أن الطريق قد طال وهي تسير بدون حذاء، فقال:

- حسنًا، يكفي هذا الآن، انتعلي الحذاء أو نوقف سيارة توصلنا إلى المنزل...

- لا بأس، في الواقع السير هكذا مريح أكثر من السير في هذا الحذاء...

- إذن دعينا نأخذ سيارة الآن؟

- لا أرغب ولكن إن كنت قد تعبت من السير بإمكانك استدعاء سيارة، لكني أريد أن أكمل الطريق سيرًا.

لم يفهم عدنان سر إصرارها، ولم يفسره بشيء سوى العناد المفرط، فرد قائلًا:

- أنتِ عنيدة...

- وأنت أيضًا!

توقف عدنان عن السير، وتعجب من ردها، حتى إنه لم يرد من شدة صدمته من جديتها في القول، وبدا عليه صمت الاندهاش، فقبل أن ينطق بكلمة واحدة، استدارت شامية لتنظر إلى ملامح وجهه المليئة بالحيرة، ثم عاودت النظر أمامها قائلة:

- لا تستغرب هكذا، قلت إنك وافقت على الخروج برفقتي الليلة، لتقدم الاعتذار عما بدر منك، عندما حاولت مغادرة الشقة، لكن عنادك لم يسمح لك أن تفعل، أنت حتى لم تقل آسف...

ابتسم عدنان ابتسامة صغيرة لما شعر في نفسه من سذاجة ما تقوله الفتاة، ثم بدأ بمتابعة السير إلى أن وقف بمحاذاتها، من ثم قال في هدوء تام:

- أنتِ محقة تحليلك ممتاز، لكنه ليس صعبًا أبدًا، ومن السهل جدا اكتشافه، وأعتقد أنني قد أديت اعتذاري عندما وافقت وصحبتك إلى هناك.

ثم تابع السير إلى أن أصبح أمامها، جعلها هذا تستشيط غضبًا، فقالت:

- لكنك أفسدت الأمر، لقد تركتني هناك على تلك الطاولة جالسة بمفردي، هذا غير لائق أبدًا...

لم يلتفت عدنان لها ولم يرد على كلماتها، مما زاد من غضبها عليه، فاندفعت باتجاهه مسرعة ثم وقفت أمامه فجأة، تنظر إليه بغضب شديد، في حين لم يصدر عنه أي رد فعل سوى النظر في عينيها الزرقاء التي تشع غضبًا، وصمت قليلًا ثم أطلق كلمة واحدة:

- آسف.

ثم تابع السير من أمامها، وهو مدرك تمامًا أنه جعلها تصل إلى مبتغاها، فهو كرجل يفهم أنه ما لا تدركه بعض النساء أن الكلمات لا تعني شيئًا أمام الأفعال، ولكنه لا يعلم أن كلمة قد تشعل نيران حرب النساء، وكلمة قد تخمدها...

شعر بها ما تزال تقف في مكانها لم تتحرك، فظن أنها ما تزال غاضبة، فاستدار قائلًا:

- ماذا الآن؟

- دعنا نقف قليلًا، لم أعد أقوى على السير.

- حقًّا من يتحدث، هل هذه الفتاة التي تجوب شوارع إسطنبول سيرًا على الأقدام برفقة أصدقائها.

نظرت شامية إلى الأرض، وبدى عليها الأسى من كلماته. في هذه اللحظة وقع عدنان أسير أخطر أسلحة النساء على الإطلاق، وهو ضعفهن... فاقترب منها قائلًا بصوت منخفض:

- حسنًا إذن، انتعلى الحذاء الآن، سأحاول العثور على سيارة.

- أي سيارة في هذا الليل، لقد اقتربنا من الفجر، ويبدو أنك لم تلحظ أننا على بعد قدمين من المنزل، انظر أمامك، إنه هناك سأكون بخير.

نظر عدنان إلى المبنى، فإذا هو أمامه، وقف يسأل نفسه كيف لم ألحظ، وبينما يقف يحدث نفسه، إذا بذات القدمين العاريتين تتقدم السير من أمامه، في إرهاق شديد.

بينما تنظر شامية إلى الطريق الذي ستعبره، إذا بها تشعر بذراعيه تحملانها عن الأرض...

- حسنًا، لن أحتمل أن تسيري خطوة واحدة هكذا...

نظرت إليه في صمت، ولم تعقب ولم تشعر بشيء سوى أن منقذها يتابع عمله الذي بدأه منذ يوم التقته أول مرة، فالرجل الذي لا طالما كان معني بحمايتها وراحتها ليس جديدًا عليه أن يصدر منه هذا الآن، إلا أن ذلك الشعور بقربها منه، أكد على مشاعر العشق في قلبها، وجعلها واثقة منها ...

ظل عدنان يحملها إلى أن وصلا المصعد في صمت، ثم تحدث أخيرًا:

- لا أفهم ما سر عنادك هذا، انظري ماذا فعلت بقدمك.

وبعد قليل كان المصعد قد توقف، ووصلا إلى باب الشقة، عندما دلفَا قال عدنان:

- غدًا سيكون يومًا شاقًّا، أقترح أن تغسلي قدميك وتخلدي للنوم الآن.

لم تستجب شامية لاقتراحه فرغبتها في الحديث كانت أقوى:

- تشاجرت مرة مع أمي بشأن عملها، فقد كنت أكره سفرها المتكرر وتركها لي، أخبرتها أنها تعتني بالفقراء والمشردين أكثر مني، فردت عليَّ بغضب، كيف لفتاة مثلك أن تشعر بما يشعر به أولئك الناس، كيف لكِ أن تشعري بطفل يسير بقدمين عاريتين في طريق صخري تحت حرارة الشمس، هذا أهون ما يمكن أن يتحمله أولئك الذين نعتهم بالمشردين... أردت أن أجرب ذلك، ربما أردت التجرد من الرقي لأشعر بما تحدثت عنه، على الرغم أنني لم أسر تحت الشمس الحارقة وشوارع لندن ليست بالطرق الصخرية إلا أن ذلك كان مؤلمًا، قالت أمي إنه إذا لم يكن لديها ما تقاتل لأجله في الحياة فلا معنى لحياتها، هذا ما كانت تقاتل لأجله أمي، كانت تقاتل من أجل آدميتها، حتى إنها تركتني أنا وأبي من أجل ما آمنت به، الكل يدفع ثمن آدميته هذه الأيام، أليس كذلك؟!

عادت كلمات الفتاة ترمي بعدنان في بحر الحيرة من جديد، هل هي مجرد عشرينية طائشة، أم أنها عشرينية عاقلة، نالت من عقلها المصاعب فجعلته عقلًا ستينيًّا، فوق حيرته فهو لم يستطع أن يرد على كلماتها، فبأي كلمات يواسيها، وهو الذي بحاجة إلى من يواسيه... ولكنها قطعت عليه تفكيره:

- لما انزعجت عندما تحدثت عن الانتقام؟

- عن أي انتقام تتحدثين؟!

- أن تنتقم لزوجتك...

- أعقلي الحديث قبل النطق به، ممن أنتقم، وكيف أنتقم، وإذا حدث وانتقمت عندها كيف أكون أمام نفسي، هل سأختلف عن مجرد قاتل غير آدمي...

- حقًّا، أتعني أن انتقامك من قتلة زوجتك يسلبك آدميتك... أهذا كل ما تهتم له، هل نسيت كل ما عنيته بسببهم؟!

نظر عدنان إلى عين الفتاة، وهي مليئة بالحماس... وأحس أنها تبحث عن الانتقام هي الأخرى، فقال بصوت منخفض...

- أنت لا تفكرين في حمل السلاح وقتل أحدهم!!

- بلى أنوي...

ثم بدأت الفتاة تتحدث، واشتعلت عيناها بالحماس...

- عندما أعود لتركيا، سأطلب من والدي أن يوظف كل أمواله من أجل الانتقام لموت أمي... سأطلب أمهر المحققين، وأعود للعراق للوقوف على حادث اغتيالها، ومعرفة الجناة، وعندها سأقتلهم بيدي هاتين... سأطفئ تلك النيران في قلبي، حتمًا سأفعل، وبيدي هاتين...

ومن ثم رفعت يديها الصغيرتين في الهواء تشير بهما إليه، فنظر عدنان إليهما، وتعجب كيف لها أن تظن أن هاتين اليدين الصغيرتين، والناعمتين، قد يكون لهما القدرة على حمل السلاح... وكيف سيكون حال كل هذا الحماس عندما تعود لتركيا، وتدرك أن والدها لم يعد حيًّا ليمول جيش المحققين خاصتها...

فشعر في داخله بالأسى، والشفقة لأجلها... فمد يديه الاثنتين وطوق يدها المرفوعة في الهواء، ونظر لها في عينيها بنظرة تحمل العطف الممزوج بالشفقة، عندها شعر الاثنان كم أن قدرهما قريب من بعضه، كم أن الألم في نفس كليهما عميق، فكلاهما فقد أغلى ما يملك، وفجأة تحولت كل القوة في عين شامية إلى ضعف، وانكسار، وراحت الدموع تفارق عينيها، عبرة تلو الأخرى...

فمد عدنان يده يمسح عن وجهها الأبيض تلك العبرات، لا يعرف هل يواسيها أم يواسي نفسه، وكأن كل تلك الآلام في قلبه أبت عليه إلا أن تمنى ما تمنته الفتاة، وأن ينتقم هو الآخر ممن أطفأ نور حياته...

فإذا به يقول:

- أنتِ محقة تمامًا، علينا أن ننتقم، عندما تعودين لتركيا، سيحرص والدك على تلبية كل رغباتك... وسيوفر لك جيشًا من المحققين، وستعرفين من هم قتلة أمك، وستقتلينهم بيديك هاتين...

قال كلماته، وهو يمسك يديها الواهنتين بين يديه، وينظر لعينيها التي تقاوم العبرات بقوة هشة، تنهار أمامها من أبسط هجوم...

ثم قال عدنان:

- غدًا سيكون يومًا شاقًّا، عليكِ أن تستريحي الآن، سننطلق في الصباح الباكر...

- نعم، أنت محق، تصبح على خير...

- تصبحين على خير...

واتجه كل منهما لغرفته، وانقضت الليلة كسابقتها، تحلم الفتاة بالردود على الأسئلة التي تجوب خاطرها، ويخشى العراقي لحظة معرفتها الحقيقة، ولحظة عدم استقبالها من أبيها... وكيف تكون حياته بعدما ينتهي الأمر، ويسلمها لعمها، ولا يصبح له الحق في البقاء بقربها، حتى وإن كانت أفكاره، وإخلاصه لزوجته الراحلة تأبى عليها أن يأخذها زوجة له، إلا أن ذلك الضوء الذي شع نوره في قلبه من جديد يتمنى لو تبقى بقربه....

في الصباح الباكر استيقظ عدنان على صوت طرق الباب برفق، وعندما نهض من مكانه، كانت شامية تقف أمامه، مرتدية ثيابها، ومستعدة للذهاب، ويبدو عليها الحماس التام للرحيل... وقالت:

- ألم تشتاق للعودة لحياتك؟

-... بلى.

- هيا إذن...

ثم ذهبت من أمامه لتعطيه الفرصة ليستعد للرحيل... للحظة، وهي أمامه فكر أن يخبرها أنه لا يريدها أن تذهب لكن حديثها، جعله يصدق أنه قد أحسن عندما لم يفعل، وأنها الآن على الدرب الصحيح...

وبعد قليل من الوقت كان كلاهما على متن الطائرة المتوجهة لمطار إسطنبول... كان كل شيء معدًّا ومجهزًا تمامًا كما دبر له عمه، فقد ركب على متن الطائرة آمنًا على الرغم من جواز سفره المزيف... وبعدما أقلعت الطائرة زاد اطمئنانه... إلى حد أنه حدث نفسه قائلًا، إنه لم يتخيل للحظة أنه سينجو، ويتمكن

مـن العبـور بجـواز سـفر مزيـف أبـدًا... فقطعـت عليـه شـامية تفكيره بصوتهـا:

- نجونا... لم أخل أننا قد ننجح في العبور بزواج سفر مزيف...

- حسنًا، ربما أحسن عمي التدبير...

فـردت شـامية، وهـي تنظـر لإحـدى المجـلات الـتي كانـت موجـودة في الطائـرة:

- نعم ذلك الرجل، كان يبدو عليه إنه يحبك كثيرًا...

فنظـر عدنـان إليهـا، وأحـس أنهـا الفرصـة المناسـبة ليطمـئن قلبـه مـن ناحيـة عمهـا، فسـألها:

- وعمك... ماذا عنه هل يحبك كما يحبني عمي؟!

جعـل سـؤال عدنـان عـين شـامية تـرى أحداثًـا كثـيرة... مـن الشـجار بـين أبيهـا وعمهـا، وموقفـه مـن سـفرها إلى العـراق، ومـا فعلـه بسـامر حارسـها الشـخصي، لـكي يمكنهـا مـن السـفر رغـم المخاطـر... وعـدم قدرتهـا عـلى تفسـير وصـول سـامر لسـيارتها جثـة هامـدة قبـل أن تختطـف منهـا، في حـين أنهـا ظنـت أنـه فاقـد الوعـي في القـصر في تركيـا ... كل ذلـك جعلهـا غـير متأكـدة مـن ردهـا إن كان عمهـا يحبهـا أم لا... لكنهـا كانـت تـدرك أن الوقـت يتـآكل وقريبًـا تجـد الأجوبـة عـلى كل أسـئلتها، وقريبًـا تعـرف الحقيقـة، فلـم تجـد ضرورة مـن إظهـار عمهـا بصـورة بشـعة أمـام عدنـان خاصـة أنهـا ليسـت متأكـدة مـن ظنونهـا... فـردت بصـوت متهـدج:

- نعم... كثيرًا.

زاد صوتهـا مـن الشـك في نفـس عدنـان، وشـعر عـلى مـتن الطائـرة أنـه يسـير في الطريـق الخطـأ، ولكـن هيهـات لـه الرجـوع، لا بـد أن

يكمل الدرب حتى النهاية...

كانت الرحلة مريحة في طائرة مجهزة للسفر، لكنها لم تكن مريحة لكل منهما، كلاهما كان ينتظر المجهول على أرض تركيا... لكنه المجهول الذي يتوق كل منهما لمعرفته؛ فشامية تنتظر إجابة أسئلتها، وعدنان ينتظر عودته لحياته، وكلاهما يسأل في نفسه هل هذه نهاية المطاف مع الآخر...

وقطعت شامية لحظات الصمت المرير بالحديث قائلة:

- قريبًا نصل لتركيا، وقريبًا يعود كل منا لحياته...

- نعم، أخبريني، ماذا تنوين أن تفعلي غير الانتقام؟

- لا شيء، فقط سأنهي دروسي، وأعود للتسكع في الطرقات برفقة أصدقائي...

وسأكون طالبة نابغة في صف اللغة العربية، لدي أستاذي الذي هو زوجي السابق.

ضحك عدنان من كلماتها ضحكة مريرة، فلا مفر أن يصبح الزوج السابق، ولكنه عجز أن يخبرها أنه لن يستطيع أن يكمل حياته بقربها إن لم يكن له الحق فيها، وهي أمام عينيه بعد أن شعر بوخذة الحب لها... فقال:

- عليك أن تكوني نابغة في كل حياتك، وتستمتعي بكل لحظة فيها، ولا تستسلمي للألم مهما كانت الظروف... حتى لو لم يكن معلمك، زوجك السابق...

- لست السابق بعد ...

نظر عدنان لها بدهشة، وكأن قلبه يحدثه، إنها لا ترغب في أن يكون السابق، وأحست شامية أنها قد بالغت في تصريحها،

فعـاودت الحديـث لتغـير الموضـوع.

- ولكن أخبرني لما لا تكون معلمي؟

- لا أنوي البقاء في تركيا... سأعود للعراق...

ثـم أرخـى رأسـه للـوراء، واسـتند عـلى مقعـد الطائـرة، وراح يكمـل الحديث...

- سـأعود إلى ذلـك المـنزل الـذي تركتـه عندمـا قُتلـت زوجـتي، وسـأعيد البهجـة إليـه والألـوان، وسـأقتل ذلـك الخـوف في داخـلي ... سـأحيا في بيـتي بسـعادة، عندهـا سـتأتيني سـارة في الأحـلام، سـتكون سـعيدة... سـأعيش فيـه بسـعادة مـع ابنـتي... لـن أسـمح لذلـك الظـلام بتغطيـة قلـبي مـن جديـد...

-... وسـتزرع في حديقـة منزلـك زهـورَ بسـتان أتاتـورك، حـتى لا تشـتاق إليـه...

- نعـم، سـأبني سـورًا كبـيرًا، وفي داخلـه سـأزرع أنـواع النباتـات والزهـور المختلفـة، الـتي توجـد في بسـتان أتاتـورك، خاصـة تلـك التي تتـدلى أغصانهـا عـلى الأسـوار... فـلا أنـسى روعـة ذلـك المـكان، وكل لحظـات السـكون الـتي قضيتهـا فيـه...

- نعم، ستعيش بسعادة برفقة ابنتك...

قالـت شـامية كلماتهـا، وكأنهـا تطمـئن نفسـها إلى مـا سـيحدث، وأن الأمـور سـتكون عـلى مـا يـرام معـه... وعـادت ترخـي رأسـها للمقعـد، وهـي تتمـنى في نفسـها لـو كانـت زهـرة مـن زهـور أتاتـورك فيزرعهـا العـراقي في بسـتان منزلـه...

وبعـد قليـل كانـت الطائـرة قـد وصلـت الأراضي التركيـة، وأصبـح عدنـان وشـامية، عـلى الأرض الأخـيرة في الرحلـة، فهنـا تنتهـي

المغامرة، وهنا ينتهي ما بدأ... وظن كلاهما أن هنا تنطفئ تلك الشعلة الصغيرة التي أضاءت بالحب في قلبهما...

عندما وصلا أرض المطار كانت سيارة حرس السيد خالد في انتظار ابنة أخيه... ولكن هذه المرة لا يوجد فيها كرم، الذي نال جزاءه من سيده عندما علم بخيانته، وأن الفتاة لم تمت في العراق، وكان جزاء سيده له من جنس عمله... فقد عثرت السلطات التركية عليه غارقًا في مركب صيده الذي اعتاد الخروج به للصيد، وشهد باقي الحرس أن كرم غرق؛ لأنه لا يعرف السباحة...

استقلت شامية، وعدنان السيارة المرسلة لهما إلى القصر في تركيا، ولكن كان كل شيء غريب على شامية، أيعقل أن والدها لا يأتي لاستقبالها بنفسه، ويرسل لها الحرس... ويستمر تقبلها لكل ما يحدث، وتكرر لنفسها، الآن أقف على حقيقة الأحداث، الآن أفهم ما يحدث... بينما كان قلب عدنان يزيد فيه الريب والشك كلما اقترب من الطريق... كلما اقتربت السيارة من المنزل زادت ضربات قلبه... كيف يكون حالها إذا علمت بأن والدها لن يكون في استقبالها...

وعندما حانت لحظة الوصول، كانت السيارة تدخل من بوابة القصر إذا بالفتاة تمد يدها الباردتين كالثلج، وتمسك بيد عدنان... وكأنها تخبره أنه لم يحن وقت الأمان بعد... فأمسك عدنان بيدها وشد عليها، في وعد منه أنه لن يتركها للأذى... ومن ثم توقفت السيارة على باب القصر، كان يقف رجل بلحية قصيرة يشوبها الشعر الأبيض هو نفسه الذي شاهده عدنان ينعي أخاه على شاشات التلفاز...

- شامية... ابنة أخي... لا أصدق ما أرى، لا أصدق أنك هنا..

اندفع خالد نحو شامية فور نزولها من السيارة... وبدأ يعانقها ويضمها بين ذراعيه في غير اهتمام منها لما يفعله... ولكنه كان يعانقها، وعينيه منشغلة بالنظر إلى الغريب الذي معها، كما كانت عين الغريب أيضًا متوجهة إليه... وبينما يعانقها إذا بها تسأل:

- أين أبي؟

عندها أوقف خالد نظره ناحية عدنان، وأدرك من سؤالها أنها لا تدرك ما حدث لأبيها، وظن أن عندنان هو الآخر لا يدرك... فرد عليها قائلًا:

- إنه في سفر، لكنني أعلمته بخبر مجيئك... سيكون هنا في أي لحظة...

لم يفهم عدنان سر كذبِهِ في بادئ الأمر، ولكنه ظن أنه لا يريد أن يفاجئها بالخبر السيئ لحظة وصولها...

فأشار العم إلى إحدى الخادمات الواقفات خلفه... قائلًا:

- خذي الأميرة لغرفتها...

ثم عاود النظر لشامية، وقال:

- اصعدي إلى غرفتك فهي بانتظارك، وقصرك يهفو إليك... وقريبًا يصل والدك...

فاقتربت خادمة تبتسم ابتسامة عريضة، ولكن لم تعهدها شامية في القصر من قبل... وأمسكت يدها لتأخذها للأعلى... وقبل أن تصعد، استدارت لعدنان، ونظرت إليه كأنها تخبره أنها لا تشعر بالراحة...

وقـد أدرك عدنـان مغـزى نظرتهـا... ووقـف ينظـر إليهـا، وهـي تدخـل القـصر مـع الخادمـة، وتختفـي مـن أمـام نظـره، والآن بحيلته فهـو مـن أتى بهـا إلى هنـا...

وبعدمـا دخلـت القـصر عـاود النظـر أمامـه، فـإذا برجـل لا يبـدو عليـه أبـدًا أنـه اسـتقبل خـبرًا مفرحًـا ينظـر إليـه نظـرة غريبـة، ويقول:

- إذن، آدم طومسون...

نـادى خالـد عدنـان باسـمه في جـواز السـفر بطريقـة لا توحـي بأنـه ودود... في تلـك اللحظـة تـراءت لعدنـان صـورة عمـه سـلطان وهـو يقـول: «لـو كان للفتـاة مشـتر لمـا بيعـت»، وتمـنى في نفسـه أن يكـون عمـه قـد أخطـأ فقـط هـذه المـرة... فـرد عـلى حديـث خالـد الـذي يبـدو مـن أسـلوبه أنـه يسـتنكر وجـوده، ووجـود ابنـة أخيـه؛ لذلـك نـاداه بالاسـم المزيـف الـذي اسـتخدمه في السـفر... فقـال:

- عدنان الأحمد...

- آسـف لقـد أخـبروني أن جـواز سـفرك يحمـل هـذا الاسـم... سـيغدق السـيد عمـر عليـك بالأمـوال لإنقـاذك حيـاة ابنتـه، لا تقلـق سـتكون مكافأتـك كبـيرة...

- كيف يغدق الأموات على الأحياء بالمال...

-...

كانـت تلـك آخـر جملـة قالهـا عدنـان، قبـل أن ينقـض عليـه أحـد الحـرس مـن الخلـف بضربـة قويـة، أفقدتـه وعيـه...

كان خالـد الأغـا قـد أعجبتـه لعبـة الدمـاء، وبعدمـا تلوثـت يـده بـدم أخيـه أصبـح القتـل بالنسـبة إليـه عـادة مسـتحبة...

بينمـا كانـت الخادمـة قـد أوصلـت الفتـاة لغرفتهـا، وأغلقتهـا عليهـا

مـن الخـارج...

كان عدنـان قـد اسـتفاق عـلى صدمـة المـاء بقـوة عـلى وجهـه، فـإذا بـه مقيـد في إحـدى إسـطبلات الأحصنـة، وأمامـه خالـد الأغـا... وعندمـا تأكـد أن عدنـان عـاد لوعيـه بـدأ يتحـدث:

- أخـبرني يـا صديقـي، مـن غـيري يعـرف بوصـول شـامية إلى القـصر...

عندهـا كان عدنـان قـد تأكـد مـن صحـة شـكوك عمـه، وأنـه وقـع في الـشَّرَك الـذي أدرك أنـه لا خـلاص منـه... فلـم يـرد عـلى خالـد قـط، بقـي صامتًـا ينظـر إليـه ولا يتكلـم، ويشـعر في داخلـه بالشـفقة لأجلـه... فهـو لا يـرى فيـه سـوى معتـوه يسـعى خلـف الأمـوال، ولا يعـرف القيمـة الحقيقيـة للحيـاة...

فوجـه خالـد حديثـه إلى الحـارس الـذي يقـف بجانبـه بصـوت رجـل كبـير، ينبـض بالجديـة الفخمـة:

- اليـوم بعـد انتهـاء الحفـل، لا أريـد مشـكلات... أد عملـك في صمـت وهـدوء.

- مـاذا عـن صديقـه، الـذي أتي يخبرنـا عنهمـا، لا بـد أنـه سـيبلغ الشرطـة عـن اختفائـه، وقـد يتهمنـا بخطفـه؟!

- إنـه مخبـول يحـب صديقـه، ولا يصـدق أنـه قتـل في العـراق... إلى حـد أنـه يخـبر الشرطـة أنـه موجود لـدى شرفـاء إسـطنبول... ومـا دام أنـه لـم يعـبر إلى تركيـا بهويتـه الحقيقـة فـلا دليـل لـدى صديقـه...

- حسنًـا سيدي...

وبعدهـا خـرج خالـد مـن إسـطبل الأحصنـة، بعدمـا اتفـق مـع حارسـه عـلى قتـل عدنـان، متجهًـا إلى القـصر ليتأكـد أن شـامية قـد

حجـزت في غرفتهـا إلى حـين انتهـاء الحفـل، ثـم يلحقهـا بعدنـان... وعـاد الحـارس ليقيـد عدنـان إلى حـين تـأتي اللحظـة المناسـبة ليقتلوه.

عندمـا خـرج خالـد وتـرك أحـد حراسـه أمـام بـاب الإسـطبل، بقـي عدنـان وحـده مقيـدًا في الداخـل...

عندهـا فطـن أنـه لـم يقـد شـامية إلى نهايـة رحلـة الخطـر، بـل إنـه قادهـا بيـده إلى نهايـة حياتهـا... وأحـس بذلـك الضـوء الـذي بزغـت في قلبـه بـوادره ينطفـئ ويختفـي، وعـاد للاستسـلام، وشـعر أنهـا الفرصـه، فرصتـه ليصـل لسـارة، وفرصـة شـامية لتصـل لأبيهـا، وأمهـا... فظـل في مكانـه في سـكون تـام ينتظـر الحـارس ليدخـل، وينفـذ الأمـر الـذي منحـه إيـاه سـيده...

بينمـا كانـت شـامية قـد أدركـت أنهـا محتجـزة في غرفتهـا مـن الداخـل، محتجـزة داخـل قـصر أبيهـا... ولكـن موقفهـا كان مختلفًـا تمامًـا عمَّـا آل إليـه حـال عدنـان، فهـي لـم تستسـلم، إيمانًـا بمـا قالـه لهـا في الطائـرة أن عليهـا ألا تستسـلم مهمـا كانـت الظـروف، فظلـت تـصرخ مـن داخـل الغرفـة، وتخبـط عـلى البـاب بشـدة، ولكـن دون فائـدة، واسـتمر ذلـك لسـاعات... ولكـن دون جـدوى... لا أحـد يـرد، ولا أحـد يطلـب منهـا أن تهـدأ، ولا أحـد يفتـح البـاب... كانـت تلـك المـرة الأولى الـتي تشـعر فيهـا بالفـزع مـن داخـل غرفتهـا، ليـس هـذا وحسـب بـل إنهـا أدركـت أيضًـا أن والدهـا لـن يـأتي...

كل ذلـك أنهـك قواهـا، وجعلهـا في حالـة مـن الاضطـراب، فـلا أحد تسـتغيث بـه، ولا هاتـف تتصـل منـه، ولا أحـد يـرد عليهـا... لكـن رغم هـذا فهـي تعلـم أن هنـاك مـن سـيظهر مـن العـدم كمـا كان يفعـل في كل مـرة، ويخلصهـا ممـا هـي فيـه...

فتراجعـت عـن البـاب في خـوف، وجلسـت أمامـه تحـدق فيـه،

وتنظـر إليـه بلهفـة، وهـي عـلى يقـين أن عدنـان سـيفتحه في أي لحظـة... ولكـن لا ينفـك ذلـك الشـعور يخالجهـا أنـه سـلمها كالطـرد، وانـصرف لحياتـه، دون أن ينظـر خلفـه... ولكنهـا تقـاوم ذلـك الشـك بقـوة، وتشـعر بالقـين أنـه حتمًـا سـيأتي...

بينمـا بقـي عدنـان مستسـلمًا في مكانـه... لا يحـرك سـاكنًا، وإذا بالحـارس يدخـل وفي يـده سـكين، عندهـا فطـن أن اللحظـة الأخـيرة قـد حانـت، ولكنـه لـم يحـرك سـاكنًا... فقـط بقـي مستسـلمًا عـلى الأرض ينظـر إلى الرجـل الغليـظ، وهـو يقـترب منـه حامـلًا سـكينًا في يـده، وكذلـك أحـس الحـارس أيضًـا في نفـس عدنـان الاستسـلام التـام... وأدرك أن فريسـته مستسـلمة لحكمـه، فوضـع السـكين عـلى رقبتـه، في تلـك اللحظـة الـتي وضـع فيهـا الرجـل السـكين عـلى رقبـة عدنـان، تخايـل لـه منظـر مـن طفولتـه، في ذلـك المنظـر تذكـر نفسـه، وهـو طفـل صغـير يركـض بـين الأعشـاب سـاعيًا خلـف طائرته الورقيـة الـتي أفلـت حبلُهـا مـن يـده... وظـل يركـض خلفهـا والحبـل يتـدلى أمامـه، ولكنـه لا يسـتطيع الإمسـاك بـه... رغـم جهـده العـالي كي لا يضيـع الطائـرة في الفضـاء غـير عـابئ بـأي شيء مـن حولـه، ثـم تذكـر تلـك اللحظـة الـتي قـرر فيهـا أنـه سيمسـك بالحبـل، وقفـز للأعـلى دفعـة واحـدة مـن عـلى الأرض فأمسـك الحبـل بيـده رغـم بعـده عنـه، وأعـاد الطائـرة إلى زمـام يـده... في تلـك اللحظـة بالتحديـد وبشـعور لا إرادي، كأنـه يقفـز تلـك القفـزة مـن جديـد، أمسـك عدنـان يـد الرجـل بالسـكين، والتفـت إليـه بصـورة مفاجئـة وغـرس السـكين في وسـط صـدره...

ولـم يشـعر بنفسـه إلا عندمـا نظـر في عـين الحـارس، وهـو يحـدق فيـه بتعجـب شـديد، في لحظـة تحـول فيهـا الصيـاد إلى الفريسـة في

أقل من ثانية ...

لم تعد الفريسة ترغب في كونها فريسة بعد الآن، كانت هذه المرة قفزة قوية أقوى من تلك التي أمسك فيها عدنان عنان طائرته الورقية، بل إنه أمسك عنان حياته...

كانت قفزة فوق كل شيء، فوق الآلام والأحزان، والضعف، والخوف، وفوق كل شيء...

وقف عدنان ينظر للحارس، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وعندما فعل، ألقى بالسكين من يده، وغادر الإسطبل متوجهًا نحو القصر من الباب الخلفي، الذي قاده إلى غرفة مليئة بثياب الحفل التنكري الذي كان خالد يقيمه في تلك الليلة على شرف عقد اتفاقية عمل جديدة بينه وبين أحد الشركات الكبيرة في تركيا... وفي تلك الغرفة بدل عدنان ثيابه، ووضع أحد الأقنعة كي يختفي عن الأنظار، وأخذ معه قناعًا وثوبَ تنكر نسائي، كان ثوبًا أنيقًا يشبه ثوب الأميرات... قال في نفسه إنه أفضل ثوب يليق بشامية...

ثم خرج من الغرفة، إلى بهو القصر مباشرة، فوجد الحفلة كانت ما تزال في بدايتها، وخالد يقف وسط ضيوفه، في زهو وتباهٍ... لم يعر عدنان النظر إليه حينها اهتمامًا خوف من أن يدرك الحرس ما حدث، وأنه قد فر من أيديهم... فتوجه مباشرة عبر السلم إلى الطابق العلوي...

وبدأ يبحث بين الغرف كلها كانت مفتوحة، وتنفتح معه بسهولة، إلا غرفة واحدة كانت مغلقة بالقفل، والمفتاح فيها من الخارج... كانت غرفة شامية التي كانت تجلس في مكانها تنظر للباب، وتنتظر أن يطل منه منقذها الذي تأخر هذه المرة،

وبينما تنظر للباب، في قلق إذا بأحدهم يحاول فتحه... اشتد الخوف في نفسها، ماذا لو لم يكن عدنان... ولكن بينما تنظر ناحية الباب إذا برجل يضع على وجهه قناعًا يدخل الغرفة، ويقف ينظر إليها... ولكنها انتفضت من مكانها، ورمت نفسها بين ذراعيه للمرة الأولى منذ أن عرفته... فقد عرفته رغم القناع الذي كان يضعه كزوجة تستغيث، ويظهر أمامها زوجُها الذي كانت تنتظر قدومه، كانت لهفتها إليه في تلك اللحظة قوية جدًّا، ولم يجد عدنان سوى أن يسلم نفسه لشعور الحب في داخله، وألَّا يكبحه هذه المرة... فمد ذراعيه وطوقها بهما، عندها أدركت شامية أنها بين يدي زوجها لا منقذها فقط، وأنه بعد أن طوقها بيديه، اعترف بأنه زوج لها...

ولكن كل هذا لم يمنعها من سؤالها:

- أين أبي؟

صمت عدنان للحظة، وأدرك أنه لا وقت لديه لاحتواء غضبها، وحزنها في هذا المكان فأجابها:

- دعينا نمضي من هنا، وأخبرك حقيقة كل شيء، المكان ليس آمنًا لنا...

ثم منحها الثياب التنكري لترتديها، فدخلت حمام الغرفة لتردي الملابس، وعندما خرجت وضع عدنان القناع على وجهها...

وأمسك بيدها للخارج... وأخذا يمضيان إلى الطابق السفلي من القصر، وكانت المفاجأة هي أجواء الاحتفال الموجودة في القصر، لم تفهم شامية أي شيء وأي حفلة تلك، وتابعَا السير وسط ضيوف الحفل في هدوء حتى لا يثيران الأعين إليهما، بينما كانت

شامية تبحث عن وجه أبيها بين الحضور فما من وجه له، لا وجوه مألوفة لها سوى وجه عمها السيد خالد... يقف بجانب إحدى النساء، يتبدلان الضحكات، ومن خلفه مباشرة صورة كبيرة لعمر ورقية وشامية الأغا، ولكنها مشوهة بشريط الحداد الأسود... وقفت شامية تنظر للصورة ويكاد قلبها يُشقُّ نصفين لما ترى أمامها، كان قناع العين يخفي عينيها الثابتة لا تتحرك من الصدمة، ولكنه لم يخفِ أسنانها التي كانت تضغط على شفتيها بقسوة إلى أن جرحتهما حتى نزيف الدماء...

كانت في قصر أبيها، لا تدري ما يحدث حولها، وتنظر في ذهول، لولا أن أفاقها عدنان بصوته بعد أن أمسك يدها، وشد عليها:

- يجب أن نمضي الآن، وإلا أدرك الحرس أمرنا...

فانتبهت شامية إلى مصدر الصوت، وإلى يده وهي تمسك يدها، ونظرت إليه، وكأنها تخبره في تلك اللحظة، أنه لم يعد لها في الحياة أحدٌ غيره... في تلك اللحظة التي ظنت فيها أنها تركت وحيدة في غابة الذئاب، ناداها الصديق الوفي... ومصدر أمانها الوحيد... فمشيت معه في هدوء.

وبعدها أكملَا السير في خطوات تائهة من شامية بعد أن استنتجت موت أبيها من الصورة التي وضع عليها شريط الحداد، وكان عدنان يتحرك في خطوات حذرة، وبينما يغادران الحفل إذا بأحد الحراس يتقدم إلى الداخل، ووجهه مليء بعلامات القلق، عندها أدرك عدنان أنهم علموا بما حدث، فأسرع إلى خارج القصر... وبمجرد الخروج، أوقف أول سيارة أجرة وانطلقا نحو شقته في إسطنبول...

ومن خلفهما انطلقت سيارة سوداء في هدوء المراقبة كي لا

يلحظَـا وجـود سـيارة تراقبهمـا...

عندمـا وصـلا إلى شـقة عدنـان كان البـاب موصـدًا، وهـو لا يحمـل المفاتيـح... فاضطـر لكـسر البـاب بكتفـه، ليدخـل الشـقة الـتي غادرهـا منـذ أكـثر مـن شـهرين، وعندمـا كـسره لـم يسـتطع إغلاقـه مـرة أخـرى...

كانـت شـامية لا تعـي أي شيء ولا تعـرف أيـن هـي، عندمـا دخلـت وجـدت المـكان غـير مرتـب، ويبـدو كالمهجـور، وضعـت القنـاع مـن يدهـا عـلى طاولـة ووقفـت تنظـر في صمـت... بينمـا رمـى عدنـان نفسـه عـلى الأريكـة ليسـتريح، ويهـدئ إيقـاع التفكـير المتلاحـق في عقلـه... حـتى إنـه مـن شـدة وقـع الأحـداث بدايـة مـن الحجـز مـرورًا بقتـل الحـارس والهـروب برفقـة الفتـاة، نـسي أن يهـدئ مـن روعهـا، أو يخبرهـا كلمـة يطمـئن بهـا قلبهـا... وهـي لـم تحـرك سـاكنًا، ولـم تنطـق بكلمـة واحـدة، وكأنهـا تخـشى السـؤال مـن هـول الإجابـة... تخـشى أن تسـأل عـن أبيهـا فيتأكـد لهـا صحـة مـا رأتـه في الصـورة.

وكان عدنـان مـن أمامهـا يرتخـي إلى الأريكـة، ولكـن عقله لا يسـتطيع التوقـف عـن التفكـير، مـاذا الآن مـاذا يفعـل، وكيـف يحميهـا، وإلى أيـن يفـر بهـا هـذه المـرة، وكأن بقـاع الأرض قـد ضاقـت بـه، ولكنـه يعلـم جيـد أنـه لـن يصعـب أبـدًا عـلى حـرس عمهـا الوصـول إليهمـا في شـقته...

ولكـن شـامية لـم تكـن لتحتمـل حبـس سـؤالها أكـثر مـن ذلـك، فأطلقـت لسـانها:

- كنت تعلم أن أبي لن يكون في استقبالي، أليس كذلك؟

زاد السـؤال الهـمَّ همًّـا، فقـام العـراقي مـن مكانـه، ونظـر إليهـا

وأدرك أن سـؤالها يحتـم عليـه أن يحـترم عقلهـا، ويحتـم عليـه ألا يكـذب عليهـا هـذه المـرة، وأن اسـتنتاجها لمعرفتـه بالأمـر مـن السـابق منطقـي، فـلا تفسـير لتهربـه مـن الإجابـة عـن السـؤال في كل مـرة كانـت تسـأله فيهـا سـوى معرفتـه بالحقيقـة... فـرد:

- نعـم، ولكـني لـم أسـتطع أن أخـبرك في السـابق، كنـت أكـثر حرصًـا عـلى أن تعـودي لمنزلـك سـالمة، وطبعًـا لـم أكـن عـلى علـم بنيـة عمـك...

قـال عدنـان كلمتـه، وهـو مرغـم عليهـا فـلا يسـتطيع الكـذب بعـد الآن، ويوقـن تمامًـا في داخلـه أنهـا سـتقودها إلى الانهيـار التـام، ولكـن فوجـئ بـرد فعلهـا الهـادئ تمامًـا، حـين قالـت بـكل هـدوء:

- هنـا تنتهـي الرحلـة، لقـد أوصلتـني إلى بيـتي آمنـة، أديـت واجبـك، أشـكرك لـن أنـسى أبـدًا معروفك...

وأدارت وجهها إلى البـاب اسـتعدادًا للخـروج... بينمـا شـعر عدنـان ببسـاط الحيـاة ينسـحب مـن تحـت قدميـه وهـي تغـادر، وأصابـه الذعـر الـذي دفعـه ليمسـك يدهـا قبـل أن تمسـك هـي بالبـاب... وخـرج الغريـب عـن صمـت الجبـال ليعـترف لهـا في المـرة الأولى بالحقيقـة الـتي كانـت الفصـل في حياتـه البائسـة...

- قـد تكـون الرحلـة قـد انتهـت، ولكـني لـن أتحمـل الشـكر الـذي لا أسـتحقه...

لـم تفهـم شـامية إلى مـا يرمـي الغامـض في حديثـه، فأعارتـه نظـرة الاهتمـام، كي يكمـل حديثـه... وأكمـل عدنـان:

- الحقيقـة هـي أنـني لـم أكـن أنقـذك، بـل إنـني لـم أفعـل، لـم تكـوني في حاجـتي أكـثر ممـا كنـت أنـا في حاجتـك... لـم أكـن أنقـذك

بـل كنـت أنقـذ نفـسي... أنـا لا أعلـم مـن أنـتِ وكيـف ظهـرت في طريقـي، لكـني أعلـم جيـدًا أنـني وجـدت الطريـق بـك، فقـط بوجـودك، وبدافـع إنقـاذ حياتـك، أنقـذت نفـسي... أنـا هـو المديـن بالشكر... وإن كان لا يربطـني بـك سـوى زواج مزيـف باطـل، فدعيـني أخـبرك أنـني أتمـنى لـو كان حقيقـة...

حينهـا بـردت يـد شـامية كالثلـج في يديـه، وأمسـكت بيدهـا الأخـرى نفـس اليـد الـتي امتـدت لهـا في بـادئ الأمـر واقتربـت منـه ووجهـت ناظرهـا صـوب الأرض، وقالـت:

- أتقبـل بقلـب شريـد لا وطـن، ولا رفيـق لـه، رفيقًـا لقلبـك يـا سـيد عدنـان... هـل إذا أخبرتـك الآن أني أقـدس تلـك العلاقـة الباطلـة في نظـرك يجعلـك هـذا تصـدق بهـا، وألا تعتبرهـا باطلـة...

فرفـع عدنـان يـده الأخـرى وضمهـا إلى يديهـا ليصـدق عـلى مـا قالتـه، ولكـن قبـل أن ينطـق بكلمـة واحـدة، إذا بأحدهـم يطـرق البـاب المكسـور ولا قفـل لـه، لكـن عدنـان لـم يفـسر أن أحـد قـد يطـرق بابـه الآن سـوى حـرس عمهـا القادمـين بالهـلاك خاصـة أن الطـارق بـدأ يفتـح البـاب في هـدوء... فدفـع الفتاة إلى الخلـف، ووقف بجانـب البـاب، وبمجـرد دخـول الغريـب انهـال عليـه بعدوانيـة، بينمـا، تراجعـت شـامية في ذعـر تخـشى نتيجـة مـا يحـدث... بـدأ الشـجار بينهمـا يشـتد، ودفـع الرجـل عدنـان بقـوة فسـقط بجبـين وجهـه عـلى حافـة طاولـة خشـبية صغـيرة، فأصابـه جـرح في الوجـه، ولكنـه نهـض حاملًا الطاولـة نفسـها، وانقـض بهـا عـلى الرجـل دفعـة واحـدة فأسـقطه أرضًـا، وبينمـا يتهـاوى سـقط مسدسـه فالتقطـه عدنـان ووجهـه إليـه، وكاد يطلـق النـار لـولا أن الرجـل صرخ قائـلًا:

- شرطة!!

-...

- هدئ من روعك أنت لا تريد قتل ضابط شرطة حقًّا...

- أظهر هويتك...

فمد الرجل يده إلى جيب بنطاله الخلفي، وأخرج هويته، التي أثبتت لعدنان بالفعل أنه ضابط شرطة، فتراجع إلى الخلف، وأنزل المسدس من يده... بينما نهض الرجل من الأرض ومد يده إلى عدنان ليسلم عليه، وهو يقول:

- أعتذر، على الجرح...

فمد عدنان يده ليسلم عليه، ومن ثم أعاد إليه سلاحه... وانتظره ليكمل ما لديه، فقال الرجل:

- «رفيق»، اسمي رفيق، وكنت الضابط المسؤل عن التحقيق في قضية انتحار السيد عمر الأغا..

فاقتربت شامية من الخلف بفزع، وهي تصرخ..

- انتحار!! هل انتحر والدي؟

فأمسك عدنان بيدها ليهدئ من روعها، وأكمل رفيق حديثه..

- بكل أسف آنستي، لا...

فرد عدنان عليه في تعجب:

- ما الذي تقصده بلا...

- لقد أثبت مجرى التحقيقات فيما بعد أن سيارة السيد عمر تم دفعها من على التلة من قِبل سيارة أخرى، وأنه لم يقدها للأسفل بنفسه مما يعني أنه تم قتله، ولم ينتحر كما قالت التحقيقات الأولية ...

فعادت شامية تصرخ:

- من فعل هذا؟!

- سـأجيبك عـلى كل أسـئلتك آنسـتي، ولكـن اسـمحي لي، أنتمـا لسـتمَا في أمـان هنـا، قريبًـا جـدًّا سـيصل رجـال عمـك، ويسـوء الوضـع؛ لذلـك علينـا مغـادرة المـكان الآن...

فقال عدنان:

- إلى أين؟

- سأخبرك كل شيء في الطريق.

وانطلـق الجميـع إلى سـيارة رفيـق الـتي كانـت في الأسـفل، وبـدأ رفيـق يوضـح إلى أيـن الوجهـة:

- سـنذهب الآن إلى يخـت خـاص يقـف عنـد الشـاطئ، سـتكونان آمنـين فيـه إلى حـين انتهـاء الأمـر...

فرد عدنان:

- أي أمر تقصد؟

- سأخبرك كل شيء عندما نصل...

وبعـد قليـل كانَـا قـد وصـلَا لوجهتهـم في وقـت متأخـر مـن الليل..، وهنـاك تقابـلَا مـع «لانـا» ضابطـة أخـرى مسـئولة عـن القضيـة مـع رفيق...

كان يبـدو مـن مظهرهـا أنهـا تترقـب وصولهمـا، وفـور وصـول السـيارة فتحـت البـاب مـن جهـة شـامية، وابتسـمت لهـا، وقالـت:

- أهلا بعودتك سالمة.

ثـم أخذتهـا إلى الداخـل، في حـين بقـي عدنـان في السـيارة مـع

رفيـق... وبـدأ الحديـث:

- من هذه؟

- لانا، إنها شريكتي في العمل، ومسئولة عن القضية معي...

- يبدو أنها كانت في انتظارنا.

- نحـن كنـا نترقـب وصولكمـا بالهويـة المزيفـة إلى الأراضي التركية... كنـا نعلـم أنكما قادمـين...

- كيف؟

- نحـن نعـرف كل شيء عنكمـا منـذ وصولكمـا لمـنزل الشـيخ العـراقي، بعدمـا فررتـم مـن متمـردي الحـدود.

- وأين كنتم في رحلة المعاناة التي عشناها...

- كان كل شيء مؤمـن، أنـت لا تظـن حقًّـا أنـك عـبرت عـبر مطـار لنـدن بجـواز سـفر مزيـف... نحـن كنـا نؤمـن كل شيء... لكـن ظهـور شـامية الأغـا كان سـيغلق قضيـة قتـل عمـر الأغـا ومحاولـة اغتيـال زوجتـه، لـم تكـن لدينـا أي أدلـة ضـد السـيد خالـد لـم يكـن ذلـك ممكنًـا كان مـن المفـروض أن نقبـض عـلى خالـد اليـوم بتهمـة محاولـة اغتيـال ابنـة أخيـه، وعندهـا كان مـن الممكـن أن نوجـه إليـه تهمـة قتـل أخيـه...

- محاولة اغتيال أتعني أن...

- السـيدة رقيـة عمـر الأغـا حيـة تـرزق، وهـي الآن عـلى الأراضي التركيـة...

- وأين هي؟ لماذا لم تظهر ألم تسأل عن ابنتها؟!

- هـدئ مـن روعـك يـا سـيد عدنـان، سـيحدث كل شيء في الوقـت

المناسب.

- كنت على وشك الموت في إسطبل الأحصنة.

- لو لم تتحرك فجأة، وتخطف السكين وتنقض بها على الحارس، كان رجالي سيطلقون النيران عليه من الخلف... لقد كنتَ مُراقبًا حتى داخل قصر عمر الأغا.

- والآن ماذا؟

- ستعرف كل شيء في وقته.

فأشار عدنان برأسه موافقًا، ثم نزل من السيارة متجهًا إلى داخل القارب..

وعندما دخل، وجد شامية برفقة لانا، وبمجرد وقوع أنظارها عليه... هرعت إليه، وقالت:

- أمي حية ترزق، وهي هنا في تركيا أيضًا، ليس هذا وحسب بل إنهم الليلة سيلقون القبض على قاتل والدي أيضًا... لم تخبرني لانا من هو لكني سأذهب معهم للقاء أمي، وحضور التحقيقات حتمًا سأعرف.

ثم خفضت صوتها كي لا تسمعها لانا، واقتربت من عدنان وقالت:

- وسأنفذ ما وعدت به... سأنتقم لمقتل والدي...

فابتسم عدنان من حديثها، فقد بدت حينها كالطفلة المأخوذة بالغيظ، ولأنه على يقين تام أنها لن تنتقم من أحد...

- لا بأس، إذن الليلة تحققين رغبتك وتنتقمين، كما أن والدتك هنا لم يعد قلبك شريدًا الآن...

فنظرت شامية إليه، والتمست في حديثه أنه ظن أنها طلبت البقاء بقربه فقط؛ لأنها كانت بمفردها، الآن وقد عادت أمها، فلا حاجة لها به... كانت تنوي الصمت، وألا ترد عليه لكنها قررت أن تقضي على كل حاجز قد يحول بينها، وبينه، فقالت:

- ذلك القلب شريد بلا وطن إن لم تكن أنت وطنه...

-...

- أرغب بشدة أن أتوه بقربك في جمال تلك البحيرة في أتاتورك، التي سحرك جمالها إلى حد أنه أنساك هاتفك ليقودك القدر إليَّ...

أكثر من أن كلماتها قد لمست قلبه من الداخل ليعيد فيه نبضات الحب تلك... لم يقدر على نطق كلمة واحدة لكن ابتسامة وجهه كانت كافية بالنسبة لها...

وجلس الاثنان يتحدثان، بينما كان رفيق ولانا يعدان للانقضاض على قصر عمر الأغا والقبض على خالد بتهمة قتل أخيه... من خلال التحقيقات في القضية استنتجت لانا أن سبب كره السيد خالد لأخيه عمر، هو عائد لأسباب نفسية، فقد كان خالد دائم الاعتقاد بأن أخيه أفضل منه، وأنه الشخص الجيد الذي لا يفعل الخطأ، كما أنه على الرغم من أن كل الدلالات تشير إلى أن والدهما كان يفضل خالد على أخيه عمر، ولهذا كتب له الجزء الأعظم من ثروته، إلا أن خالدًا كان دائم الحرص على أن تسوء الأمور بين عمر وأبيه... ولم تجد لانا تفسيرًا للقصة سوى أن أمهما كانت تميل إلى جانب عمر أكثر من خالد، وهذا لأن خالد كان ولدًا فاسدًا منذ صغره، كما أن إدمانه على الكحول، وحياته كأعزب يميل إلى الحرية وألا تربطه علاقة جدية بالنساء، وكرجل

ينفـق الأمـوال في الملاهـي، وصـالات القمـار، تجعلـه أكـثر قابليـة لـكل الأعمـال السـيئة، حـتى لـو وصـل الأمـر لقتـل أخيـه...

وبينما يقف رفيق ولانا يتشاوران في الأمر، قال رفيق:

- هل سنصطحب الفتاة معنا حقًّا؟

- نعم إنه طلب أمها.

- لماذا قد تطلب السيدة رقية هذا الأمر...

- لا أدري، كما أنها قالت إنها تريد أن تلتقي عدنان قبل شامية.

- إنه حقًّا طلب غريب، أترغب في رؤية الرجل قبل ابنتها...

- قالـت إن علينـا أن نؤمـن الفتـاة جيـدًا، فهـي ليسـت آمنـة مـن عمهـا حـتى لـو كان في الأسر...

- والآن ماذا؟ لقد شارف الفجر على البزوغ.

- سـننطلق فـور وصـول الأوامـر بالتحـرك، لقـد قدمنـا الأدلـة الكافيـة...

وبقـي الاثنـان خـارج اليخـت في انتطـار أوامـر القبـض عـلى خالـد الأغـا، بينمـا كان عدنـان وشـامية يجلسـان في الداخـل، ويتبـادلان الحديـث:

- ظننت أنك ستنهارين عند معرفتك خبر موت أبيك.

- الآن بعـد كل مـا مـررت بـه أصبـح الانهيـار عـادة لي، الحقيقـة هـي أنـني منهـارة طـوال الوقـت، فلـم يظهـر عـليَّ أي تغيـير...

- كنـت أظـن أنـك تعرفـين كيـف تسـتمتعين بوقتـك أنـتِ ورفاقـك، ألسـت مشـتاقة إليهـم وإلى التسـكع برفقتهـم...

- كنـت مشـتاقة لأشـياء كثـيرة، وكانـت هنـاك الكثـير مـن الأسـئلة،

لكن خبرًا واحدًا قضى على كل الشوق، ومنح كل الأجوبة... رفضت لانا أخباري من هو قاتل والدي، لكني أظن أنني أعرفه، أخشى أنه قريبي الذي لم أكن آمنة في حضرته... والذي يبدو عليه أنه فجأة امتلك كل ما كان لوالدي.

- وإن كان هو هل ستظل لديك الرغبة ذاتها في الانتقام.

- نعم، بل إنها قد تزيد، سيخف العبء حينها عنه، فهو لن يتحمل العيش كقابيل.

- هل تنوين الانتقام لتخففي عبء الذنب عنه...

- لا أدري... لكني أشعر أن الليلة سأولد من جديد، سأكون أحدًا أحبه لا أعباء، ولا مشاكل له، لن أكون الفتاة المدللة التي لا تعبأ بأي مسؤلية كما كنت، ولن أكون الفتاة التي صفعتها الحياة دفعة واحدة، وحرمتها أبيها... عندما كنت مدللة لم أعرف يومًا للحياة قيمة، ولكن بعدما اقتربت من الموت مرات عدة عرفت قيمتها...

- أنتِ محقة تمامًا، لم أعرف معنى الحياة إلا عندما اقترب الموت، كل ذلك الوقت الذي كنت أقضيه في غيابات الأحزان، وكل تلك اللحظات التي عشتها في خوف بعيدًا عن ابنتي... أنا نادم عليها الآن، نادم على أيام حياتي التي مضت في الحزن سدى...

عندها أمسكت شامية يده، وقالت:

- الآن، وقد عرفت قيمة الحياة، أريد أن أقضيها برفقة من كاد أن يؤدي بحياته لأجل حمايتي.

- بل إنه وجد حياته، في محاولة حمايتك...

وبينما يتحدثان، دخلت لانا، وكانت الأوامر قد صدرت بالانقضاض على القصر والقبض على خالد الأغا... وطلبت إلى شامية مرافقتها، الحقيقة هي أنها كانت تريد الامتثال لطلب رقية الأغا في اصطحاب شامية إلى عمها وقت القبض عليه، كانت الأرملة المقهورة تدرك تمامًا ما تفعل... أرادت لشامية أن تظهر لعمها لحظة القبض عليه ليرى بعينيه كيف انقلب كل شيء عليه، وتنهار قصور أحلامه فوق رأسه، ويذوق ذل الانكسار، عندما يرى الفتاة التي حاول قتلتها، تنظر إليه وهو قاتل أبيها، بعدما كانت تنظر إليه وهو أخيه...

ليس هذا وحسب بل كان في نفس رقية شيء آخر، شيء جعلها لا تظهر لابنتها قبل ظهورها لعدنان...

حانت لحظة الرحيل برفقة الضباط، قالت شامية لعدنان:

- الآن، أحقق انتقامي...

- كوني قوية.

- أتعلم، قلبي الآن ينبض بخوف، لا أريد أن يكون عمي قاتل أبي، أنا أعرف تمامًا أنك تعرف القاتل، ولكن لن أسألك من هو، لا أرغب أن تصح ظنوني هذه المرة أيضًا.

- أيًّا من يكون قد فعل، فهو قاتل، ولا يستحق الشفقة، حتى لو صدقت ظنونك... فإنك لن تأخذك الرأفة به...

- أنت محق، دقائق قليلة وينتهي الأمر، وعندما أعود سأعود لك أنت، مولودة من جديد... ستكون في الانتظار؟!

- لا أدري ولكن القدر يأبى عليَّ الابتعاد، فكلما حانت اللحظة جُدِّد اللقاء.

- وأنا أطمئن لقدري...

انطلقت شامية، برفقة لانا ورفيق، وقوة من الشرطة، لم تكن متأكدة من الوجهة لكنها كانت مليئة بالظنون أن عمها الذي احتجزها في غرفتها داخل قصر أبيها، هو نفسه المسئول عن قتله... كانت تجلس في السيارة تنظر للطريق، وكلما اقترب السير كلما تأكدت الظنون، فالطريق الذي يسيرون فيه هي تعرفه جيدًا إنه الطريق لقصر أبيها الذي يجلس فيه عمُّها... إلى أن تأكد كل شيء لها بعدما توقف السير أمام بوابات القصر، وبدأت القوات باقتحامه، ومحاصرة حراس عمها بالسلاح.

عندها تأكد كل شيء بينما دخل الجميع إلى القصر بسرعة، بقيت شامية في مكانها في السيارة... كانت لديها ظنون أن عمها هو الفاعل، الآن وقد تأكدت تلك الظنون، وكأن شعورًا من خارج هذا العالم قد أصاب قلبها، هو ليس شعور فلم يعد القلب قادرًا على أن يشعر بشيء... وهو لا يشبه الألم، فالألم إن اشتد بالقلب قتله... بل هو شيء جعلها كالميت الحي... لا الصدمة... ولا الشعور يصفه...

وبعدما انتهى الضباط من اقتحام القصر وأصبح عمها في الداخل محاصرًا بسلاح الشرطة، نزلت شامية من السيارة، ودخلت القصر، عندما نظر إليها خالد شعر أن بساط الملك قد سحب من تحت قدميه... وأن سيدة القصر دخلت عرينها، فخرَّ على ركبتيه كالضبع الذي ظن أنه حاز على ملك الأسد وفوجئ به يدخل عرينه... كل خطوة كانت تخطوها كانت تخسف بنفس الأخ الذي استباح روح أخيه... كل نظرة تلقيها إليه تقتله بألف سهم ولا يملك أن يغمض عينيه... لا يملك الأمر في حضرة

آمرتـه... الآن أخـوه الـذي اعتـاد أن ينقـذه في المواقـف العصيبـة قـد قتلـه بيـده، ولـن يـأت لإنقـاذه، الآن لا شيء سـوى أحبـال الذنـب تطـوق رقبتـه... إلى أن نالـت منـه وشـلت حركتـه... فانهـار تمامًـا، وخـرَّ عـلى الأرض متهاويًـا تحـت تأثـير الشـلل الـذي أصـاب لسـانه وجسـده، ورأت شـامية في وقوفهـا امامـأ، وعـدم مـد يـد العـون، انتقامًـا كافيًـا...

بينمـا أحـاط بـه الجنـود، وحملـوه إلى الخـارج مـن أمـام ناظرهـا... وبقيـت هـي في القـصر ذاتـه الـتي شـهد هيمنـة أخ بنيـتْ عـلى دمـاء أخيـه، والـذي شـهد عـلى انهيـار المهيمـن بالطغيـان...

وفي تلـك اللحظـة، أصبحـت شـامية هـي ملكـة القـصر، والمتحكمـة في كل أمـلاك عائلـة الأغـا...

بينمـا كان الغريـب ينتظـر، في مكانـه أن تعـود لـه حاكمـة قلبـه الجديـدة، والـتي لـم يكـن يعلـم أن القـدر هـذه المـرة لـن يجـدد اللقـاء؛ إذ بينمـا هـو جالـس داخـل اليخـت العائـم، فتـح البـاب، ودخلـت.. امـرأة في عقـود الشـباب الأخـيرة، مقعـدة عـلى مقعـد متحـرك... لـم يملـك أي تفسـير مَـن هـي، وكيـف وصلـت إلى هنـا، بينمـا نظـرت إليـه، ولـم يكـن أبـدًا مـن الصعـب عليهـا قـراءة الحـيرة في عينيـه... وبـدأت تتحـدث:

- السيد عدنان الأحمد.

-...

- دعـني أعرفـك بنفـسي، أنـا رقيـة، أنـا أم شـامية، وأرملـة عمـر الأغـا...

- مرحبًا.

مرحبًا بقلق، كلمة نطق بها عدنان فور مثوله أمام رقية، فقلبه الذي استعاد شيئًا من الحلم، بدأ يلح عليه أن الحلم لن يدوم...

- مرحبًا بك عدنان، أنا هنا الآن أمامك، امرأة مقعدة، لكني أقدم لك كل ما يمكن أن تقدمه أم لأجل إنقاذ حياة فلذة كبدها من الموت المحتم... ولكن دعني أسألك إن كان يجب عليَّ أن أشكرك لإنقاذك حياة ابنتي، أم لا أفعل... فأنت حتمًا لا تنتظر الشكر لإنقاذ حياة زوجتك...

عندها عاد وجلس على المقعد أمامها، بعد أن أدرك ما ترمي إليه، ورد قائلًا:

- ألم يخبرك من كانوا يراقبون أنفاسنا أنها زوجتي بشكل غير رسمي، وأنني لا أعترف بشرعية هذا الزواج...

- إذن اسمح لي يا سيدي، أن أشكرك، وأثني عليك...

ثم حنت رأسها له تعبيرًا عن امتنانها، ولكن عدنان الذي تأكد أن رغبتها ستقضي على الحلم الذي بزغ ضوؤه في قلبه، كان متمسكًا بشعاع الضوء الذي أنار حياته، فقال:

- وإن كنت أرغب بشدة في جعله حقيقة، وألا أسمع كلمات الشكر على أداء واجبي تجاه زوجتي، وأحافظ على حياتها.

- الآن أب لابنة، وأرمل لحسناء إنجليزية يطلب يد ابنتي للزواج، لكن أتظنني أرفض الطلب؟! بل أقبل بشدة.

-...

قد بدأت بأسباب الرفض، وختمت بالموافقة... ولكن لأنها ترمي لأبعد من ذلك، وأدرك ذلك عدنان فلم يرد، فقط تركها

تـأتي بـكل مـا عندهـا:

- كيـف أرفـض زوجًـا لابنـتي عـرض حياتـه للهـلاك لأجلهـا، وهـو حـتى لا يعرفهـا، هـل أرفضـه الآن بعدمـا أصبـح يعرفهـا، ويريدهـا... أي أمر بلهـاء قـد تفعـل.

-...

- لكـن أتخـال نفسـك تعـرف شـامية جيـدًا، أتظـن أنـك الآن تعـي طريقـة تفكيرهـا...

إنهـا أميرة قـصر مدللـة، تنبهـر بالأشـياء في بدايتهـا، لكنهـا لا تنفـك تمـل منهـا مهمـا ارتفعـت قيمتهـا... لقـد قضيـتَ برفقتهـا شـهرين بينمـا أنـا أفنيـت في قربهـا الدهـر... هـي ابنـتي، وأعرفهـا جيـدًا.

-... أثق بها.

- وهـي أيضًـا تفعـل لكـن اعـذرني، أنـا مدينـة لـك بـكل الشـكر، ولكـن الآن أنـا أمر أريـد أن أحمـي ابنـتي مـن التعاسـة المحتمـة... إن شـابة عـلى أبـواب العشرينيـات لـن تسـطيع التمسـك بالحيـاة مـع رجـل أرمـل، ولـه ابنـة، ويكبرهـا سـنًّا...

- توقفي...

كان الحديـث لازعًـا وكلاهمـا مرغـم عليـه... فمـا رقيـة إلا أم تريـد لابنتهـا الوحيـدة السـعادة المطلقـة، وحـتى عدنـان الـذي ظـن أن شـامية بارقـة نـور أضـاءت لـه، عـاد ينظـر إلى أنـه ببقائـه معهـا يدمـر سـعادتها... ففتـاة مثلهـا مـا يـزال أمامهـا الكثـير لـتراه في الحيـاة، بـدلًا مـن إفنائهـا في مواسـاة رجـل تـنزف منـه الجـروح مـن كل اتجـاه...

عاودت رقية الحديث بعد أن أحست أن كلماتها كانت لازعة:

- اعـذرني يـا سـيد عدنـان، اعـذر أمًّـا ظنـت يومًـا أنهـا خـسرت

ابنتها الوحيدة، ويعيدها لها القدر من جديد، حتمًا أريد أن أحميها من نسمة الهواء...

أنا لا أطلب منك الرحيل عنها، بل أتيت ألتمس منك ذلك فقط لأجل سعادتها والقرار عائد لك... وشيء آخر لو لم تكن عراقيًّا عربيًّا، وأعلم أن المال إن كوفئت به أُهِنت، لكافأتك بكل ما أملك...

ثم أدارت رقية مقعدها لتغادر غرفة اليخت، وجلس عدنان مرة أخرى بين دوامات الفكر... يفكر فيها هي... في الفتاة التي أراد أن يحبها، بالنسبة لرجل يقترب من الأربعين فإن فتاة في بدايات العشرينيات، لن تجد السعادة المطلقة في قربه كما أن الأحداث التي مرت بها، في الفترة التي قضاها برفقتها يجعل تعلقها بها أمرًا بديهيًّا، كما أنها الآن، وقد استعادت ملك أبيها، وحياتها فلم تعد بحاجة لمن يحميها، وأن أمها قد قالت إنها ستنسى كل شيء بمرور الوقت، وأميرة مدللة مثلها تستحق أميرًا مثلها، لتبدأ حياتها معه، وإنما ليس من العدل أن تبدأ حياتها مع رجل قد بدأها وانتهت بالنسبة إليه، حتى وإن كان يرغب في بداية جديدة، فإنها حتمًا لن تكون كالبداية الأولى...

وبعد قليل غادر عدنان غرفة اليخت إلى الخارج ليجد رقية تجلس أمامه، وتنظر للبحر، وتنتظر قراره، فذهب إليها، وقال:

- أتمانعين لو طلبت هذا اليخت مكافأة لي...

...-

اندهشت رقية من طلبه إلى حد أنها لم تستطع الرد مباشرة... وبعد أن استجمعت قوة تفكيرها أباحت له طلبه:

- بالطبع لا... هو لك...

فعـاود الدخـول إلى اليخـت، وذهـب إلى غرفـة المحـرك، وأحـضر البنزيـن وبـدأ يرشـه في كل أنحـاء المركـب بينمـا كانـت رقيـة تراقـب في صمـت، وعندمـا حـاول حراسـها التدخـل لمنعـه ممـا يقـوم بـه أوقفتهـم رقيـة وأصـدرت أوامرهـا لهـم بـألا يمنعـوه... وبعـد قليـل غـادر اليخـت بعـد أن تألكـد أنـه غطـى كل جوانبـه بالبنزيـن، وطلـب مـن أحـد الحـراس قداحـة... فنظـر الحـارس إلى رقيـة، فأشـارت لـه أن يعطيـه مـا يطلـب... فأعطـاه الحـارس القداحـة... بعدهـا أشـعلها، وألقاهـا عـلى اليخـت فبـدأت النـيران بالاشـتعال... ونظـر إلى رقيـة، وقـال:

- لا تخبريهـا أنـني نكسـت بوعـدي لهـا ورحلـت... قـولي إن حادثًـا وقـع فاشـتعل المركـب بمـن فيـه...

...-

لـم تـرد رقيـة بكلمـة واحـدة، ولـم تملـك الـرد فـإن العـراقي قـد ختـم كل الحديـث... ومـا مـن كلمـة في الكـون قـد تـرد عليـه فعلـه وتصرفـه... وبـدأ الحـراس بإبعادهمـا عـن مـكان اليخـت كي لا تؤذيهمـا النـيران... وبمجـرد الابتعـاد بمـا يكفـي طلب عدنـان إلى رقيـة أن تؤمن لـه السـفر للعـراق في ذلـك الفجـر، فاتصلـت برفيـق ليصطحبـه إلى المطـار، ويسـتقل طائـرة عمـر الأغـا الخاصـة متجهًـا لأراضي العراق... وبعدهـا حـضر رفيـق بسـيارته ليؤمـن لـه الذهـاب عـبر المطـار... وركـب عدنـان السـيارة، وكانـت الأربعـة وعـشرون سـاعة الـتي قضاهـا في إسـطنبول قـد انقضـت... كلمـا ابتعـد السـير اقـترب مـن أرض المطـار... شـعر بـشيء منـه ينقـص، وأنـه يـترك خلفـه قطعـة منـه، وروحًـا جديـدة قـد منحـه القـدر إياهـا لكنـه الآن عـلى الأقـل، يعلـم

أن روحـه تلـك سـتكون بخـير بدونـه... وبعدمـا انطلـق في السـيارة برفقـة رفيـق، دخلـت سـيارة لانـا، الـتي كانـت تقلهـا هـي وشـامية إلى موقـع اليخـت، فـإذا برجـال الشرطـة تطـوق المـكان، وكان المركـب قـد شـارف عـلى الغـرق بعـد أن التهمتـه النـيران في أقـل مـن ثلاثـين دقيقـة... فنظـرت شـامية إليـه، وبـدأت تقـترب ببـطء وكأنهـا تخـشى مـا تـرى ومـا تسـمع، لا تصـدق شـيئًا ممـا تسـمع أذنهـا، أو مـا تـرى عيناهـا... سـوى أنهـا تثـق بـأن القـدر سـيعاود تجديـد اللقـاء كمـا أخبرهـا عدنـان...

لكـن القـدر هـذه المـرة لـم يفعـل، لـم يكـن هنـاك عدنـان هـذه المـرة كمـا كانـت تظـن أنهـا سـتجده عندهـا انطفـأ ذلـك الضـوء في عينيهـا، ووقفـت دون حـراك تنظـر إلى المركـب وهـو يغـوص إلى الأعمـاق... لـم يكـن حينهـا المركـب وحـده هـو مـا يغـرق بـل إن الـروح الـتي ظـن عدنـان أنهـا سـتكون بخـير بدونـه كانـت هـي الأخـرى تغـرق برفقتـه...

في خـلال أربعـة وعشريـن سـاعة انقضـت، انقـضى معهـا كل شيء... فـالآن لا أمهـا الـتي تقـف أمامهـا، ولا أصدقائهـا الذيـن يهرولـون إليهـا، ولا شيء يعيـد إليهـا الشـعور.

وخيمـت صفحـة سـوداء عـلى كل الأحـداث... بعدمـا انقضـت تلـك الأربعـة وعـشرون سـاعه الأخـيرة عـلى أرض تركيـا...

...

ومـر الوقـت، وبعـد خمـس سـنوات تجـدد المشـهد مـن قـصر الراحـل عمـر الأغـا... مـن عـلى أبـواب القـصر تخـرج امـرأة أنيقـة في زي امـرأة ارسـتقراطية عاملـة، يختفـي جمـال عينيهـا تحـت النظـارات الزجاجيـة، وشـعرها محكـوم بقـوة فـوق رأسـها، وتتحـرك بسرعـة

وسط الحرس والخدم إلى سيارة سوداء فخمة... تنطلق بها إلى العمل، بينما كان القصر نفسه من الداخل يُطبع عليه طابع الترتيب والنظام والهدوء المزوج بالفخامة، كل شيء فيه يبدو فخمًا، وجديًّا... لا ضحكات، لا هرولة، لا سوء نظام.

حتى غرفة الفتاة التي كانت تشع بحيوية وجنون الشباب، تحولت إلى جناح يشبه تلك الأجنحة الموجودة في القصور الإغريقية، مليئة بالنظام، والفخامة في كل قطعة داخل الغرفة.

حتى الزهور في الحديقة تبدو مرتبة بشكل منظم، فحاكمة القصر الجديدة، سيدة سلبت منها الروح، وإن النساء عاملات بالنظام إذا فقدن روحهن للحياة...

وعلى أبواب بناء زجاجي فخم توقف الموكب الذي يقل الحاكمة لتدخل إلى عرين إدارة ممتلكاتها... من حولها يقف العاملون تحية لها... لم تكن حاملة الغضب ولكن الجدية الخالية من الترف، فيهابها الجميع ولكن لا يخافون منها...

ودخلت لتجلس في غرفة المكتب من خلفها صورة فخمة للسيد عمر الأغا، ومن أمامها لافتة اسمها، شامية عمر الأغا...

لم تتغير كنيتها عن أبيها؛ لأنها لا تستطيع أن تنسب نفسها إلى كنية من لا تسطيع أن تثبت صحة زواجها منه، ولطالما أرادت أن تكون تلك الكنية هي شامية عدنان الأحمد...

كانت تنقضي الأيام تلو الأخرى وهي على حالها، لم تكن هذه المرة الأميرة المدللة التي لا تنفك تنسى أهمية الأشياء... بل كانت من الداخل امرأة محطمة فقدت السبب للحياة بعد أن فقدت من توسمت فيه جمال الحياة... الآن فإن قربها من

عدنـان الـكأس المكسـور... أصابهـا بالجـرح ذاتـه... فأخـذت تسـير عـلى النهـج ذاتـه... تعيـش عـلى الكلمـات الـتي قالهـا لهـا، وصورتـه المحفـورة في ذهنهـا، وتفـر مـن الأماكـن الـتي تتذكـر رؤيتـه فيهـا، فـلا تقصـد بسـتان أتاتـورك ولا تذهـب إلى المنطقـة الـتي غـرق فيهـا القـارب... كانـت تسـير عـلى نفـس نهـج حياتـه التعيسـة قبـل أن يلقاهـا في كل شيء، غـير أنهـا لـم تكـن مهملـة في حياتهـا كمـا كان هـو يفعـل، إعمـالًا بطلبـه منهـا أن تحقـق النجـاح، وألَّا تسـمح لـشيء بـأن يعيقهـا مهمـا كانـت الظـروف... فقـط تقـضي الأيـام بـين العمـل والقـراءة... ولا شيء آخـر حـتى أصدقاءهـا توقفـوا عـن انتظـار عودتهـا إليهـم كمـا كانـت، ويئسـت أمهـا مـن إعـادة البسـمة إليهـا، فملامـح الجديـة كانـت تعلـو كل شيء، وقتلـت حـتى تلـك البسـمة عـلى شـفاهها... أمـا الـزواج فـكان أمـرًا النقـاش غـير مبـاح فيـه، فهـي تـرى أنهـا أرملـة لا ترغـب في الرجـال... وكلمـا بـدأ النقـاش في موضـوع الـزواج، ثـار غضبهـا، وانقلـب الأمـر إلى كارثـة في القـصر. حـتى بعـد انقضـاء خمـس سـنوات، فهـي مـا تـزال عـلى حالهـا لا جديـد، غـير أنهـا كانـت لا تثـق بـأن اللقـاء لـن يتجـدد ذلـك الشـعور الـذي مـا دام في داخلهـا بـأن اللقـاء حتمًـا سـيكون...

وفي أحـد الأيـام كانـت تحلـق بطائرتهـا الخاصـة إلى لنـدن، لعقـد اجتمـاع عمـل هنـاك، لنـدن المدينـة الـتي زارتهـا في حياتهـا مـرات عـدة، ولكـن لا تذكـر منهـا سـوى تلـك المـرة الـتي قضتهـا برفقـة عدنـان، عندمـا تنـاولا العشـاء في المطعـم، ومشـت في شـوارعها بقدمـين عاريتـين، وتلـك اللحظـة عندمـا حملهـا بـين ذراعيـه عندمـا أصـاب قدمهـا التعـب... لا تذكـر شـيًا مـن اللحظـات البشـعة الـتي قضتهـا في مـنزل كاثريـن، ولكنهـا تتذكـر كيـف كان عدنـان دائمًـا في

قربهـا...

وبعـد قليـل حطـت طائـرة الاقتصاديـة البارعـة في مطـار لنـدن، فنزلـت منهـا تخفـي عينيهـا الشـامية خلـف النظـارات السـوداء، وتخفـي عفويتهـا العربيـة خلـف الـرداء الفاخـر، واسـتُقبلت اسـتقبال كبـار الـزوار، مـن ثـم إلى سـيارة سـوداء مريحـة في السـفر، إلى فنـدق خمـس نجـوم، وسـط حفنـة مـن الحـرس لحمايتهـا...

ولكنهـا رغـم كل هـذا تؤمـن أن تلـك المـرة الـتي أتـت إلى لنـدن هروبًـا بالباخـرة عـبر الشـواطئ إلى سـيارة عاديـة غـير مريحـة عـلى الإطـلاق في السـفر، في ثـوب امـرأة عراقيـة بسـيطة، كانـت أكـثر راحـة مـن تلـك الرحلـة الفاخـرة.

ونزلـت في فنـدق فخـم سـبع نجـوم، كان بهـو الفنـدق يشـبه بهـو قصـور الملـوك القدمـاء في فخامتهـا، لكنهـا رغـم هـذا لا تعبـأ بـشيء ممـا حولهـا...

ومشـت وسـط حراسـتها إلى الجنـاح الـذي سـتقيم فيـه إلى أن يحـين موعـد الاجتمـاع... عندمـا دخلـت الغرفـة نزعـت نظارتهـا، وجاكيتًـا أسـود كانـت ترديـه، وألقـت بهمـا عـلى أريكـة كانـت في الغرفـة...

ثـم أدارت التلفـاز حـتى تهـرب فيـه مـن التفكـير في ذكـرى عدنـان... ولكـن دون فائـدة، هـي لا تشـم الروائـح الطيبـة في الغرفـة، بـل تشـم ريـح تلـك الليلـة، لا تسـمع صـوت الموسـيقى الهادئـة في جنـاح إقامتهـا، بـل تسـمع صوتـه، وكلماتـه لهـا، لا تـرى فخامـة الغرفـة مـن حولهـا، ولكـن تـرى أضـواء المدينـة في تلـك الليلـة... عندمـا خلعـت حذاءهـا، ووضعـت قدمهـا عـلى الأرض لـم تلامـس السـجادة الناعمـة الموضوعـة عليهـا، بـل لامسـت ذلـك الطريـق الـذي كانـت تسـير عليـه عاريـة القدمـين ....

لا فائـدة، ولا مهـرب لهـا مـن ذكـرى تلـك الليلـة إلى حـد أنهـا فكـرت في ارتـداء سـترتها، ونظارتهـا، والحـذاء، وتعـود أدراجهـا دون بـرم اتفـاق العمـل، لـولا أن دقائـق قليلـة كانـت تفصلهـا عـن موعـد الاجتمـاع...

وعندمـا حـان موعـد اللقـاء كان موكـب حراسـتها المكـون مـن رجلـين، ينتظـران أمـام بـاب الجنـاح، ومشـت في حراسـتهما إلى قاعـة الاجتمـاع... طاولـة مسـتديرة كبـيرة ويتوسـطها أنـواع الزهـور المختلفـة، ويجلـس عليهـا كبـار رجـال الاقتصـاد بمستشـاريهم القانونيـين، وعندمـا دخلـت شـامية، وبـدأ الاجتمـاع بـدأ كل الحضـور بتقديـم أنفسـهم، مـن بـين الرجـال في بِزَّاتهـم السـوداء الأنيقـة، والنسـاء الـلاتي يجلسـن عـلى الطاولـة في ثيابهـم الفخمـة كان هنـاك وجـه واحـد مألـوف لشـامية، وجـه رأتـه مـن قبـل، وكذلـك أيضًـا كانـت شـامية مألوفـة لصاحبـة هـذا الوجـه، كانـت إحـدى المستشـارين القانونيـين المسـئولة عـن واحـدة مـن كـبرى مؤسسـات الاقتصـاد في لنـدن... وعندمـا حـان دور تقديمهـا لنفسـها قالـت:

- كيت جورج ...

كانـت كيـت المحاميـة الماهـرة كمـا قابلتهـا شـامية في مـنزل كاثرين، منـذ خمـس سـنوات، كانـت قـد أصبحـت الآن مـن كبـار المستشـارين القانونيين...

بـدأ الاجتمـاع ولكـن كانـت شـامية عـلى غـير عادتهـا منـذ أن بـدأت في إدارة عمـل أبيهـا لـم تسـتطع أن تكـون مـع الموجوديـن في الاجتمـاع بقـدر مـا كانـت أكـثر تركـيزًا مـع كيـت، وانتهـى الاجتمـاع دون أن تنطـق بكلمـة واحـدة، فقـط مستشـاروها كانـوا يتحدثـون... وعندمـا انتهـى المجلـس دعـى أحـد رجـال الأعمـال الموجوديـن في

المجلس كل الحضور إلى احتفالية صغيرة في نفس الليلة في بهو الفندق بمناسبة بدء الشراكة الاقتصادية في أحد المشروعات...

ثم انصرف الجميع من على الطاولة، بينما بقيت شامية تحدق بكيت، إلى حد أن كيت لاحظت ذلك... فابتسمت ابتسامة خفيفة باتجاه شامية، ثم أومأت رأسها لها معبرة عن الترحيب بها، وغادرت طاولة الاجتماعات...

غادر الجميع بينما بقيت شامية وحدها على طاولة الاجتماعات، تفكر في كيت، وكاثرين، وزهرة...

ثم بدأت تفكر في زهرة، وكيف يمكن أن تكون حالها... إلى حد أنها فكرت أن تذهب لزيارتها في بيت كاثرين.

عندما بدأت الحفلة في المساء، انطلقت الموسيقى الهادئة، وبدأ الرجال في دعوة النساء إلى الرقص على الأنغام الهادئة، بينما دخلت شامية الحفلة، واستقرت على إحدى الطاولات، وبقي الحرس في انتظارها خارج الحفلة، وبينما تجلس على الطاولة إذا بكيت تأتي من بين الحضور في ثوب أسود أنيق... وجلست إلى طاولتها، وقالت:

كيف حالك؟!

بخير.. كيف هي حالك كيت، وكيف هي كاثرين؟!

ماتت، لقد ماتت كاثرين، مضى على الأمر عامان إلى الآن.

اه!! اعذريني لم أكن أعلم من قبل، ولكن كيف هي الفتاة، زهرة كيف حالها بعد موت كاثرين.

حسنًا، هي بخير حتمًا إنها كذلك برفقة أهلها في العراق، علي.. لقد أتى واصطحبها.

علي.

نعم. عـ...

قبـل أن تكمـل كيـت كلمتهـا الأخـرى، أتى رب عملهـا، وقطـع عليهـا الحديـث... ألـم تعجبكـم الموسـيقى سـيداتي، ألا ترغبـون في الرقـص، والاسـتمتاع بالحفـل؟

شكرًا لك، في الحقيقة لست مهتمة.

حسنًا.. أنا مهتمة.

جيد، إذن اسمحي لي كيت.

طبعًا، اعذريني شامية.

اه، طبعًا تفضلي.

وانطلقـت كيـت للرقـص برفقـة رب عملهـا، دون أن تكمـل جملتهـا لشـامية... بينمـا شـامية لـم تطـق الجلـوس في الحفـل، وليـس الحفـل وحـده بـل إنهـا لـم تطـق بقاءهـا في لنـدن، أكـثر مـن ذلـك... فأمـرت حراسـها بإعـداد الطائـرة إلى تركيـا، ولـم تنقـضِ الليلـة إلا وهـي في المطـار عائـدة إلى تركيـا... حـتى دون الانتهـاء مـن العمـل، فقـط تركـت مستشـاريها ليكملـوه...

وكانـت قـد وصلـت الأراضي التركيـة مـع بدايـات الـشروق الأولى... ومـن المطـار إلى قـصر الأغـا... في خطوتهـا السريعـة الثابتـة، ويـسرع الخـدم حولهـا مـن كل اتجـاه، مـن يحمـل عـن يديهـا معطفهـا، ومـن يسـألها إن كانـت ترغـب في شيء... ظنـت أنهـا بعودتهـا لتركيـا سـتنسى حديـث كيـت، وتنـسى كل شيء، ولكـن انقـضى أسـبوع كامـل منـذ عودتهـا، ولا جديـد، لا تنفـك تفكـر في الفتـاة، ولا تنفـك تفكـر في زيـارة بيـت عـم عدنـان، ولكنهـا تخـشى مـن اسـتقبالهم لهـا،

تمامًا كما كان عدنان يشعر بأنه شريد بالنسبة إلى أهل سارة، كانت شامية تشعر أنها شريدة بالنسبه لأهل عدنان... فلا صلة تربطها بهم خاصة بعد أن أوصلها عدنان آمنة لبيتها، ولم يعد آمنًا لبيته كما كانت تعتقد...

وبعد انقضاء أكثر من أسبوع على سفرها إلى لندن، كانت تجلس إلى طاولة الطعام هي وأمها وتضيف السكر إلى قهوتها الداكنة، أضافت ملعقة، ملعقتين، وفي الثالثة، أمسكت أمها يديها، وقالت:

- أنتِ لا تحبين قوتك حلوة إلى هذا الحد...

فانتبهت شامية، وكأنها عادت من الغيابات، وقالت:

- لا بأس إنها مجرد قهوة، لا بأس أن تكون حلوة أكثر مما ينبغي...

- لم يعد هناك بأس بأي شيء بالنسبة إليك...

- دعينا من هذا أمي، أنتِ لا تريدين إزعاجي حقًّا.

- حسنًا عزيزتي، كما تشاءين.

سكتت شامية لبرهة، ثم تذكرت أن أمها لم تذهب إلى العراق منذ أن عادت من الحادث... فقالت:

- أمي لما لم تعودي للعراق كما كنتِ ترغبين دائمًا، أنتِ حتى لم تفكري في زيارة البلاد منذ المرة الأخيرة؟

فردت رقية بضيق:

- لا أريد العودة إلى الأرض التي كدت أن أفقد حياتي، وابنتي الوحيدة فيها.

- كنت أعرف أحدهم، فقد روحه فيها، ورغم ذلك كان لا يقول عنها سوى الوطن.

فظنت حينها رقية أن ابنتها أدارت الكلام إلى الحديث في سيرة عدنان، والتي لا تتحدث عنها كثيرًا، لكن أمها لا تمنعها من ذلك، بل إنها أصبحت تتمنى أن يعود عدنان، لأنها أدركت أن حكمها في تلك الليلة كان خاطئًا... وأن عدنان كان الشيء الذي لم تكن لتنساه ابنتها، أو تتخلى عنه... وبينما ما يزالان على طاولة الطعام، قالت شامية مفاجأة أخرى:

- أنوي السفر لهناك، هل ترافقيني..

عندها جن جنون رقية التي كانت كثيرة القلق على حياة ابنتها، فردت بغضب:

- هل جننت، أتريدين العودة للأرض التي كدتُ أخسرك عليها...

- لا تقلقي أمي سأذهب في طاقم حراسة متكامل، لا داعي للقلق.

- لا أريدك أن تذهبي.

- آسفة أمي، لكن لابد أن أذهب.

- شامية أنت...

- أمي سأكون بخير، أعدك.

ثم نهضت شامية من على طاولة الطعام قبل أن تمنح لأمها المزيد من المجال للتفاوض معها في نقطة السفر، وذهبت في طريق العمل كما هو الحال كل صباح، ولكنها أبلغت سكرتيرة مكتبها أن تعد لها زيارة إلى العراق بالتحديد إلى بابل، في خلال

أيـام معـدودة... لـم تكـن تعـرف مـاذا سـتقول، وكيـف سـتقدم نفسـها لهـم، لكنهـا لـم تكـن تفكـر في شيء سـوى رغبتهـا في رؤيـة الصغـيرة، عـلى الرغـم مـن أنهـا واثقـة أن الزيـارة لـن تـترك طابعًـا جيـدًا لـدى الفتـاة، إلا أنهـا كانـت تشـعر بـشيء في داخلهـا يدفعهـا للسـفر إلى العـراق...

عندمـا حانـت لحظـة الرحلـة كانـت ضربـات قلبهـا تتزايـد، وكان يزيـد إيمانهـا أن الرحلـة هـذه المـرة سـتكون أغـرب مـن كل تلـك الـتي سـبقتها، وعندمـا وصلـت الأراضي العراقيـة، كان في انتظارهـا سـيارة سـوداء فخمـة، محاطـة بسـيارتين للحـرس، لتأمينهـا تأمينًـا تامًّـا... وأعطـت أوامـر السـير نحـو بيـت عـم عدنـان الـذي نزلـت فيـه عندمـا كانـت معـه... مـن حولهـا كان يبـدو كل شيء يعـث خرابًـا مـن الداخـل والخـارج، وتذكـرت كلمـة عدنـان، عندمـا أخبرهـا أن الأوطـان كالأمهـات تعطينـا كل شيء فهـل إن أصابهـا داء، انقلبنـا عليهـا... وبـدأت تفكـر أو لـو كان هـذا الـداء يحصـد أرواح أبنائهـا... أو لـو كان يشـوه جمالهـا، أو لـو كان يقـضي عـلى الحيـاة فيهـا...

بعـد سـاعات مـن السـير كان الجمـع قـد وصـل مشـارف المدينـة الـتي بهـا مـنزل عمهـا، وبـدأت ملامـح الأماكـن تلـوح لشـامية، فاقتربـت مـن نافـذة السـيارة لتأخـذ نظـرة مـن كثـب، للأماكـن مـن حولهـا...

وعندمـا اقـترب السـير مـن مـنزل عـم عدنـان لاح شيء غريـب أمـام عينيهـا، سـور كبـير تتـدلى مـن عليـه أزهـار، لكنهـا ليسـت أزهـارًا عاديـة، بـل إنهـا تشـبه تلـك الـتي تتـدلى عـلى أشـجار متـنزه أتاتـورك... أمـرت شـامية السـائق أن يوقـف السـير مـن فـوره...

ونزلـت مـن السـيارة باتجـاه بوابـة ذلـك السـور، كانـت البوابـة

مفتوحة أمام الجميع، وقفت شامية على بوابة البيت، ثم خططت خطوتين للداخل فوجدت أمامها منزلًا صغيرًا له باب زجاجي، وحديقة واسعة، ومن أمامها تلهو أطفال عدة ويمرحون، ومن أمام عينيها، مرت فتاة شابة بشعر بني طويل يتدلى على ثوبها العراقي، كانت تركض وراء الأطفال وتلهو معهم، إلى حد أنها لم تنتبه لوجود شامية، بدأت تنظر حولها فشعرت أنها في نسخة مصغرة من بستان أتاتورك، وعندها تذكرت كلام عدنان، عندما كان يخبرها أنه ينوي العودة للعراق، ويعمل أستاذًا للصغار، ويزرع في حديقة منزله أشجارًا، وأزهارًا كالتي تشبه بستان أتاتورك، ويجعل أزهارها تتدلى من على أسوار منزله، فيأتي بأتاتورك على أسوار بابل...

وبينما تقف في مكانها إذا برجل أنيق بلحية سوداء يتخللها بعض الشعر الأبيض، ونظارة زجاجية من أمام عينيه البراقتين، وجبين متبسم، يخرج من خلف الأزهار، وينظر باتجاه الباب كأنه كان في انتظار أحدهم... رجل في كل مرة كان يسقي فيها أزهار حديقته، كان يخيل إليه أن عزيزًا عليه سيزوره عبر بوابة منزله إلى حد أنه كان يتركها مفتوحة كلما حان وقت ري الزهور...

وضع عدنان ساقية الزهور من يده، ووقف ينظر باتجاه المرأة الأنيقة من أمامه، التي كان ينتظر قدومها منذ يوم غادر بلادها، بينما كانت شامية لا تصدق ما تراه عيناها، لا تصدق أن ما آمنت به طوال هذه السنوات يتحقق الآن، وأن القدر عاد ليجدد اللقاء...

في تلك اللحظة اكتملت الصورة لدى الاثنين، بل إن بوادر المستقبل ترآءت لكليهما، إلى حد أنهما لم يهتمَّا ماذا كان السبب

في أحـداث المـاضي، بـل إنهمـا لـم يريَـا مـن الحيـاة سـوى بـوادر المسـتقبل المـشرق الـدافئ...

***

فـي **كيـان للنشـر والتوزيـع**، هدفنـا نشـر كل إنتـاج إبداعـي، جودتـه عاليـة، وأفـكاره أصيلـة، فـي مختلـف مجـالات الأدب والسياسـة والصحافـة والفـن، باللغـة العربيـة والإنجليزيـة. نهتـم بالمواهـب، ونرعاهـا، ونتيـح لهـا فرصـة الوصـول للقـارئ العربـي، مـع مراعـاة أفضـل معاييـر الجـودة والاحترافيـة فـي النشـر.

رسـالتنا فـي كيـان، تشـجيع حـب القـراءة والكتابـة فـي مصـر وعالمنـا العربـي، وتطويـر مهـارات الإبـداع، وتعزيـز ثقافـة التميـز والابتـكار. كُتَّابنـا موهوبـون، متمرسـون، مصريـون، ومـن جميـع أنحـاء الوطـن العربـي، وإصداراتنـا متنوعـة، متميـزة، مختلفـة. دائمًـا نرحـب بالكتـاب الشـباب، والمواهـب الجديـدة، ونعطـي فرصـة متسـاوية للجميـع؛ لأن مرادنـا هـو الارتقـاء بفنـون الأدب العربـي ككـل، والوصـول بالإنتاجـات الابداعيـة العربيـة إلـى العالميـة .

لـو تحـب **تراسـلنا**، لـو عنـدك استفسـار، لـو حابـب ترسـل لنـا إنتاجـك الأدبـي، سـواء كان روايـة، أو شـعر، أو مقـال، باللغـة العربيـة أو الإنجليزيـة، مـا تترددش.

ابعـت لنـا علـى:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678 -0235611772**

هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing